

تأليف

أرماندو نيشي

ترجمة

حسين محمود

تقديم ومراجعة وشرح

مجدى يوسف

تاريخ مختلف للأدب العالمي

1081



فى الوقت الذى تنهال علينا فيه الإهانات لمقدساتنا بين الفينة والأخرى فى مختلف أرجاء العالم الغربى، وبترافق ذلك الموقف الاستبعادى للأخر وعقائده وشخصيته الحضارية، مع تضيق الخناق على هجرة أصحابه إلى الأقطار الغربية واضطهاد أولئك المقيمين فيه منذ عشرات السنوات وتهميشهم، وذلك على جميع المستويات الرسمية والإعلامية والشعبية، نجد صوتاً يعلو فى تلك البرية الغربية ليقول لها: لا. لقد حطمنا

الأفارقة والآسيويين والأمريكيين الأصليين عندما "زرناهم" فى بلادهم كمحتلين ومغتصبين، واليوم عندما يزورنا هم فى بلادنا بكل ما يحملون من آمال كبيرة للقائنا والتعاون معنا والعمل فى ديارنا. نحن الغربيين الذين خربنا ديارهم وأبدنا الكثير منهم. يصبح من حقهم علينا أن نستقبلهم بما يستحقون من الحفاوة وكرم الوفادة، لا الرفض والتهميش والتخوين والاشمئزاز من مخالطتهم.

ولكن دون أن يتحقق ذلك؛ فهناك طريق طويل من التربية التى يقترحها "أرماندو نيشى"، مؤلف هذا الكتاب، على بنى جلدته من الإيطاليين أولاً والغربيين بشكل عام؛ وأول خطوات هذه التربية تتمثل فيما يدعو المؤلف "الزهد"؛ الزهد فى ماذا؟ الزهد فى هيمنة السوق على وعى مواطنيه، والزهد فى التعلق بمفاهيم الاستعمار الغربى بإزاء غير الغربيين؛ لهذا فهو يدعو فى مؤلفاته. التى من أهمها هذا العمل الذى بين أيدينا. لما يدعو "أدب العوالم" نصياً منه للمركزية الغربية التى توحد بين أدبها والأدب العالمى.

وفى هذا التاريخ المختلف يقدم المؤلف نظريته الشعرية التى تدعو للندية الكاملة بين شعوب الأرض جمعاء، وبمبادرة منها لتصنع سويًا تاريخًا إنسانياً مختلفًا حقًا عن تاريخ الصراع والقهر الذى يسود عالمنا، وهنا يمكن للأدب أن يلعب دوره الأثيرى فى ابتداع آفاق هذه العالمية البديلة.

تاريخ مختلف للأدب العالمي

المشروع القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٨١

- تاريخ مختلف للأدب العالمي

- أرماندو نيشي

- حسين محمود

- مجدى يوسف

- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب

Una storia diversa

Armando Gnisci

Copyright @ 2001 Meltemi editore srl, Roma

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تاريخ مختلف للأدب العالمي

تأليف

أرماندو نيشى

ترجمة

حسين محمود

تقديم ومراجعة وشروح

مجدى يوسف



بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

نيشى ، أرماندو
تاريخ مختلف للأدب العالمى / تأليف : أرماندو نيشى ؛
ترجمة حسين محمود ؛ تقديم ومراجعة وشروح : مجدى يوسف -
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٢١٢ ص ؛ ٢٠ سم - (المشروع القومى للترجمة ؛ العدد ٨١ - ١٠٨١)
١ - الأدب - تاريخ ونقد
(أ) محمود ، حسين (مترجم)
(ب) يوسف ، مجدى (مقدم ، مراجع ، شارح)
(ج) العنوان
٨٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١١٣٥٠

الترقيم الدولى 4 - 346 - 437 - I.S.B.N. 977

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات
والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار
التي تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة
عن رأى المركز القومى للترجمة .

المحتويات

7 تقديم المراجع: تربية أرماندونيشى
45 تمهيد المؤلف
49 الفصل الأول: تاريخ مختلف
111 استراحة بين الفصلين
115 الفصل الثانى: أرخبيل/ خطوتان
159 أما زلت وحيداً؟
159 مشهد أول
165 مشهد ثان
173 سيائل/براغ، ليليبوت
181 تحليق الفراشة فى الوثب الثلاثى
193 التجاوز والتمازج
197 التمازجية

تقديم المراجع تربية أرماندو نيشى

«إن التخلص من النزعة الاستعمارية هو اتجاه أدبي وممارسة سياسية تجمع بين الغربيين والشرقيين والمستعمرين ومن كانوا مستعمرين سابقاً في العالم الشمالى والعالم الجنوبى، فى تجريب متبادل وتطوير مشترك لطرائق جديدة لتحرير الجنس البشرى كله. والتخلص من النزعة الاستعمارية هو الطريقة التى نتحرر بها من سيطرة الآخرين، وهى السبيل الذى يخلصنا من حب السيطرة، مسيرتان تسيران معاً لأول مرة، وطريقتان تعملان معاً بالتحاور».

(أرماندو نيشى)

(فى كتابه «تاريخ مختلف للأدب العالمى»)

فى الوقت الذى تنهال علينا فيه الإهانات لمقدساتنا بين الفينة والأخرى فى مختلف أرجاء العالم الغربى، ويترافق ذلك الموقف الاستبعادى للأحر وعقائده وشخصيته الحضارية، مع تضيق الخناق على هجرة أصحابه إلى الأقطار الغربية واضطهاد وتهميش أولئك المقيمين فيه منذ عشرات السنوات، وذلك على كافة المستويات الرسمية والإعلامية والشعبية،^(*) فى هذا الوقت

(*) يترافق ذلك مع فرض «حرية حركة السلع» على المستوى العالمى، ولكن مع تضيق هذه "الحرية" إلى أعلى درجة ممكنة بالنسبة لانتقال الأفراد المنتمين إلى مجتمعات الجنوب إلى بلاد الشمال، بينما لا يحدث العكس، فأولئك المنتمون إلى أقطار الشمال يمكن أن ينتقلوا كما يشاءون إلى أى من بلاد العالم.

نجد صوتًا يعلو في تلك البرية الغربية ليقول لها: لا. لقد حططنا الأفارقة، والآسيويين، والأمريكيين الأصليين عندما «زرناهم» في بلادهم كمحتلين ومغتصبين، واليوم عندما يزورونهم في بلادنا بكل ما يحملون من آمال كبيرة للقائنا والتعاون معنا والعمل في ديارنا - نحن الغربيين الذين خربنا ديارهم وأبدنا الكثير منهم - يصبح من حقهم علينا أن نستقبلهم بما يستحقونه من الحفاوة والتكريم، لا الرفض والتهميش والتخوين والاشمئزاز من مخالطتهم. ولكن دون أن يتحقق ذلك فهناك طريق طويل من التربية التي يقترحها «أرماندو نيشي»، مؤلف هذا الكتاب، على بنى جلدته من الإيطاليين أولاً، والغربيين بشكل عام. وأول خطوات هذه التربية تتمثل فيما يدعوه المؤلف «الزهد»: الزهد في ماذا؟ الزهد في هيمنة قيم السوق على وعى مواطنيه، والزهد في التعلق بمفاهيم الاستعمار الغربي بإزاء غير الغربيين.

ويقابل هذا الزهد عنده أو يكمله «تربية جديدة» من نوع آخر تمامًا، فهي تلح على طلب تحرير الذات الغربية من نزعتها الاستعمارية. هذا المفهوم التربوي الذي صكه المؤلف ليميز به مشروعه عن سائر المشاريع الأكاديمية، بما في ذلك ما صار يعرف منذ العقدين الأخيرين من القرن الماضي في الجامعات الأنجلوساكسونية في المقام الأول، والفرنكفونية بدرجة أقل، بخطاب ما بعد الاستعمار Post Colonial Discourse. فمفهوم التحرر من النزعة الاستعمارية عند المؤلف، والذي يدعوه بالإيطالية Decolonizzazione يختلف في مناهه عن خطاب ما بعد الاستعمار الذي صار أداة للبحث المحض الأكاديمي لظاهرة الاستعمار الغربي وردود أفعالها منذ بزوغ تلك الظاهرة. أما هو فلا يقتصر الأمر عنده على ذلك الرصد والتحليل ولو كان ناقدًا لأساطير الأيديولوجيات الاستعمارية (انظر على سبيل المثال كتاب: روبرت يانج، أحد ممثلي تيار «ما بعد الاستعمار» في

الجامعات البريطانية: «أساطير بيضاء»، الذي تُرجم إلى العربية ودعى صاحبه لمناقشته في المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة). إنما يذهب «نيشي» إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فهو يريد أن يغير ويزلزل النزعة الاستعمارية في الغرب، ويكشف آليات وحيل خداعها لنفسها وللآخرين في آن. وهو يلجأ من أجل ذلك إلى سلاح الذاكرة التاريخية وإلى الأدب في إبداع عالم جديد بديل يدعوهُ حُلماً «يوتوبياً» قابلاً للتحقيق. فكما هو الحال لدى الأفراد حين يكتبون ويستبعدون من وعيهم كل ما يحرسون على عدم مواجهته في حياتهم اليومية من أمور محرّجة لهم، فكذلك تفعل الشعوب، لاسيما إذا كانت غاصبة ومحتلة للآخر في عقر داره بكل ما تتعلل به من مبررات تذكرنا بمنطق الذئب الذي انقض على الطي ليغتريسه متعللاً بأن جدُّ ذلك الطي قد أخرج له لسانه وهو يعدو في يوم ما..

المؤلف هنا يلجأ للتاريخ إن لم يُذكر بني قومه بما لا يريدون أن يذكروه، تاريخ "زياراتهم" المهلكة لشعوب الجنوب في إفريقيا وآسيا، ولشعب أمريكا الأصلي في آن. كما يذكرهم بأن حاضريهم ليس ببعيد تماماً عن ماضيهم، فهم وإن كانوا قد اضطروا لترك مستعمراتهم، فإنهم لا يزالون يتدخلون في إدارتها بمختلف الطرائق عن بُعد بما يكفل لهم تحقيق الرفاهية النسبية التي يتمتعون بها على حساب شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية الذين يشكلون الغالبية العظمى من مجموع سكان العالم، بينما يتمتع بخيراتهم أقلية لا تبلغ أكثر من عُشر عدد هؤلاء إلا بقليل من «سادة» هذا العالم الذين تصادف أن ولدوا في أقطار غربية، تاركين لهذه الأغلبية المطلقة البؤس والفقر ومهانة العوز، بينما هم أصحاب كل تلك الثروات المنهوبة. ولعل خطاب «نيشي» هذا يذكرنا على نحو ما بخطاب «إيمانويل» في الاقتصاد السياسي، وهو الذي يدين العلاقات غير المتكافئة في ثمن إنتاج السلعة بين

الغرب المستعمر والشرق المستعمر، وما يترتب على ذلك من «نهب العالم الثالث» - عنوان أحد كتب "بيير جاليه"، أحد رموز ثورة الطلبة في فرنسا عام ١٩٦٨. وقد بنى سمير أمين نظريته في "التطور غير المتكافئ" على اختلافه مع "إيمانويل" في نظريته القائلة بالتبادل غير المتكافئ بين الغرب والشرق. وعلى الرغم من أن مؤلف هذا الكتاب - أرماندو نيشي - يشير في غير موضع من عمله الذي بين أيدينا إلى سمير أمين، فإن أساس المشكلة لا يكمن، في رأبي، في عدم تكافؤ متوسط الزمن الضروري^(١) اللازم لإنتاج سلعة من السلع في تبادلها بين الغرب المستعمر، والشرق المستعمر، وإنما في الطبيعة السلعية للإنتاج في حد ذاتها، وإخضاع ذلك الإنتاج لقانون القيمة الذي يهيمن على السوق الرأسمالية، ومن ثم التوجه المستمر لتدمير كل أشكال اقتصاد المعيشة في محاولة استقلاله عن تلك السوق. وقد لاحظنا ذلك في أزمة أنفلونزا الطيور التي اجتاحت مصر مؤخراً من بين دول عديدة في العالم، وكيف أنه في الوقت الذي كان فيه الغربيون يأكلون لحوم الطيور بعد طهيها جيداً، كانت الأوامر تصدر في مصر بإعدام الدواجن بدعوى خطرها على الصحة العامة، مما لم يهدد تلك الثروة الداجنة بالفناء وحسب، وإنما قام في الوقت نفسه بتوسيع هيمنة السوق وتعميقها على النشاط الاقتصادي للأسرة، لا سيما في الريف، ولدى الطبقات الشعبية. وما دامت السوق المحلية محكومة بقانون السوق العالمية التي تحكمها بدورها عملات الدول المهيمنة عليها، وفي مقدمتها الدولار الأمريكي، فبذلك يتحقق تبعية أبسط

(١) تعريف الزمن الضروري في الاقتصاد السياسي هو متوسط الزمن اللازم لإنتاج الاحتياجات الضرورية لإعادة إنتاج قوى الإنتاج البشرية، أو بالأحرى قوة العمل الإنساني من طعام وكساء... إلخ، حتى تتمكن من إنتاج السلعة نفسها.

منتج محلي لسيطرة السوق الرأسمالية العالمية التي لا تعرف سوى منطق واحد: من يملك قرشاً يساوي قرشاً. ومقياس قيمة القرش هو العملات الغربية المترتبة على قمة تلك السوق الدولية؛ أى أن من يملك سنتاً يساوي سنتاً. هنا يكمن عصب المشكلة، وليس مجرد عدم العدالة في توزيع الثروة بين الشمال والجنوب وإن كان ممارساً بالفعل. وهنا يكمن شكل الاستعمار الجديد لإنسانية الإنسان التي يحاول مفكر كـ "هابرماس" أن ينظر إليها من خلال ما يدعوه "عالم الحياة" (Lebenswelt)^(٢) الذى لا تكف قيم السوق الرأسمالية عن الإغارة عليه، الأمر الذى لا ينجو منه أحد سواء كان فى الغرب أو فى الشرق.

يحمل مؤلف هذا الكتاب إذن على صور الوعي الاستعماري التي ما زالت كامنة فى اللاشعور الأوروبى، بعد أن اضطرت معظم الدول الاستعمارية الأوروبية للتخلي عن مستعمراتها خاصة عبر البحار. وهو بحاجة لتذكرة الغربيين بها، خاصة بعد أن صار استعمارهم المباشر لعوالم هذا العالم الواقعة فى القارات الثلاث، إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، تاريخاً مضى وولى. وهو ليس بحاجة إلى أن يلجأ إلى أقرب الأحداث الحاضرة، والتي لا حاجة إلى التذكرة بها إذ نراها كل يوم على شاشات التلفزة واضحة كالنهار فى شكل احتلال العراق والعدوان الغاشم على فلسطين ولبنان وغيرها من بقاع آسيا وإفريقيا، والتي ليست مشكلة التدخل الأمريكى فى دارفور إلا واحدة منها. إنما يذهب ليكشف عن الذاكرة المفقودة لدى أغلب

(٢) يرجع هذا المفهوم فى الأصل إلى ظاهرة "إيموند هوسرل". وقد استعاره "هابرماس" ليوظفه على نحو مختلف فى نظريته عن الفعل التواصلى، وأقوم هنا باستعارته بدورى على نحو مختلف عن الاثنين لتوصيف ظاهرة علاقة التوتر والصراع بين محاولة هيمنة آليات السوق السلعية ومقاومة أصحاب اقتصاد المعيشة لها.

الغربيين، والتي لا يريدون أن يواجهوها باعتبارها في نظرهم "ماضيًا بعيدًا". ذلكم هو الاستعمار البرتغالي، ونظيره الإسباني اللذان بدأ باكتشافاتهما البحرية لشعوب وقارات الجنوب التي صارت تُدعى اليوم في الغرب مجازًا بالعالم الثالث على سبيل التحقير، وذلك بعد أن اعتدى على بلاد ذلك العالم ونهبت ثرواته وأبيدت الآلاف المؤلفة من شعوبه، واستبدلت خصوصياته الثقافية بما فرضه عليهم المستعمرون من معايير "حضارتهم الأوروبية". وفي هذا الصدد أذكر مزحة تقطر سخرية للمهاتما غاندي عندما سأله صحفي أوروبي عن رأيه في الحضارة الغربية،⁽³⁾ عندئذ أجابه المهاتما قائلاً: لعلها تكون فكرة طيبة!!

يعود بنا المؤلف إذن إلى أوائل تاريخ الاستعمار الغربي للعالم - كما أثر أن يدعوها - عوالم شعوب إفريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية. والتي كان الاستعمار البرتغالي "رائدًا" فيها، وإن أدت هزيمة طموحاته الإمبراطورية في شمالي إفريقيا (أمام الموريسكيين في موقعة القصر الكبير بالمغرب الأقصى) إلى أن ورثه الاستعمار الإسباني، ومن بعده الإنجليزي - الفرنسي،

⁽³⁾ التي عاثت في الكون إبادة لثقافات الشعوب التي احتلتها، وسعت لإحلال خصوصياتها الثقافية بالمعايير ورؤى العالم الغربية، وهو ما ولد في البلاد المستعمرة رد فعل عكسيًا مناهضًا للثقافات الغربية، بالجمع وليس بالمفرد، وذلك بشكل مطلق. وهو ما لا تشاركهم الرأي فيه، وإن كنا نرى أن أسباب هذا الرفض تكمن في القهر الاستعماري الذي أصبحت له آليات السوق العالمية التي يهيمن عليها الغرب بمصالحه و"كيلاً" للمستعمر السابق واللاحق. فنحن نرى أن الشرط الرئيسي للتفاعل الثقافي الصحي بين الشعوب في الغرب والشرق على السواء هو عدم هيمنة أي منها على الآخر، وهو الحلم الذي دون تحقيقه لا تزال هنالك محاولات ونضالات ثقافية كثيرة من بينها مؤلفات "آرماندو نيشي" صاحب هذا الكتاب الجميل.

ثم التدخل الإمبريالي الأمريكي منذ الحرب العالمية الثانية وصولاً إلى حربه العالمية الثالثة التي يدعوها "الحرب على الإرهاب" .. ويحدثنا المؤلف عن مصدره الذي استعار منه مفهومه الذي صكه في هذا الكتاب: «عالم العوالم» LETTERATURE DEI MONDI؛ إذ أخذَه عن قصيدة صاغها شاعر البرتغال القومى "كاموويش" CAMOES فى القرن السادس عشر، وذلك فى أثناء إبحاره إلى الهند والصين وأفريقيا، وحديثه عن المغامرات البحرية لمواطنه "فاسكو دى جاما". وعنوان هذه القصيدة التى صارت بمثابة الأيقونة القومية للشعب البرتغالى: أيها البرتغاليون (بالبرتغالية: OS LUSIADOS). وقد قدر لها أن تنقذ من الضياع فى أثناء غرق سفينة كان يستقلها "كاموويش"، بينما كان يقف على ظهرها وهى مشرفة على الغرق فى اليم المحيط حاملاً قصيدته بأعلى يديه إلى أن قدر له أن يُنقذ معها.

وهنا لى تساؤل يوحى به هذا الكتاب، وإن كنت قد لاحظته قبل ذلك بأعوام، وهو أن جامعاتنا المصرية لا يوجد بها قسم واحد للغة البرتغالية، مع أهمية هذه اللغة بالنسبة لعلاقتنا الثقافية ليس فقط مع البرتغال، وإنما بالمثل، وهو الأخطر والأهم مع الأقطار الناطقة بالبرتغالية فى إفريقيا (أنجولا وموزمبيق)، والبرازيل التى يبلغ حجمها حجم الولايات المتحدة الأمريكية، فهى شبه قارة، بل هى أكبر أقطار أمريكا اللاتينية من حيث المساحة، ويزيد على ذلك أن أكثر من عشرة ملايين نسمة من مجموع سكان البرازيل البالغ عددهم نيفاً ومائة وخمسين مليوناً، من أصول عربية نتجت من الهجرات إلى هناك، خاصة من الهلال الخصيب، منذ نهايات القرن التاسع عشر⁽⁴⁾. وإذا كانت

(4) رصد كتاب لمهاجر عربى من فلسطين زرته عام ١٩٩٣ فى مدينة ساوباولو، يدعى جورج صفدى وكان فى الثمانينيات من عمره آنذاك، هذه الهجرة العربية إلى البرازيل منذ نهايات القرن التاسع عشر فى رسالته التى حاز بها على الدكتوراه من جامعة=

الأجيال الحديثة هناك لا تعرف العربية ولا تتحدثها، فإنها لا تزال تتعلق بالعبادات والتقاليد العربية خاصة في تجمعاتها في مدينة "ساوبولو" التي زرتها عام ١٩٩٣ والتقيت فيها بصاحب محطة بث تلفزيوني من أصول عربية لبنانية يدعى "سعد".

لست أريد هنا الخوض في موضوع يبدو فرعياً بالنسبة لهذا الكتاب^(٥)

ساوبولو عام ١٩٧٢م، وطبعها بالبرتغالية بعد ذلك بقرابة ربع قرن في كتاب تحت عنوان: الهجرات العربية إلى البرازيل. ويعد هذا الكتاب مرجعاً مهماً في هذا المجال لئنه يترجم إلى العربية. ويخلص المؤلف فيه إلى أنه وإن كانت اللغة للعربية قد انحسرت في العقود الأخيرة من تاريخ البرازيل بسبب وفاة حامليها من المهاجرين الأصليين الذين كانت لهم إصداراتهم العربية (من أهمها "العصبة الأندلسية" على مدى ثلاثينيات القرن الماضي وحتى الستينيات حين توقفت عن الصدور بعد أن تحولت من العربية الخالصة إلى العربية والبرتغالية معاً، ثم البرتغالية وحدها)، وعلى الرغم من تجمعات أبناء أولئك المهاجرين وأحفادهم في مدينة ساوبولو، أكثر مدن البرازيل إنتاجاً صناعياً، حتى أن عمدها كان يدعى "باولو معروف"، وبها "نادى حمص" للجالية العربية الذي يضم أكثر من ألفي عضو، ويقع في شارع رئيسي بالمدينة يدعى "أفينيدو باوليستا"، فإن ما تبقى لدى تلك الجالية هناك من ثقافتها العربية الأصلية هو - كما ذكرت في المتن - العادات والتقاليد العربية التي تمازجت وتفاعلت في تناغم مع سائر التقاليد الأمريكية الأصلية وتلك القادمة من ثقافات المهاجرين من بلاد أخرى كاليابان، أو المهاجرين من المستعمرات البرتغالية في أواسط أفريقيا، ناهيك عن ثقافات شبه الجزيرة الإيبيرية. وتعدّ رقصة السامبا الشعبية هناك نموذجاً لهذا التمازج خاصة بين أداء وإيقاعات الثقافتين الأفريقية والإيبيرية.

^(٥) وهو يبدو فرعياً للوهلة الأولى فقط، إلا أن قراءة هذا الكتاب سوف تبين لنا أن مؤلفه الإيطالي قد أفاد الكثير من نماذج التفاعل الثقافي المتناغم في أمريكا اللاتينية، ونهل واستوحى أعمال كبار مثقفيها وناقديها، من أمثال المرعي الثوري البرازيلي الكبير -

المهم، وإنما أود أن أنوه بضرورة أن ننتبه إلى أن فى التجاهل الثقافى لبلد كالبرازيل له ثقله المهم فى أمريكا الجنوبية تجاهلاً لمصالح شعوبنا الحيوية. ويكفى أن نعلم أن ذلك التجاهل يكاد أن يكون "متبادلاً". فلا يوجد فى كافة الجامعات البرازيلية سوى قسم يتيم واحد لتعليم اللغة العربية وآدابها، وهو فى جامعة "ساوباولو" حيث يُدرس فيه محاضران فى اللغة والأدب العربيين هما صفا أبو شهلة جبران، وزميلها محمد جاروش، وكلاهما لبنانى الأصل. وكانت الحكومة المصرية قد استجابت إلى طلب من الحكومة البرازيلية فى الستينيات وبعثت إليها مدرساَ للغة العربية من كلية الألسن، لكنه ما لبث أن لبد فى جامعة ساوباولو، ولم يعد بعد أن انتهت بعثته هناك. حيث كان من سوء حظى أن أتحدث إليه على التليفون عندما زرت "ساوباولو" فى ١٩٩٣ لأجد منه غاية العسف فى التعامل مع مواطنيه الأصليين من مصر. وكنت أستفسر منه عن مجرد إمكانية الاطلاع على أعداد مجلة "العصبة الأندلسية" التى كانت تصدر فى الثلاثينيات والأربعينيات باللغة العربية هناك، ثم بعد ذلك باللغتين العربية والبرتغالية، ثم أخيراً بالبرتغالية فقط قبل أن تحتجب. وهذان هما الشابان اللذان ذكرتهما قد خلفاه لحسن الحظ فى قسم اللغة العربية بتلك الجامعة، وهما على العكس منه فى الاحتفاء بكل عربى هناك. أذكر ذلك لأنه من المشين حقا أن ندير ظهورنا لشعب مثل الشعب البرازيلى يشاركنا الكثير من المصالح الحيوية ناهيك عن التراث الثقافى المشترك، عبر شبه الجزيرة الإيبيرية من ناحية التاريخ الأبعد نسبياً، وعبر الهجرات العربية إلى هناك فى التاريخ الحديث والقريب. ولن يتحقق ما ينفى هذا التجاهل لا سيما من ناحيتنا إلا بالتعرف على

"بارلو فريره" (توفى عام ١٩٩٧)، ومواطنه عالم الأثروبولوجيا الشهير "جيلبرتو فريره"، الذى رحل قبله بعشر سنوات (عام ١٩٨٧)، فضلاً عن الشاعر والناقد والمنظر الأمريكى اللاتينى المعروف روبرتو فرنانديس ريتامار... إلخ.

لغة وتاريخ وثقافة مثل هذا الشعب، ناهيك عن ثقافات الشعوب الأخرى الناطقة بالبرتغالية في إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية. وهل يمكن لذلك الهدف أن يتحقق دون أن تنهض جامعاتنا القومية بهذه الفريضة التي لا تزال للأسف غائبة؟! إنها دعوة صريحة أوجهها عبر هذه المقدمة إلى جامعاتنا المصرية، ومن ثم إلى المجلس الأعلى للجامعات ووزارة التعليم العالي في جمهورية مصر العربية لتتلافى هذا النقص المشين.

نعود إذن إلى موضوعنا الرئيسي، وهو كتاب هذا المجدد والمنبه الخطير الذي نحن بصدهه الآن، والذي دعاه عن حق: تاريخ مختلف للأدب العالمي. وهو يعنى به على وجه التحقيق تاريخ مختلف للأدب. فلماذا دعاه كذلك؟ وما العلاقة بين التاريخ للأدب والتاريخ العام للعلاقات بين الشعوب الاستعمارية والمستعمرة؟ يذكرنى ذلك بكتاب "سندباد مصرى"، وكنت فى أثناء عملى أستاذًا بالجامعات الألمانية فى مطلع السبعينيات قد حدثت زميلًا لى فى جامعة هايدلبرج بألمانيا، هو الأستاذ أنطون شال، وكان عميدًا لكلية اللغات الشرقية، ورئيسًا لقسم الدراسات العربية فى تلك الجامعة فى آن، كى يدعو الراحل حسين فوزى مؤلف هذا السفر القيم ليتحدث إلى طلبة العربية فى تلك الجامعة عن كتابه، فطلب منى الأستاذ شال أن يطلع على سيرة صاحب الكتاب، وحين تبين له منها أنه اتجه إلى دراسة علوم البحار فى باريس بعد أن كان طبيبًا للعيون لمعت عينا زميلى "شال" وقال لى: ها هو قد درس علوم البحار ليجر فى التاريخ الأدبى كما فعل السندباد بالجغرافيا البحرية، وصار لا يقل عنى حماسًا لدعوة الراحل حسين فوزى الذى حضر بالفعل إلى هناك فى عام ١٩٧٣ وظل شهرًا بأكمله يحاضر فى تلك الجامعة عن كتابه. أذكر هذه الواقعة لأن التاريخ العام، وتاريخ علاقات الشعوب بعضها ببعض الأخر، والتشديد هنا على هذا "الأخر" ليس لاعتبارات محض لغوية، وإنما اجتماعية وإنسانية فى المقام الأول، لأن الاهتمام بهذا التاريخ لا يكون على حساب الأدب كظاهرة لغوية

جمالية، وإنما تعميقاً لفهمنا له واستيعاب لوظيفته الحقيقية. فالأدب الذى ينحو إلى الجمال وحده بعيداً عن حياة الناس، أو بالأحرى مجملاً إياها بحليات مفتعلة تساعد على كبت وتجاهل واقع علاقاتهم الصراعية المتهرئة هو أدب مآله مكنسة التاريخ. أما الأدب الحقيقى فهو الذى يتخذ من هموم الناس مجاله الرئيسى ومن تنويرهم وقيادتهم إلى مستقبل أفضل هدفه الأقصى موظفاً فى ذلك أدواته الفنية النافية لنفى الحقيقة التى لا يريد أن يراها أحد، ورافعاً إياها من تحت أنقاض التجاهل والكبت والاستبعاد والتهميش. وأما التاريخ الحق للأدب، فهو الذى يعنى بتحقيق هذا الهدف الأسمى من جانب الأدب أو الآداب التى يؤرخ لها.

لماذا سمي "أرماندو نيشى" إذن كتابه هذا «تاريخ مختلف للأدب العالمى؟» يجب عن ذلك فى هذا الكتاب قائلاً: لأن التاريخ الرسمى للأدب العالمى تاريخ مزيف بحاجة لمراجعة شاملة. فهو يعمم المعايير الغربية للأدب على سائر العوالم الثقافية والأدبية غير الغربية، ماضياً فى ذلك على نحو أحادى التوجه، من العواصم والحواضر الغربية إلى "بقية" آداب وثقافات العالم "الأخر" غير الغربى. ويتعين إذن على هذه الآداب أن تأخذ أولاً بمعايير الآداب الغربية حتى تحظى بالاعتراف "العالمى" الذى اختطفه الغرب بعيداً عن القيم الفكرية والثقافية لـ "بقية" هذا العالم. ويشير المؤلف إلى أن هذه "البقية" ليست إلا ٨٨ فى المائة من مجموع البشرية، بينما يعيش الاثنا عشر فى المائة الباقون من شعوب الشمال الغربى فى رغد نسبى من العيش على حساب هذه "البقية"، ومن غير المعقول أن تفرض هذه النسبة الضئيلة على تلك الأغلبية المطلقة معاييرها وقيمتها وأحكامها الجمالية والأدبية. ومن الطبيعى أن يتمرد على هذه العلاقة المختلة متقفو البلاد المغبونة والمهمشة فى هذا العالم، التى لا يعد عالماً العربى سوى جزء لا يتجزأ منها، ولعل تحول اهتمام كاتب هذه السطور من استكمال أبحاث رسالته للدكتوراه فى علم النفس بجامعة كولونيا فى أوائل

الستينيات من القرن الماضي إلى الإصرار على تقديم الأدب العربي الحديث للألمان، حيث لم يكن معترفًا به في رحاب الجامعات الألمانية باعتباره من وجهة نظرهم "لا يستحق أن يقدم على مستوى أكاديمي" يعد أحد الأمثلة على هذه المقاومة، وهي التي أسفرت في الحالة المذكورة، بعد جهد جهيد عن تحقيق الهدف المنشود واقتناع الجامعة بما طالبت به، ومن ثم تكليفى بتأسيس دراسات الأدب العربي الحديث والمعاصر في تلك الجامعة عام ١٩٦٥، وذلك للمرة الأولى في تاريخ الجامعات الألمانية. أما أن يتحمس واحد من الأوروبيين أنفسهم لما كان تحمسنا له أمرًا طبيعيًا بحكم المنشأ والانتماء الثقافي، فهو الشيء الذي يستحق منا كل الاهتمام والتقدير، بل والإعجاب، خاصة وأن صاحبه يخرج بذلك عن المؤلف في بلده ليطالب بتغيير النظرة الأحادية الجانب إلى الأدب الغربي كظاهرة عالمية.

ومؤلف هذا الكتاب، الأستاذ الدكتور "أرماندو نيشى"، هو أستاذ كرسى الأدب المقارن بجامعة لاسابيينزا (الحكمة) في روما. وهو معروف بمعاركه الفكرية القائمة على نظريته الشعرية التي يسعى بها إلى إحداث انقلاب معرفى في مجال تخصصه، وهو الأدب المقارن والعام، أى الأدب الإنسانى بوجه عام. وهو فى ذلك يقف ناقدًا ومناهضًا لمفهوم الأدب العالمى عند الرومانسيين الغربيين، مشيرًا بذلك إلى جوته^(١) الذى صك هذا المفهوم فى الغرب فى عام

(١) كان جوته يرى من منظوره هو الذى يراه مؤرخو الأدب من الفرنسيين، وإخوانهم الإيطاليين، كما نرى فى حالة "نيشى" على سبيل المثال، رومانسيًا، بينما يصنفه الألمان على أنه كلاسيكى، مما أدى إلى خلاقات سعت لحلها الجمعية الدولية للأدب المقارن، خاصة وأنه - أى جوته - كان لا يعترف بالأحان بيتهوفن لأنه كان يراها "رومانسية"، فقد كان يقول بوجود آداب قومية مستقلة عن بعضها البعض ومتساوية القيمة فى الشرق والغرب على حد سواء، وأن ثمة «أدبًا عالميًا» يجمع بينها جميعًا.

١٨٢٧، وإن كان "تيشى" لا يذكر أن هذا المفهوم قد سبق وضعه فى المكسيك قبل ذلك بعام فى ١٨٢٦.^(٧) وهو ما لا يقلل على أية حال من شأن الحجة الأساسية التى يسوقها "تيشى"، وهى أن معايير الأدب العالمى إنما هى معايير غربية تفرض على أى من الآداب غير الغربية حتى يتم الاعتراف بها فى دائرة ما يدعى "الأدب العالمى".^(٨) وهى علاقة أحادية التوجه من الغرب تجاه الآخر

حولم يكن جوته بالتالى من أنصار ما صار يدعى "الأدب الأوروبى" المفرد؛ الأمر الذى جعل أحد "أحفاده" العلميين فى الجامعات الألمانية، وهو الراحل "هورست روديجر" أستاذ الأدب المقارن فى جامعة بون خلال الستينيات والسبعينيات، يتمرد على رؤية جوته هذه للأدب العالمى، لأنها تنظر إلى الآداب الأوروبية بمعيار الآداب غير الأوروبية نفسه، بينما يرى "روديجر" أن الأدب العالمى ليس بجمعية عامة للأمم المتحدة، إذ إن الأمر لا يلبث أن يفضى إلى العبث فى هذه المنظمة حينما يستوى صوت مستعمرة سابقة، منحت استقلالها حديثاً (...). بصوت قوة كبرى أو شعب يتربع على ثقافة تبلغ من العمر آلاف الأعوام." (وضع ما شئت من علامات التعجب وراء هذا الكلام العنصرى الصريح الوارد فى دراسة منشورة باسم مؤلفها عام ١٩٨١. وللقارئ أن يرجع إلى تفصيل ذلك وردى عليه فى دراستنا "خرافة الأدب الأوروبى" المنشورة فى كتاب: الأدب الأوروبى من منظور الآخر، تحرير فرائكا سينيولى، روما، ٢٠٠٣، والذي تم نشر ترجمته العربية هذا العام ٢٠٠٧ عن المشروع القومى للترجمة بوزارة الثقافة المصرية).

(٧) انظر دراسة "هانس - جيورجه روبرخت: الأدب العالمى من منظور مكسيكى فى عام ١٨٢٦ (بالفرنسية)، فى: دورية دراسات اللغات والآداب الناطقة بالإسبانية، عدد يوليو - ديسمبر ١٩٧١. Ruprecht, Hans George: Weltliteratur vue du Mexique en

1926, in: Bulletin hispanique, Juillet-December, 1971.

(٨) وهو ما لم يحدث بهذه المناسبة فى حالة جوته على وجه التحديد. وليس هذا دفاعاً عنه فى مقابل نقد "تيشى" له، وإنما إقرار لحقيقة تاريخية. ولعل ولع جوته بالإسلام وبالأدب والشعر الفارسى، وفى مقدمة هؤلاء حافظ الشيرازى، مثال واضح على-

الحضارى دون الاعتراف بأية قيمة له موازية ومساوية لقيمة الثقافات الغربية، بل هو السعى للتفاعل معها على هذا الأساس. الأمر الذى يذكرنى بمائدة مستديرة أقيمت فى المؤتمر الخامس للجمعية الدولية للأدب المقارن عام ١٩٧٣، وذلك فى جامعة كارلتون بأوتوا (كندا) تحت عنوان: الأدب الناشئة EMERGING LITERATURES، وكانت رئيسة الجلسة باحثة أمريكية الجنسية، وعندما قلت لها إنى لا أفهم المقصود بـ "الأدب الناشئة"، التى يعنى بها الأدب غير الأوروبية، والأدب العربى من بينها، أجابتى بلهجة متصرفة: "لأنها نشأت الآن لتوها فى وعينا نحن الغربيين!!" وهو ما يعنى أن المرجعية الوحيدة للاعتراف بأى "أدب" أو ثقافة لنا لا بد وأن تمر أولاً من خلال "مصفاة" نظمهم القيمية ونظرتهم إلى العالم حتى تلقى "الاعتراف" أو لا تلقى.. وكل هذا - كما يؤكد "تيشى" فى هذا الكتاب - إنما هو نتيجة لاستمرار الأيديولوجية الاستعمارية من جانب الغرب بإزاء مستعمراته السابقة التى صار يتحكم فيها بوسائل مباشرة وغير مباشرة عن بُعد. أما هذه الأيديولوجية الاستعمارية التى تنظر إلى التقدم والتخلف بمنظور غربى فهى للأسف ليست من نصيب الغربيين التقليديين وحدهم، وإنما تجدها لدى نفر لا يستهان بهم من مثقفي إفريقيا وآسيا - وأسئلتى هنا مؤقتاً أمريكا اللاتينية - من الذين يدعون للاستتارة والحدائثة!! ففارق كبير بين التفاعل مع معطيات حضارات الشعوب الأخرى، ومن بينها شعوب الشمال الغربى على أساس من الندية، والنظرة

ذلك، وهو ما عبر عنه خير تعبير فى الديوان الشرقى للمؤلف الغربى، بل إن "كاتارينا مومزن"، الأستاذة السابقة فى جامعة "ستاتفورد" الأمريكية والمتخصصة العالمية فى أدب جوته تذهب إلى أبعد من ذلك، فهى ترى أن المكون الشرقى فى أدب جوته يكاد أن يُشكل المعلم الرئيسى فى أعماله الأدبية التى خلفها، حيث يكاد أن يتوحد فيها بعالم الشرق وبقيمه الجمالية والأخلاقية.

الدونية إلى الذات ومحاولة إضفاء هالة أسطورية على "منجزات" ذلك الآخر الغربي، التي كثيراً ما تبين التجربة، ناهيك عن البحث العلمي الدقيق، أنها أبعد ما تكون عما تبدو عليه للوهلة الأولى.

أما النموذج البديل لهذا التوجه الاستعماري اللاعقلاني فهو ما يدعو "تيشى" إليه من خلال نظريته الشعرية التي يدعوها «التحرر من النزعة الاستعمارية في الأدب» DECOLONIZZAZIONE. وهي دعوة يوجهها، كما أسلفت، إلى بنى جلدته من الإيطاليين والغربيين بعامة كي "يزهدوا" في الانجراف السهل وراء سوق العولمة، بكل ما يحمله ذلك من تجاهل لما يحدثه واقعهم المهيمن من تهميش وإبعاد للواقع عن أبصارهم ووعيهم، ومن ثم يفضى إلى إفقارهم فكرياً وثقافياً وإنسانياً. أما عن الفارق الذي أشرنا إليه منذ قليل بين دعوة "نيشى" وخطاب ما بعد الاستعمار فأترك المؤلف ليوصفه بكلماته:

"إن نظرية «ما بعد الاستعمار»، والتي نتجت في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبصفة خاصة في الجامعات الناطقة بالإنجليزية والفرنسية، هي ظاهرة مختلفة [عن دعوته للتحرر من الاستعمار - م. ي.]. فهي أحياناً ما تكون نقدية وتحررية، وغالباً ما تتداخل وتختلط مع كلام ما بعد الحداثة الفارغ، كما أنها لا تزال محاطة في البستان الأكاديمي من جانب الآداب ما بعد الاستعمارية التي صنعت تاريخ العوالم منذ القرن السادس عشر".

وأما بالنسبة للأدب البديل عند "تيشى" لما يدعى "الأدب العالمي" غربى المعايير هو ما يدعو "أدب العوالم" LETTERATURE DEI MONDI، وهو التعبير الذي استعاره - كما أسلفنا - من قصيدة "كاموويش" عن "عالم العوالم" التي تعرف عليها عن طريق أسفاره البحرية في القرن السادس عشر الميلادي. فالمطلب الرئيسي الذي ينادى به "تيشى" في نظريته الشعرية هو أن تتحول هذه العلاقة أحادية الجانب إلى علاقات متبادلة وتفاعل ندى بين جميع أطراف

الإبداع الثقافي على مستوى العالم، أو كما يدعوها هو "فى شتى العوالم". فهذا الباحث لا يسلك السبيل الأسهل الذى يسلكه زملاؤه من النقاد الغربيين، وهو المضى فى المسار التجاهلى نفسه بإزاء آداب ما يدعى "العالم الثالث" ازدرأء منهم، وإنما يقوم بنفض الغبار، بل الغطاء الكثيف من التهميش وعدم الاعتراف الذى تحظى به آداب غير الغربيين وإيداعاتهم، إلا إذا أخذت بمعايير الآداب والثقافات الغربية. وفى هذه الحالة، إن هى اجتازت هذا الشرط الرئيس، يمكن أن "تعمم" عالميا من خلال منحها جائزة دولية غربية كجائزة "نوبل" فى الأدب مثلا.^(٩) أما ما لا يتخذ من القيم الثقافية السائدة فى الغرب الاستعماري نموذجا

(٩) فى دراسة ناقدة لى عن روايتى "آل بونديروك" لتوماس مان، وثلاثية الراحل الكبير نجيب محفوظ، نشرت ترجمة عربية لها فى العدد الأخير من دورية "فصول" القاهرية (أكتوبر ٢٠٠٦) أشرت إلى آلية نقل رؤى العالم من ثقافة لأخرى من خلال استيحاء آليات صنع الرواية، وأن التأسيس للفلسفة لرؤية العالم هذه فى حالة رواية توماس مان قد ترتب عليه موقف اجتماعى انتقل من خلال استيحاء محفوظ لآليات رواية الأجيال عند المؤلف الألمانى إلى القارئ العربى. وكانت هذه الدراسة قد صدرت فى الأصل بالإنجليزية فى أعمال المؤتمر العاشر للجمعية الدولية للأدب المقارن بجامعة نيويورك (١٩٨٥). وقد تصادف أن نشر بعد ذلك (عام ١٩٩١) كتاب تحت عنوان: «معايير اختيار جائزة نوبل فى الأدب»، وهو لمؤلف سويدي وعضو فى لجنة الجائزة يدعى "إسبمارك شيل" حيث تبين من هذا الكتاب أن المعيار الرئيسى الذى تضعه اللجنة لـ "فرز" الأعمال الأدبية التى يمكن أن تحظى بها الجائزة ينطبق على ما كنت ناقدا له فى دراستى المذكورة المنشورة عام ١٩٨٥، وذلك بإزاء بنية العالم المتخيلة ورؤيته فى "آل بونديروك" وثلاثية نجيب محفوظ التى استوحى فيها كاتبنا العربى الكبير بنية رواية الأجيال عند توماس مان، كما كان قد كتب إلى بهذا الشأن رسالة فى عام ١٩٧٥. والحق أنه لم يكن فى ذهنى حين نقدت رؤية العالم فى الروايتين وذلك من خلال نقدي لأصولهما المحافظة فى الفلسفة الألمانية - تلك الأصول التى لم ينتبه-

يحتذى به، فمآله معروف في الغرب... هذا الوضع اللاإنساني واللامعقول هو الذي جعل "تيشى" يثور عليه بأعلى صوته قائلاً: "إن حضارتنا [يقصد الغربية.م.ى.] قد زعمت لنفسها أنها عالمية، ولكن القليلين هم الذين يدركون أنها كلمة ذات معنى يرتد إلى عكسه؛ فمعناها يمضى في اتجاه واحد هو الاتجاه الذي أراد الغرب أن يعطيه للعالم، أنها حضارة أوروبية. وهذا هو السبب في أنني أكدت من قبل أننا الأكثر تخلفاً والأكثر بطناً، وأنا لا نعرف شيئاً عما عساها تعنى التربية تفاعلية الثقافة، وكيف يمكن تحقيقها، وأنا لانزال نمارس قراءة متسلطة وغير تربوية لتواريخ العوالم ولماضينا نحن أنفسنا". فما تلك "الهوية المشتركة" التي تجمع الغربيين؟ يجيب "تيشى" بقوله: إنه ذلك "الشيء الأحادي المشترك" الذي يجمعنا نحن الأوروبيين، وهو غزو جميع "عوالم العوالم" (ص ٦٨ من الأصل الإيطالي لهذا الكتاب). وهنا لي

=إليها أدينا الكبير حين استوحى "طريقة صنع رواية الأجيال" عند توماس مان، على الرغم من أن محفوظ قد درس الفلسفة في جامعة القاهرة (!) — أن توماس مان قد أعطى جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٧ على تلك الرواية التي تعرضت لها بالنقد (أل بونديروك). وأرجو ألا يفهم من كلامي أنني أرفض الاستيحاء من ثقافات مغايرة، ولكني أدعو إلى عدم الفصل بين الآليات الإبداعية لتلك الأعمال باعتبارها مواقف اجتماعية في صيغ فنية، والأسس الفكرية الفلسفية التي تقوم عليها، وإن كانت لا تختزل إليها. لذلك فإنني أطالب الأديب المبدع، سواء كان روائياً أو مسرحياً أو شاعراً أن يكون باحثاً عن المصادر الفكرية لمن يتفاعل معهم من المبدعين المنتمين لثقافات أخرى، حتى يمكن لهذا التفاعل أن يوتى أكله في دعم وتعميق إبداعاتنا على أرضيتنا المختلفة موضوعياً عن سواها من الأرضيات الثقافية الاجتماعية، وحتى يؤدي هذا الاختلاف الواعي بنسبته الثقافية الاجتماعية إلى مزيد من التفاعل الخلاق بين الأنا والآخر، وإلى الإضافة الخلاقة المتجاوزة إلى تراثنا وتراث الآخرين الإبداعي في أن.

تعليق بسيط على هذا الإقرار الواقعي: ترى إذا ما أحلنا كلمة "إسرائيلي" مكان عبارة "غربي" أو "أوروبي"، أفلا نكون بذلك قد وصفنا لاعتقالية الأيديولوجية التي تقف وراء آلية قمع الشعوب العربية، واتصال ذلك القمع من خلال "تضامن" عنصرية التوجه الاستعماري السائد في الغرب معه بإزاء حقوق الإنسان العربي؟! من هنا فدعوة "تيشي" لا تعنينا هنا في رأيي من الناحية النظرية وحدها، باعتبارها دعوة إلى إعادة النظر في التوجه المعرفي لنظرية الأدب والثقافة في الغرب، والمطالبة من ثم بتغيير ذلك التوجه الأحادي الجانب والنمطي، بل اللاعقلاني واللاعلمي في آن، بتوجه بديل يحث على الاحترام المتبادل للتعددية الثقافية بكل ما يترتب على ذلك من تبادل وتفاعل فكري وثقافي قائم على ندبة حقيقية، وعلى تمازج متناغم بين مختلف الثقافات ورؤى العالم في هذا العالم.

لا عجب إذن أن تقابل هذه الدعوة الرائدة من النقاد الغربيين، أمثال "يكو" وسواه من الذين سردهم المؤلف، بما ليس أقل مما لاقتته من قبل سليفتها التي سبق أن أطلقها "رينيه إتيامبل"، أستاذ الأدب المقارن الراحل في السوربون، من رفض وتجاهل واستخفاف، وإن لم يقدم "إتيامبل"، على شدة نقده للمركزية الأوروبية (انظر على سبيل المثال دراسته: المركزية الأوروبية الراحلة: فلتذهب المركزية الأوروبية إلى الجحيم، باريس ١٩٧٩) بديلاً نظرياً منهجياً للهيمنة الغربية في مجال الأدب والثقافة، كذلك الذي يقدمه "تيشي" في نظريته الشعرية التي يعرضها في هذا الكتاب وفي كتب أخرى له من بينها، على سبيل المثال: «شاعريات العوالم» POETICHE DEI MONDI الذي أصدره في روما عام ١٩٩٩.

والواقع أن "تيشي" يتخذ من نموذج التفاعل الثقافي في أمريكا اللاتينية نبراساً للتفاعل الثقافي التبادلي الذي ينادى به في نظريته الشعرية، وذلك في

مقابل التشظى والصراع القائم في "بوتقة الانصهار" الأمريكية الشمالية. وهو في ذلك يستلهم تجربة المربي البرازيلي الكبير "بولو فريره" (١٩٢١ - ١٩٩٧) مع المهمشين في بلده، وتظير زميله الأنثروبولوجي البرازيلي "جلبرتو فريره" GYLBERTO FREIRE (١٩٠٠ - ١٩٨٧)، وذلك فيما يتعلق بتمازج الثقافات البرتغالية، والإفريقية، والأمريكية الأصلية التي تدعى "الهندية" في خلق الهوية البرازيلية الحديثة. فآلية التفاعل الندي هنا بين مختلف هذه الثقافات هي النموذج الذي يرى "تيشى" أنه جدير بأن يرث النموذج الاستعماري الاستعماري الغربي أحادي الجانب.

وهو يضرب على ذلك التفاعل الثقافي البديل مثالا بـ "هندي" فقير من سكان أمريكا الأصليين بعث ليطلب قسًا كاثوليكيًا برازيليًا من قساوسة "لاهوت التحرير" ليعوده وهو يحتضر. فماذا قال له الهندي وهو يلفظ آخر أنفاسه؟

"استدعيتك ليس لأنني أومن بربك أو بدينك، إنما كي أقول لك هذا: أحب الأطفال والسكان الأصليين وابق فقيرًا".

بعد هذا اللقاء بدأ ذلك القس (وكان مهجنًا نصفه هندي والآخر أبيض) يفكر وكأنه رجل هندي. ويعلق "تيشى" على هذه القصة بقوله:

"هناك أمران في هذه القصة المحكية يعتبران جديدين على مسامعنا نحن الأوروبيين: أن أحد السكان الأصليين يستدعي قسًا كاثوليكيًا لا لكى يباركه كمسيحي في لحظاته الأخيرة حتى يضمن الجنة، وإنما ليعلمه؛ يعلم قسًا يحمل هو نفسه لواء الدين، وأن القس بعد هذا الحادث غير العادي وبسببه بدأ في التفكير كهندي".

هنا لا يصبح لأي منا الحق في أن يدعى أنه "يمتلك" الحقيقة وحده، مهما كان واثقًا من صحتها، وإنما يكون على استعداد دائم لأن يدلف في فكر

الأخر ورؤيته وبالعكس، كما فعل قس لاهوت التحرير مع الهندي المحتضر: لم يذهب إليه ليبشره بملكوت السموات التي يؤمن هو بها، وإنما ليستمع ويتعلم منه ويتبادل معه أفكاره ورؤيته للحياة.

لعل هذا يفضي بنا إلى مصدر مهم من المصادر الفكرية الثورية لـ "أرماندو نيشي"، وهي الفلسفة التربوية للبرازيلي الراحل "باولو فريره" (١٩٢١ - ١٩٩٧) التي استخلصها من تجاربه الحية في محو الأمية في منطقة "ريسيفه" Recife شديدة الفقر في بلاده، والتي تصلح لأن تكون نبراساً لنا - نحن العرب - في تجارب محو أمية الفقراء في مجتمعاتنا. لقد لخص "باولو فريره" تفاعله مع المحرومين من الخبز والكتابة والقراءة بما دعاه عنواناً لأهم كتبه: "تربية المقهورين". وهو الكتاب الذي يعد امتداداً لكتاب آخر هو "الملعونون في الأرض" لـ "فرانز فانون".

عبر "باولو فريره" في "تربية المقهورين" عن الحاجة الماسة لتزويد الأهالي في المناطق المحررة من الاستعمار بتربية غير تقليدية ومناهضة لأسلوب الاستعمار الثقافي في آن، لذلك فقد هاجم ما دعاه "المفهوم المصرفي للتربية" الذي يعتبر الطالب مجرد "حساب فارغ" أو "سبورة ممسوحة" يملؤها المدرس بالمعلومات. إنما يطالب بأن تتحول ثنائية العلاقة بين "من يعلم" و"من لا يعلم" إلى علاقة تفاعل متبادل بين المعلم والتلميذ، حيث يصبح المعلم تلميذاً في بعض الأحيان، والتلميذ معلماً. وبهذا تتحقق ديمقراطية التعليم عن حق. ويدعو "باولو فريره" مذهبه هذا بلغته البرتغالية الـ "كونسينسينسيانو"، وهو ما يمكن ترجمته بالعربية بـ "توعية المقهورين". وهكذا صار هذا المفهوم برنامجاً له في التربية الشعبية، حيث كانت شهادة محو الأمية ضرورية لاكتساب الحق في المشاركة في الانتخابات العامة في البرازيل. لكنها لم تعد مسألة تحصيل شكلي هنا، إنما تقوم على تربية تفاعلية تجاوزت

ثقافة الطبقات المهيمنة بطرائقها التقليدية، وصارت هي التي تعلم أصحاب تلك التربية التقليدية كيف تكون التربية الحقيقية. والحق أنى كنت قد تعرفت على فلسفة هذا المفكر الإنسانى قبل أن أتعرف على مؤلفات "تيشى" بزمن طويل، وذلك من خلال صديقة برازيلية كانت فى القاهرة منذ قرابة ربع القرن، وهى التى عرفتني آنذاك - باللخزى - على المهندس «حسن فتحى» الذى انعقدت بينى وبينه صداقة عميقة خلال الثمانينيات. وكانت "جيلكا ريبيرو" - هذا هو اسمها - تحمل كتاب "توعية المقهورين" «لباولو فريره» معها وكأنه الكتاب المقدس، حيث كانت تقرأ على بعض المقاطع منه بالبرتغالية التى بعثت فى الرغبة فى تعلمها كى أقرأ لهذا الإنسان.

دعنى أسوق إليك مشروع "تيشى" التربوى بكلماته هو:

"أرى أن طريق التربية التى تهدف إلى العالمية بالنسبة لنا - نحن الأوروبيين الغربيين - يتقدم إلى الأمام بواسطة الأدب والموسيقى والبيئة. هذه الطرائق الثلاث المتكاملة والمتقاطعة والملينة بالشعاب المتفرعة والجسور والمحطات، لم يتم اختيارها بطريقة ميتافيزيقية، ولم تخرج من معادلات كيميائية خاصة، إنما هى طرائق اخترناها واحتضناها بكامل حريتنا وإرادتنا بحيث تسمح لنا بالبحث الدائم عن المعانى فى العالم وفى العوالم المشاركة فى الترجمة التى لا تتوقف، ومزج الممارسات والفنون والمصائر بما يخلق معاً «غير المتوقع» والمتعدد والتمتع. ثلاث طرائق وثلاث شاعريات مشتركة بالنسبة إلى الجنس البشرى."

وهو يصف موقف المتخمين من الغربيين المحدثين ويحاول أن يهزهم من سباتهم بهذه العبارات:

"فى هذه المسيرة العتيقة جد عتيقة، والتى ما زالت تبدو لنا جد حديثة،

نعد نحن الأوروبيين شديدي التأخر، بالغي البطء، سيئى التربية فى قراءتنا لماضيها وبسببها، ونحن الأكثر انعدامًا للياقة والأقل استعدادًا. إن هذه المسيرة نفسها تظل فى الغالب غير مرئية بالنسبة إلينا. إننا نتحدث كثيرًا عن التربية تفاعلية الثقافة، ولكن يبدو أننا نلتف حولها، حول حلقة خارجية لها. أود أن أقول: إننا نكثر الحديث عنها لأننا لا نعرف عنها شيئًا. ونحن لا نعرف عنها شيئًا؛ لأن التربية تفاعلية الثقافة ليس لها مكان فى موسوعتنا العالمية، وفى تراثنا الثرى جدًا والمجيد، وفى حضارتنا الأوروبية السامية، الأكثر كمالاً من صاداتنا العالمية."

وهو يرى أن الأدب والموسيقى والرقص خير مرب لهذا الغرض حيث يقول:

"عندما يكون الأدب والرقص والموسيقى والفنون جميعها حرة فإنها تربي وتعلم بهدف إنقاذ تعددية العوالم الحفاظ على نفسها وعلى الصحة التى تتولد من تلاقبها. إن الأدب والفنون - بما فى ذلك فن التحاور العقلى والتساؤل المتشكك وقلب كل بنيات الظلم رأسًا على عقب - وجدت أيضًا فى العلم شاعرية التوازى بين الأرضى والإنسانى، شاعرية تتجاوز المعرفة العلمية "المجردة" والتكنولوجيا المبهمة التى ترتبط دائمًا بالقرنين: الإنتاجية وتحقيق الربح النقدى. يتعلق الأمر هنا "بالحركة البيئية" التى انتشرت فى جميع العوالم اعتبارًا من أعوام السبعينيات من القرن العشرين. تلك الحركة المهدة بالوآد، كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية، ومع هذا لم تنقل إلى حزب صغير ينخرط فى اللعبة السياسية للسلطة، أو نادٍ للهممات بما قد استحالت إليه فى أوروبا.

إنما يشكل الأدب مع علم البيئة والموسيقى والتصدى للدفاع عن الطبيعة شبكة من التربية العالمية الحقيقية تفاعلية الثقافة، شبكة تضع العوالم جميعها فى علاقة مساواة متبادلة".

وفى تقييمه للهيمنة الثقافية الغربية يقول نيشى:

"إن التربية من منظور عالمى ينبغي أن تعنى مراجعة تربيتنا نفسها وماضينا على ضوء إعادة اكتشاف التعددية والمطالبة بها وعلى الحوار مع العوالم.

فنحن الأوروبيين المولودين فى دول "إمبريالية"، الذين نفخر بأننا شيدينا معارف العالم كلها، ليس لدينا فى معاجمنا ولا فى موسوعاتنا ولا فى برلماننا خطاب عالمى للتفاعل الثقافى لا يستحيل خطابا للسيطرة والهيمنة والتفوق الشامل، أو للعرقية والأبوية، سواء كان خطابا دينيا أو علمانيا، أو لآلية الاستدانة المشنومة (أى نعم المشنومة!). فإذا كنا مستعدين للاعتراف بكل هذا أصبحنا على الطريق نحو التخلص من النزعة الاستعمارية.

"إن التخلص من النزعة الاستعمارية Decolonizzazione، اسم نظريتى الشعرية، ونشرها بشكل تربوى هو هدفى الأول.

وحتى نبدأ الحديث حولها يلزم العودة إلى بداية الحدث: نحن الأوروبيين نوى العقلية الإمبريالية، (لم يكتب نحو اللغة الإسبانية للمرة الأولى إلا لأسباب "إمبريالية" بعد اكتشاف العالم الجديد، وهى نفسها من أوائل اللغات الحديثة) انتشرنا فى مرحلة من تاريخنا فى كل أنحاء المعمورة، تلك المرحلة التى فتحت الطريق لما يعرف باسم الحداثة، ورحنا ندمر ونوقف تطور ثقافات العوالم كلها. وكما أكد المؤرخ البوركىنى «جوزيف كى-زربو»، فإن الأوروبيين حرموا إفريقيا من حياتها الحقيقية برماد النار، وليست إفريقيا وحدها.

نحن الأوروبيين "الإمبرياليين" استقوينا بحضارة أعلى وبفكرة "تبشيرية" حول واجب نشرها على المستوى العالمى - كأداة للسيطرة وليست كهدية تشاركية - أفنينا وأفسدنا جميع الثقافات".

ولكن ذلك لا يمنع "نيشى" من أن يأخذ بمقترح "فرناندو أوريتز" الذى يدعو "التلاحح عبر الثقافات" transculturazione حيث إنه على الرغم من الدمار الذى أحدثته الحروب الإمبريالية الغربية فى الماضى، فإنها أنت بالمثل إلى تلاقح بين ثقافات مختلفة مما أدى إلى هجين متفاعل بينها، وهو ما يجعله يرحب كذلك بمفهوم "الثقافة البرتغالية الاستوائية" lusotropicalismo الذى صكه البرازيلى "جيلبرتو فريره"، وهو الذى أثار جدلاً واسعاً فى بلاده التى كانت حتى عهد قريب تحرص على قطع الصلة بينها وبين المستعمرين السابقين؛ وذلك ربما كان فعل على إحلال ثقافة المستعمر البرتغالى السابق محل اللغة والثقافة الأصلية للأمريكيين الذين يدعون "الهندود" بثقافة المستعمر البرتغالى السابق، وذلك لدرجة أن قاموس اللغة البرتغالية فى البرازيل كثيراً ما يختف فى مفرداته عن قاموس اللغة نفسها فى البرتغال، إلا أن صاحب هذا المصطلح الجديد أراد به أن يشير إلى إضافة الاستوائيين فى البرازيل إلى الثقافة البرتغالية، مما أثارها بعناصر مهجنة من الثقافة المحلية. وقد ألقى "جيلبرتو فريره" سلسلة من المحاضرات حول نظريته هذه فى البرتغال فى مطلع الخمسينيات من القرن الماضى. ويفضى تاريخ العلاقات العربية الألمانية فى أيام هارون الرشيد و«شارلمان»، قيصر ألمانيا المقيم فى «آخن»، إلى ظاهرة شبيهة حين بعث «هارون الرشيد» إلى القيصر «شارلمان» فى مقره فى مدينة «آخن» الألمانية، بساعة رملية وفيل أبيض يدعى «أبى العباس»، ولعله من اللافت أن الألمان المحدثين لا يميلون إلى ذكر الساعة الرملية التى كانت تمثل فى ذلك الزمان تقدم العرب على الألمان فى مجال التكنولوجيا، وإنما يؤكدون على حكاية الفيل الأبيض الذى بعثه «هارون الرشيد» معها لطرافتها، وهو ما يشير على أية حال إلى تحول الحرب الصليبية آنذاك إلى علاقة صداقة مبنية على الاندهاش وحب الاستطلاع والتفاعل بل التعاون المثمر بين الثقافتين.

قبل أن أختم هذه الكلمات أود أن أبدى ملاحظة مهمة على هذا الكتاب، فمؤلفه لم يك فيه واعظاً يعد ويحلم بعالم أفضل ثم يفعل عكس ما يقترحه على الآخرين؛ إذ لا يلبث القارئ أن يجد في كلماته تطبيقاً لمقولاته النظرية ومطالبه الأخلاقية العقلانية. فهو يتبادل الأدوار مع قرائه، وهو لذلك يختم كتابه هذا برسالة طويلة من الأديب الأمريكي اللاتيني "جوليو سيزار مارتينيز" يبعث بها إليه من حوض الأمازون ويدعو فيها "تيشي": "الحاكم الإداري الإمبراطوري للعالم!"

والمؤلف لا يفتأ يؤكد في أول الكتاب ونهايته ووسطه أنه قد تعلم من أصدقاء كثيرين، وقد خصني بكرمه حين ذكرني على رأس قائمة من كبار شخصيات الجنوب الذين تأثر بأعمالهم^(١٠) وتفاعل معها.^(١١) وهو لم يصدر

^(١٠) انظر الحاشية الخامسة ص ٤٧ من الأصل الإيطالي، والواردة في الترجمة العربية لهذا الكتاب الذي بين أيدينا، وكان "تيشي" قد سبق وتحمس لترجمة ونشر خمس من دراساتي الناقدة للأسس الفلسفية التي تقوم عليها المركزية الأوروبية إلى الإيطالية. وقد أدرجت بعض هذه الدراسات في برامج تدريس الأدب المقارن والأنثروبولوجيا التربوية في جامعة «لاساينزا» بروما.

^(١١) يذكرني ذلك بالفنان الراحل «سمير رافع» حين كان في مهجره في باريس، إذ التقى يوماً بالفنان العالمي «بيكاسو»، وبادره بقوله إن أحد أعماله - أي أعمال «بيكاسو» - توشى بتأثره بأعمال مصور آخر. عندئذ رد عليه بيكاسو بقوله: ما أسعدنى أن أسمع هذه الكلمات، فقد صرت وأنا في هذه السن المتقدمة قادرًا على أن أتأثر بأعمال سواى! وكان الكاتب الكبير «برتولت برخت» لا يعير "ناقديه" الصغار أى اهتمام حين "اتهموه" بانتحال أعمال سواه من الكتاب، إذ كان يقتطف منها خاصة فى مسرحياته، لا ليكرس رؤيتها للعالم، وإنما ليعكس رؤيته هو المختلفة عن رؤاهم. ومن ذلك على سبيل المثال أنه أخرج مسرحية "البحث عن جودو" لبيكت، وعرض فى خلفية المسرح فيلمًا لقلب ينبض، مما جعل المشاهدين ينصرفون عن التساؤلات=

فى ذلك عن مجاملة جوفاء، خاصة وأنا لم نتعارف سوى بعد أن كان قد ترجم ونشر لى فى الدوريات العلمية التى يصدرها أكثر من دراسة بالإيطالية، وإنما عن رغبة فى عدم احتكار المعرفة، فهو كما يضيف كذلك يضاف إليه، وهو يبحث عن هذه الإضافات فى بلاد الجنوب التى طالما هُمّشت وما زالت.

قد يُذكرنا "نيشى" فى موقفه هذا - كما سبق أن نوهت - بزميله الراحل "رينيه إتيامبل"، ولكن مع فارق مهم؛ هو أن "أرماندو نيشى" قد طور نظريته الشعرية التى يحلم أن يحفز بها قراءه إلى التخلص من لاعقلانية الأفكار الاستعمارية. وهؤلاء ليسوا فى الغرب وحده، وإنما كثيرون منهم مازالوا بيننا، نعم بيننا فى عالمنا العربى. من هنا كانت أهمية رسالته بالنسبة لشعوبنا، وليس فقط للشعوب الغربية التى يوجه إليها خطابه.

تنوية لا بد منه: لا يفوتنى أن أقدم عميق شكرى للأخ والزميل الفاضل الدكتور محمد عيسوى، بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة، على مراجعته الدقيقة للتجارب الأخيرة من هذا الكتاب، والتى لا شك أن ثمارها القيّمة ستسهم فى تعميق استفادة القارئ من هذا العمل الذى نرجو له استقبالا يليق به فى حياتنا الثقافية.

=الميتافيزيقية السيكلوجية فى المسرحية، ويتجهون بأنظارهم إلى الشاشة التى تنبض بالحياة من خلفها.

ملحق لهذه الكلمة

كما استهللت هذه المقدمة بمقتطف لـ "نيشى" ها أنا أنهيتها بعدة مقتطفات من كتابه، بعضها فيه شيء من الإسهاب الذى لا أعتقد أنه يبعث على الملل، بل بالعكس، على إذكاء حب الاستطلاع والمعرفة، خاصة وأن الحقب التاريخية التى يتحدث عنها فى كتابه هذا، بالنسبة للتاريخ الثقافى للبرتغال والبرازيل على الأقل، لا يوجد بين دارسى الأدب لدينا مختصون فيها بالمعنى الدقيق. وأخيراً أتمنى أن تبعث هذه المقتطفات شهية القارئ حتى لا يرجئ التهام الكتاب كله لحظة واحدة. وإليك هذه المقتطفات من نص "أرماندو نيشى" فى هذا الكتاب:

- إنى أرى اليوم تحديداً أن عدم وجود لغة أو منهاج للتمرد الفكرى والمدنى فى عالم الشمال، هو أكثر أشكال المعاناة حدة لكل مقهور يريد أن يعثر على مخرج أو فى القليل على قبس من نور على جدران الكهف الذى يجد نفسه محبوساً فيه.
- إن هذا الفهم المتمرد يمكن أن يصبح دافعاً - حتى وإن كان دافعاً ضعيفاً وبعيداً عن المركز - للمغامرات اليوتوبية الجديدة التى يمكن أن نبدأ بها باعتبارنا رجال أدب. واليوتوبيا لا تعنى المملكة المهجورة النابعة من الخيال الفلسفى، والذى يتحول إلى خيال استعراضى يمكنه أن يمثل جميع العوالم الممكنة بعد أن تدفع المقابل. إن ما هو يوتوبى يتم إفرازه فى محطات الحياة، وفى الفجوات المفاجئة بين مراحلها، وفى نوبات الاغتراب العازلة الناشئة عن عواصف غير متوقعة، فى سحب شمالية، وفى أبواب وحدائق، وخلف الجدران وداخل الثقوب، وعلى متن قطعة موسيقية. إن مواصفات هذه الفجوات تثبت فينا الأمل

فى إمكان العمل، حتى وإن كان داخل أفق حيدى جامد وضبابى الرؤية وقاس ونشاز، لصالح "أماكن الإعلانات" تلك التى لا تزال حتى الآن إعلانات عن عالم أفضل ينبغى أن تنتشر فيه القيم التى سبق إنكارها ونفيها: قيم اللقاء الودود (الذى نجعله ودودًا ثم نتركه فى مهيب الريح) والتناغم المشترك (الذى لا نعرفه سوى لمحات خاطفة فى الأحلام). وعندما نقرر أن نغير العين والفكر نتبادل العزاء بالامكان (المشابه «لليوتوبيا» ولكنه ليس كذلك) الموجود داخل المخيلة، الذى يتصافر معه الفقر المدقع، وبالثورة التى تطرحها علينا المغامرات «اليوتوبية» الجديدة: لقاء فى المستقبل. الفقراء والمتمردون وحدهم يعرفون كيف يقومون بهذه الثورة الخطيرة غير المرئية.

- إن اتجاه مسيرة العالم فى عصر الحضارة الحديثة الأخير والذى أطلقت عليه من قبل "التاريخ الأدبى السياسى المختلف" يمكن أن يعنى مدرسة أدبية وتيارًا مختلفًا عن "التيار العولمى الإمبريالى السائد"، ويمكن أن يعنى علامة وأثرًا فى اتجاه المستقبل.
- تتضمن هذه اللائحة الوصية رؤية شاعرية تتسم بالعملية، وهذه الشاعرية هى التى تدفع أصحاب النزعة الإنسانية من الأوروبيين إلى التفكير والعمل من الآن صاعدًا باعتبارهم - من منظور الفكر الأوروبى - أصحاب تاريخ استعمار وإمبريالية وعولمة العوالم، وإلى الإحساس بأنه يجب قلبهما رأسًا على عقب: الفكر والتاريخ. هذه المبادرة المعقدة والجافة والمختارة (هذا هو معنى وطريقة كونها ملزمة) هى أيضًا البداية لعمل متشكك ناقد لتفريغ الهوية الخاصة التى تتمثل فى "الرجل الأبيض، الدافع إلى التحضر، سيد المعرفة والقوة والقانون والحقيقة" حتى وإن لم تكن تتمثل فى السلطة والثروة والقوة

والسيطرة التي تكون في أيدٍ أخرى. هذه الشاعرية العملية تجعل من الممكن، بل ومن الواجب، ومما له مغزى، العمل بطريقة أوروبية فعلاً ضد الإمبريالية العالمية ذات الأصل الأوروبي، والاحتشاد في صف الفريق الذي يشمل "أولئك الذين يتخلصون من استعمارنا لهم". هكذا تلتصق المدينة الفاضلة بالمستقبل الذي تنتمي إليه حقاً، والتي حرمانها منه دائماً، بأن أرجعنا إليها الأماكن الخيالية والثقافة النظرية. وهكذا أيضاً تستطيع المدينة الفاضلة أن تبرهن على أنه يمكن خلق اتجاهات جديدة وبناء طرائق جديدة مثلها.

• إن مصطلح التخلص من «النزعة الاستعمارية» Decolonisazzazione ليس مجرد مرادف أو مكافئ أو يمكن استبداله بمصطلح «ما بعد الاستعمار» Post colonial discourse. وبالإضافة إلى التفريق بين التحرر من «النزعة الاستعمارية» و«ما بعد الاستعمار» فإنني من الآن وصاعداً سوف أميز بين التخلص من «النزعة الاستعمارية» باعتبارها عملية تاريخية لتحول الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية التقليدية، والتخلص من «النزعة الاستعمارية» باعتبارها طريقة وأسلوباً للتحرر من سيطرة الإنسان على الإنسان وعملاً مقاوماً لما يدعى العولمة، ومدينة فاضلة يمكن أن يمارسها الإنسان الحر بالنسبة إلى المهاجرين من خارج الجماعة الأوروبية. يمثل هذا ضرورة تاريخية، أما بالنسبة إلينا - نحن الأوروبيين - فإنه يمثل مخالفة للمألوف".

• يمكن للتاريخ الأدبي الذي يستلهم هذه الشاعرية أن يفتح طريقاً خاصاً به لم يسبق طرقه، بأن يقترح "مساراً هرمياً نازلاً حسب المسيرات التاريخية المختلفة للتخلص من «النزعة الاستعمارية»، أى من

الإمبراطوريات الاستعمارية الأولى الإسبانية، وكانت هي الأولى أيضًا التي تخلصت من «النزعة الاستعمارية»، وحتى «وحوش» الإمبريالية في عصرنا الحالي: أي الولايات المتحدة وروسيا الأورو-آسيوية. هذه الكتابة التاريخية المختلفة تطرح مفهوم التخلص من «النزعة الاستعمارية» نفسه كشكل تطهيري لنا نحن الأوروبيين. وهي قيمة يمكن استعادتها فقط من وجهة نظر تاريخ مختلف للثقافات المدنية الأوروبية التي قد تصل إلى حد التطور المشترك مع الثقافات المستعمرة، وتجد في هذا التطور المشترك معنى التاريخ الخاص بها، من خلال خلق «تقطة تفاعل أدبي» شجاعة وفعالة، وتكوين مشترك جديد تمامًا.

• إن ما تسمى بأداب «ما بعد الاستعمار» يجرى نعتها بهذا الاسم لأنها تبدأ اعتبارًا من التخلص من «النزعة الاستعمارية»؛ فكلمة «ما بعد» post تعنى «اعتبارًا من» a quo. بهذه الطريقة فقط يمكننا تحاشي الاضطراب وصياغة خطاب له معنى متحرر من «النزعة الاستعمارية».

• إن أدب «ما بعد الاستعمار» هو كل من أدب المستعمر أو أدب المستعمَر باللغة نفسها، لأن «ما بعد» تعنى «اعتبارًا من بداية الاستعمار» وليس «اعتبارًا من نهاية الاستعمار»، كما يبدو ضمنيًا فيما تعنيه ما تسمى بنظرية ما بعد الاستعمار الحديثة ذات الصناعة الأمريكية - الإنجليزية وبدرجة أقل الفرنسية. في مرحلة أولى من مراحل كتابة أدب (ما بعد) الاستعمار كان المستعمرون على درجة ساحقة دائمًا: من «كاموويش» إلى «منديس بينتو» إلى «مارينيتي»، ومن «دا فوي» إلى «كونراد»، ومن «كاييتسا دي فاكا» إلى «مولتاتوالي» إلى «كامي». وانطلاقًا من عصر عدم النزعة الاستعمارية (ومن التخلص

من النزعة الاستعمارية) بدأ أدب ما بعد الاستعمار يُكتب - باضطراد ثم بإفراد - من جانب كتّاب "الأمم" سابقة الاستعمار ومن الكتّاب المهاجرين. ومنذ ذلك الوقت وكتّاب العالم الشمالى يكرسون أنفسهم لتحرير «كتب الرحلات».

• هناك تدقيق أكبر: إن نظرية "ما بعد الاستعمار"، والتي نتجت فى العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبصفة خاصة فى الجامعات الناطقة بالإنجليزية والفرنسية، هى ظاهرة مختلفة، أحياناً ما تكون ناقدة وتحريية، وغالباً ما تتداخل وتختلط مع كلام ما بعد الحداثة الفارغ، ولا تزال محاطة فى البستان الأكاديمى من جانب «ما بعد الاستعمار» التى صنعت تاريخ العوالم منذ القرن السادس عشر.

• بينما كانت دول أوروبا الوسطى والغربية وإيطاليا على رأسها تحاول أن تستعيد على مدى ألفى عام وحتى نقطة التحول فى بداية العصر الرومانتيكى البرجوازى، المثل الأعلى المدنى والهومانستى للكلاسيكية اليونانية اللاتينية وطابع الإمبراطورية الرومانية - المسيحية - البربرية، كانت البرتغال تبني حداثتها الأدبية الخاصة داخل الحداثة التاريخية المواكبة "نحن، البرتغال، القدرة على أن نكون" هكذا يقول «بيسوا» فى ديوانه "الرسالة".

بهذه الطريقة فإن الأمة البرتغالية تعلن وتوضح على الفور أن كل ما هو مغامرة وغزو يعدُّ تاريخاً، ليظل الجهد الضخم، أو الضئيل، غير مكتمل، ويولد الحنين والغروب المفاجئ، وتتهار أسطورة تاج الملك وتتحول إلى حزن هادئ بعد أن فتحت الباب على مصراعيه لليوتوبيا، متحولة إلى أسطورة عابرة للقارات.

سارت الدولتان الإمبراطوريتان الإيرييتيان يدا بيد وجنبا إلى جنب

طوال ٥٠٠ عام، هي عمر الحداثة الأوروبية، مع الثقافات الجديدة الناطقة بالإسبانية والبرتغالية، حتى كونا معهما جماعات أدبية ازداد ترابطها وتكاملها حتى وإن كانت في الغالب متصارعة. وتبدو دائماً أنها تتقل آداب الحواضر داخل الثقافة الناطقة بالبرتغالية والإسبانية، بدلاً من إبقائها في مكانها. يكفي أن تفكر في شاعريات الحداثة البرازيلية: من بيان أكلة لحوم البشر الـ «مانفستو الأنثروبوفاجو» لأوزالد دي أندراجة» عام ١٩٢٨ إلى الاستوائية البرتغالية لعالم الأنثروبولوجيا "جيلبرتو فريره" في بدايات الأربعينيات.

وقد اعتقدت أنني عثرت على العقدة الاستوائية البرتغالية فيما بدا لي "الحنين للدولة التي ولدت من جديد" في قصتين رويتا مؤخراً: إحداهما برتغالية والأخرى برازيلية. وهما عبارة عن نص أدبي قصير لـ«خوسيه ساراماجو» بعنوان "حكاية الجزيرة المجهولة" لعام ١٩٩٧ وحكاية فيلم «والتر ساليز» "المحطة الرئيسية للبرازيل" Central do Brasil في العام نفسه.

والجزيرة المجهولة التي يتطلع بطلا القصة إلى بلوغها، لا نلبث أن نكتشف أنها هي نفسها المركب الذي أعطاهما إياه الملك: ليكتشف الرجل والمرأة ذلك في النهاية، كما يكتشفان في الوقت نفسه أنهما يتحابان، حتى وإن كانت المرأة مجرد خادمة (لكنها لن تكون كذلك فيما بعد). وهكذا يركبان البحر على سطح "الجزيرة المجهولة بحثاً عنها هي نفسها". منفتحان تماماً من أجل تجديد وجودهما: معاً ونحو المجهول.

وفي المشهد الأخير من الفيلم البرازيلي تختتم «دورا» البطلة، الخطاب الذي تكتبه للطفل «خوسيه»، والذي سافرت معه مسافات شاسعة في البرازيل حتى تعثر على والده لتعهد به في النهاية إلى إخوته، تختتمه بجملة: "لدى

حنين لكل شيء [تقول الكلمة والكاميرا على «دورا» متجاوزة كتفيها]. المرأة، الوحيدة وحده شديدة، المفلسة، ووراءها ماضيها المظلم البائس، تضع نفسها في مهب الريح نحو المجهول، وهي مستعدة لأن تذهب نحو المغامرة إلى مستقبل مجهول ولكنه مضىء.

وتعود «دورا» للرحلة، للسفر، ولكنها الآن دون صحبة، بعد أن أحست بالحنين لكل شيء وبعد أن حملها ذلك على عمل الحساب النهائي لأعمالها. وهذا يعنى: الحنين (ألم العودة الذى يعود فى النهاية والذى لم يكن ينبغى الآن أن يعود ويعيد أى شيء) لكل شيء كان باستطاعتها أن تكونه (وليس الشيء الذى كانته بالفعل) ولم يكن حياتها. إن "الحنين لكل شيء" يصبح فى هذه النقطة - فى نهاية القصة بالتحديد، ولكن فى اللحظة المناسبة بشكل إجازى - عودة الوعى، وتصبح استعادة العمل نوعًا من الزهد المكتمل: عناية طويلة وغير مرئية ولكنها عناية متوالدة، طالما أن الشر هو الذى كان يجب أن ترعاه. إنها لم تعد إلى الوهم أو العدمية وإنما إلى العكس منهما: العودة فى النهاية إلى التلاعب بالحياة حتى تتحرر، حتى إن جاء التحرر لقاء متأخرًا (متأخرًا جدًا ولكن فى موعده) فى المستقبل. إن «دورا» الآن هى «سباستيانو» الذى عاد من الجولة الطويلة فى عتمة الحنين حتى يستطيع أن يعاود السفر إلى المغامرة. حتى وإن لم يكن شابًا كما كان فى ذلك الوقت، ولكنه لا يزال يشعر أنه شاب.

وتفتتح المغامرة الاستعمارية البرتغالية مع «كاموويش» الأدب الأوروبى الحديث وتغلقه مع "الحكاية الاستعمارية الحية الأختيرة": رواية «أنطونيو لوبو أنتونس»، "فى مؤخرة العالم" لعام ١٩٨٣. ربما فى هذا النص يهدأ الحلم السباستيانى البرتغالى ووحشية الحركة الاستعمارية الأوروبية بكاملها:

... الحرب... انتشرت عبر «أنجولا»، تراب التضحية الأحمر «لأنجولا». وصلت إلى «البرتغال» على متن السفن المحملة بالعسكريين العائدين، الذين فقدوا التركيز وسادهم الذهول بسبب جحيم البارود، وانسلت إلى مدينتي للمتواضعة التي حجبها سادة «لشبوننة» بواسطة قنابل زائفة من الورق، فوجدتها ناعسة في مهد ابنتي كأنها قطة... الخوف من العودة إلى «البرتغال» كان يسحق حلقى لأنني، كما تفهم، ليس لي مكان في أي جهة، فقد كنت بعيداً لفترة طويلة جداً، أطول من أن أنتهي إلى هذا المكان، لهذا الخريف الممطر ولهذه المعارض، لهذه الشتاءات الطويلة التي تشبه المصابيح المحروقة، لهذه الوجوه التي أتعرف عليها بصعوبة من وراء تجاعيدها، كما لو أن ممثلاً مسرحياً ساخراً ابتكرها. معدوم الجنور، عائم ما بين قارتين ترفضاني، بحثاً عن مساحة بيضاء لكي ألقى المرساة... كل شيء واقعي، إلا الحرب، التي لم توجد قط. لم تكن هناك مستعمرات قط، ولا فاشية، ولا «سالازار»، ولا معسكرات الإبادة في «تارفال»، ولا الثورة، هل تفهم؟ لم يوجد أي شيء على الإطلاق، لقد أوقفت روزنامات هذا البلد منذ وقت طويل حتى نسيناها.. لقد قضينا سبعة وعشرين شهراً معاً في مؤخرة العالم.

حرب أخيرة في «أنجولا» والملك «سباستيانو» في ميدان معركة الهزيمة المغربية، جمعهما معاً «مانويل دي أوليفيرا» في فيلم من أفلام الثمانينيات. وهكذا، بدلاً من الرعب بقى الحنين هو المنقذ: الرغبة «الأوروأفروبرازيلية» بلغة برتغالية لها بداية جديدة.

• والحديث عن «إسبانيا» مختلف قليلاً، ولكنه يبحر على القارب نفسه للتطور المشترك مع الناطقين بالإسبانية. إنه حديث انقلاب حواضر الوسط الأوروبي وابتلاعها في جماعة متعددة هجين (أكل لحوم البشر" تقريباً: كيف لا نتذكر نجاح شخصية «كاليبانو» لـ«شكسبير» في الثقافة النقدية الأمريكية اللاتينية؟).

فيما عدا ذلك فإن كل هذا يحملنا إلى التشابك الهجين الذي بنى أوروبا الحديثة، والتي خرجت من تعشيق الحضارة المسيحية مع الحضارة اليونانية اللاتينية ومع اختلاط الناتج من حضارات الشعوب الجرمانية والشعوب الأخرى. ذلك التشابك الثلاثي الذي شق طريقه على مدى ذلك العصر الطويل الذي نسميه، نحن الأوروبيين، العصور الوسطى.

• نعود إلى الثقافة الناطقة بالإسبانية: فما يطلق عليه "الرواج" (مصطلح مكروه عن حق من جانب "روبرتو ريتامار") للأدب الإسباني وأمريكية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، والتي يمكن تلخيصها واحتواؤها في القطبين: الكاريبي «جارتيا ماركيز» والأرجنتيني «بورغيس»، هذا الرواج يعنى إثارة البركان لكي يبعث إلى الضوء عملية طويلة غير مرئية للتخلص من «اللزعة الاستعمارية» المشتركة بين الحواضر والأطراف^(١٢)، مع التكوين التاريخي لشعب أمريكي لاتيني "ووعيه" بوجوده داخل تاريخ العالم، كما يريد أن يقول الخطاب النقدي الذي بدأ مع «مارتي» وانتقل إلى «جيفارا» ثم إلى «ريتامار» نفسه.

• بينما تعبر الثقافتان الأدبيتان البرتغالية والإسبانية عن مضامين وقيم جديدة ومحررة إزاء العوالم كلها، وذلك إضافة إلى تحررها من «اللزعة الاستعمارية»، إذ بالثقافتين الناطقتين بالفرنسية والإنجليزية

(١٢) مسألة الحواضر Metropolis والأطراف (أي ما صار يدعى «العالم الثالث») هذه موضع نظر، خاصة أن القانون العام الذي يحكم السوق العالمية التي صارت تعم كافة أنحاء المسكونة هو قانون القيمة في الاقتصاد، وهو لا يعرف «مراكز ولا أطراف»، إنما تعم آليته الجميع على حد سواء.

تتجادلان في عملية غير مكتملة لما بعد الاستعمار، أو هما، على النقيض من سابقتيهما، تستحيلان إلى "قوة استعمارية وإمبريالية جديدة" تضمن لها السلطة والشهرة والنجاح العالمي، ولكن ليس من أجل أن تصبح عالماً جديداً من بين العوالم.

• أما آداب «الأنثيل» و«الكاريبى» - من الناطقين بالفرنسية: «سيزار» و«جليسان» و«ماريس كونديه» إلى الناطقين بالإنجليزية: و«لكوت» و«براثويت»، فضلاً عن الكوبيين - فهي تتحاز نهائياً إلى جانب «أمريكتنا» لـ«مارتى» و«العنصر الكونى الجديد» لـ«فاسكونسيلوس». وهى تعبر عن الحيوية الوثابة نحو "حضارة هجين" أو ثقافة عالمية للمستقبل، تجسدها هذه الآداب وتريد أن تتجاوز الإمبراطورية الثقافية الأوروبية التى أصبحت الآن بعيدة بالفعل، أو تلك الأمريكية الشمالية التى تعولم بطريقة غير تهجينية العوالم كلها فى عالم واحد وحيد يهدد ويتوعد كأنه ثعبان ضخم يجثم على الخليج الكاريبى بالكامل.

• فى هذه الحالات، فإن ما أسميته "أدب العوالم" لم يعد من الممكن تمثيله بواسطة تحديث فكرة "الأدب العالمى" الرومانسية ولا حتى بالفكرة الحالية لما يعرف باسم "الأدب الكونى" الذى فرضه التحكم العالمى الموضوع بين يدى الرأسمالية الجديدة الاتصالية المعلوماتية الذى يعامل عناوين الكتب كأنها أسهم فى البورصة. هذا هو الأدب العالمى الذى يكتسب وجوده من خلال آليات الربح والسلطة والاتصال الجماهيرى، والذى يواكبها ويطيعها فى كل مكان. وإلى جانبه وفى مقابله - حتى وإن كانت توجد منطقة متحركة يتقاطعان فيها ويعملان معاً - ينشط أدب العوالم الذى بدأ الحوار الجماعى المستمر، والذى

لا ينتهى لمن يقاوم السيطرة ويبدع المستقبل. ويفعل هذا إنسانياً مائة فى المائة، دون أن يكون مصدر هذا الأدب رسالة أيديولوجية (ميتافيزيقية) أو أى دعوى مطالبة بالتعويض (علمانية)، بل يفعل هذا لأنه لابد أن يفعله أحد؛ لأنه لابد أن يوجد جزء من الإنسانى يعمل من خلال خطاب "يوتوبى" من أجل تحسين الآخرين وإنقاذهم، وإن أمكن، الآخرين جميعاً، من أجل النوع واستحقاقاته. بالمعنى الذى خطر على بالى: الأرض والحرية.

- الحديث اليوم عن "الأدب العالمى" أعتقد أنه يعنى وجوب مراعاة هذه الخريطة شديدة البساطة، التى تستعين لأسباب تتعلق بالمواعمة باللغة الموحدة للإمبراطورية: أدب كونى يتوازى تماماً مع السيطرة الثقافية لسوق الفكر الموحد، وأدب للعوالم. وهو محدد بصيغة المفرد، ليس لأنه موحد ومقتن ولكن لأنه يعبر عن قدرة الأدب على أن يُترجم ويُترجم العوالم، بل أيضاً أن يكون هو ترجمتها: عوالم من لغات وثقافات مختلفة فيما بينها وعوالم من أحلام مفردة وحكايات وأغانٍ وخبرات غير متوقعة. وهو يشكل القدرة على التعبير عن معنى التحديّة غير المحدودة للخطاب، وعن الاختلاف المحدد والقابل للإنقاذ للثقافات التى تقيم حواراً فيما بينها، والتى تحاول توسيع دائرتها الخاصة حتى تستطيع أن تزد دائماً ومعا على سيطرة السوق العالمية باللسان «اليوتوبى» القادر على الترجمة.

مجدى يوسف

تمهيد المؤلف

على وجه الأرض تعيش وتعمل الآن سلالة جديدة متأخية ومنشقة وخارجة، خرجت من بين عوالم البهجة والألم لتقف في مواجهة عالم الهيمنة وعالم الاستعراض. تتعارف هذه السلالة الجديدة وتتحد وتخلق لنفسها أرضية مشتركة^(١). فهي تتناقش وتتحاب دون أن تلتقى في الغالب جسديًا، أو قبل أن تتمكن من أن تلتقى، وربما أيضًا دون أن تحتاج إلى أن تلتقى على الإطلاق. بعضهم يلتقى معًا بكثرة في «سياتل» و«دافوس» و«براج»، وبعضهم في مجموعات في «أبيدجان» لحضور مهرجان شعري، أو في جولة عبر «توسكانا»، أو في بلجراد تحت قصف قنابل حلف شمال الأطلسي، أو «أحادا»

«مواضع مشتركة» *luoghi comuni* في الأصل، وذلك - على الأرجح - في إلماحة من المؤلف إلى تلك التي يؤسس عليها «إرنست روبرت كورتيس» نظريته التي يدعوها «الأدب الأوروبي»، وذلك من خلال ما يتصوره «مواضع مشتركة» بين الآداب الأوروبية، أو أوروبية الأصل، ترسى وحدة بينها دون سواها من الآداب غير الأوروبية. ومن المؤسف أن كثيرًا ليس فقط من مثقفي الغرب، وإنما بالمثل من كتاب من يدعى العالم الثالث، بل من بينهم من هو في قمة إدوارد سعيد نفسه، قد وقعوا ضحية لتلك النظرية العنصرية الاستيعادية المتخفية في نثار فقه لغوي. ولعل للمؤلف هنا يسعى لأن يؤسس بديلاً لتلك الريفية الاستيعادية التي تستبدل بالشوفينية القومية الأوروبية «فاديًا» ثقافيًا غربيًا يحظر الدخول إلى أعتابه دون تذكرة الانتساب لإحدى تلك اللغات الأوروبية باقتراح أنسنة العلاقات بين البشر جميعًا دونما نظر إلى عرق، أو لغة، أو دين. انظر نقدي للأسس المعرفية (الفلسفية) لنظرية الأدب الأوروبي في دراستي «خرافة الأدب الأوروبي» المنشورة ضمن كتاب «الأدب الأوروبي من منظور الآخر» تحرير قرانكا سينوبولي^(٢٠٠٣) والذي تمت ترجمته العربية، ونشر بالمجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

(ولكن دون أن يكونوا وُحداناً) فى الصباح الباكر يطالعون على الشاشات بريدهم الإلكتروني.

إننا بصدد أن ننسج روابط أخوية من خلال العوالم والأجناس والأعمار وجميع الاختلافات والمباعدات. أخوة جماعية مهجنة وعلمانية فى معظمها وخارجة عن النسق العام، ولكن ليس بمعنى الهرطقة التقليدى، وإنما بمعنى من اختار أو من هو قادر على الاختيار، وهو المعنى الأصيل لكلمة هرطقة قبل أن تكتسى بالمعنى الدينى. اليوم تحديداً تتكون هذه الأخوة فى الوقت الذى تشيع فيه الدعوة إلى أنه لا توجد هناك بدائل يمكن الاجتهاد للاختيار بينها. لم يحقق هذه الأخوة أحد على الإطلاق، بعد أن كانت وستظل هى "اليوتوبيا" الأكثر فضائحية، والتي كانت الثورة البرجوازية عام ١٧٨٩ تستطيع أن تستوعبها وتتبناها. تتجاوز الحرية والمساواة، وكلاهما تم البحث عنه وتجريبه وفرضه بالقوة، إلا أنهما فشلا فى القرنين الأخيرين من تاريخ العالم. وهى فى الوقت نفسه أخوية - «أختية» (وهى بالعربية «إخاء» وتجاوز الكلمة للمذكر والمؤنث) يمكنها الآن فقط أن تتدفق من ثدى الإنسانية. الآن وقد اختفت من الممارسة السياسية الأيديولوجيات التى تجمع الممارسين حولها، وجاءت بدلاً منها نظم متجانسة عامة ليس لها كلمات تصفها. الآن وقد انتصبت وامتدت شبكة عبر الكرة الأرضية بين أنصاف المجهولين يتبادلون بكل جد ودأب الاتصالات والمشاريع والمناقشات، ويتكلمون فى كل نقطة وفى كل لحظة فى تشكيل مسلمات العالم الذى يخلقونه. الآن وقد أصبحنا نحب أنفسنا ونصارع من أجل ما نستطيع أن نسميه "الإنسانى بشكل حر".

إن الشبكة التى تسمح فى عصرنا الحالى بهذا الإخاء الجديد تعمل على تجميعنا لكى نستطيع إشعال المقاومة والثورة ضد الدائرة العالمية "للظلم"

والتميز والقهر، والذي يسمى "السوق العالمية والفكر الواحد" أى الاغتيال الكامل للسياسة والديمقراطية للدول التى ولدت من الثورة البرجوازية، التى استمرت قرنين من الزمان، أى ضعف تلك التى ولدت من الثورة البروليتارية. وكلاهما تحقيق مشوه لليوتوبيا الأوروبية للحكومة العالمية للعالم. دول ومجموعات سلطوية غير مرئية وأجهزة عسكرية ومؤسسات ومسارح إعلامية جماهيرية تحتل وجه الأرض بالكامل، يتلاعب فيها "الكازينو" المالى الأعظم الذى يدور فيه يوميا ١٨٠٠ مليار دولار. هذا هو العالم الساخن المضرب والقذر الذى نعيش فيه، فمع أى فريق تقف أنت؟ هل أنت قادر على الاختيار؟ أو أنك تحتاج لأن ترانا بدرجة أوضح؟ قبل أن يتحول هذا العالم إلى عالم مشابه للنيرفانا والماتريكس والإيكزنتس؟

إذا أردت أن ترانا بدرجة أوضح وإذا أردت أن تختار يمكنك أن تفعل هذا، ويسعى هذا الكتاب لمد يد العون لك إذ يطوف بك بين أرجاء الأدب.

الفصل الأول تاريخ مختلف

نعلم أن "الأدب الأوروبي" و"الأدب العالمي" موضوعان ينتميان إلى منهج تسجيل التاريخ الأوروبي للأفكار الأوروبية. بل يبدو أن لهما شكل الأسطورة كما أوضحت "قرانكا سينوبولي" في كتاب حديث لها^(١). أسطورة أرسقراطية تدور حول نفسها تمامًا كي تخلق أسطورة أخرى لصورتها الخاصة، عالمية هذه المرة. وهكذا أسقط الأدب الأوروبي نفسه على "العالم الجديدة" وأصبح هو "الأدب العالمي" بما يمثله من وعاء ونموذج أعلى ملزم لكل الآداب الأخرى عندما يتم فحصها وتمحيصها وقبولها. بالطريقة نفسها التي اختصت أوروبا لنفسها "عالم العوالم" (كما يقول «كاموويش» Camões^(٢)) في ملحمة "اللوزياديون" Lusjadi الجزء الثاني ص ٤٥) اعتبارًا من القرن السادس عشر. وهي العملية التي انتهت عقب نهاية الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين، عندما غربت شمس الإمبريالية الاستعمارية وبدأ عصر إمبريالية العولمة، الذي ما زال يتخبط كما يقول إدوارد سعيد، والذي تقوم فيه الولايات المتحدة بالعزف المنفرد (العولمة هي مرادف آخر للسيطرة الأمريكية طبقاً لما قاله «هنري كيسنجر» بلهجة فيها صلف وغطرسة).

^(٢) شاعر برتغالي عاش حياة مفعمة بالمغامرات في القرن السادس عشر، وقد خاض في ملحمة "اللوزياديون" (أي البرتغاليون) في وصف رحلات فاسكو دي جاما إلى الهند وما كانت تمثله من "أمجاد" البرتغال آنذاك، لذلك صار بعد وفاته الشاعر القومي للبرتغال على الرغم من أنه تعرض للكثير من المتاعب وعدم التقدير في بلاده في أثناء حياته. (المراجع)

وأجد لزاماً وضرورياً استكمال هذا الحديث الذى ينسحب على المثقفين الأوروبيين والمؤربين المحدثين فى المقام الأول، بدءاً من «جوته» ووصولاً إلى الأمريكين «خورخه لويس بورخيس» و«هارولد بلوم». فهم وكثيرون غيرهم ومنذ قرنين من الزمان قد بنوا وأشاعوا وفرضوا وطالبوا بالأسطورة العالمية لمصطلح «الأدب العالمى» Weltliteratur باعتباره "مكتبة بابل" و"نموذج غربى".

ماذا يحدث فى عصرنا هذا عندما تتعولم سيطرة القوى الاقتصادية والمالية عابرة القوميات وتهيمن على ما يرتبط بها من اتصالات عالمية فورية؟ فى عصرنا هذا الذى يستغل ويبدد فيه ١٢ فى المائة من البشرية ثروات غير متجددة بينما يعيش ٨٨ فى المائة من الإنسانية فى صراع مع عوامل البطالة والفقر والقهر المتجددة؟ ماذا يحدث للأدب الذى يمثل موضوع هذا الكتاب؟ وبعبارة أخرى ماذا يحدث لخطاب من يمارس الأدب مثلى وأنا أكتب (مثلك وأنت تقرأ) فى مهنة وتخصص أكاديمى أو للخطاب الذى يسمح لنا هذا الأدب نفسه بتوجيهه والذى لا يمكن اختزاله إلى ما تسعى للتبشير به "موعظة الطريق الوحيد" الذى تفرضه عجلة العولمة على البورصات والسلع، وليس على أى تخصص أكاديمى أو على ما يدعى نظرية الأدب بذاته؟

أزعم أن الأدب يعمل الآن بالتحديد على حفظ التواصل بين البشر والثقافات من خلال الترجمة المستمرة، سواء للتراث القديم برمته، أو لما هو ممكن من الإنتاج الحديث القادم من العوالم المختلفة فى كل اللغات. وهكذا يمكن أن نصل إلى ما يمكن أن نعتبره لغة ذهنية - عقلية مشتركة غير عادية، فمن خلال النصوص الأدبية تمر وتنتشر أحلام وقيم، وأفكار تخاطب العقل، وثورات ورؤى ومعانٍ، ولولا الأدب لكأنت قد ضاعت كلها وانهمت

وتسطحت واستوعبها عالم الوسائط المتعددة، أى تحولت إلى ألعاب فيديو أو أفلام هوليودية أو مسلسلات سخيفة. بهذا المعنى فإن فيلمًا لبرسون أو «لأنجلوبولوس» أو «فندرز» أو «فيليني» قد يقع فى خانة الأدب وليس فى خانة «سبيلبرج» و«تارانتينو».

إنه هذا الطابع الاتصالي القوى والترجمي الذى يطلق العنان دائماً للبحث عن المعنى، وهو بحث ممتع مقامر لا ينضب معينه أبداً، ويسمى اليوم "الأدبية"، كما كان يريدتها الإيطالي "جالفانو ديلا فولبه" (١٠) إن "الأدبية"

(١٠) فيلسوف إيطالي عاش بين عامي ١٨٩٥ و ١٩٦٨. تأثر بالنازية فى أثناء اجتياحها لباريس فى عام ١٩٤٠، ولكنه ما لبث أن تحول إلى الفلسفة الماركسية محاولاً أن ينزع عنها تماماً كل المؤثرات الهيجلية، على نحو يذكرنا بما فعله الفيلسوف الفرنسى "لتوسير"، وبذلك اصطدم "جالفانو ديلا فولبه" بالتراث الفكرى الإيطالى، من كروتشه إلى جرامشى، الذى لم ير مثل هذه القطيعة المعرفية الناجزة بين الماركسية والهيجلية. وقد عُين "ديلا فولبه" أستاذاً للفلسفة فى جامعة "ميسينا" بإيطاليا، حيث كان له فى أثناء حياته تأثير واضح على طلبته، بعكس أثره الذى كاد لا يذكر على الحزب الشيوعى الإيطالى بقيادة "تولياتى" آنذاك، وهو الذى كان - على العكس من "ديلا فولبه" - لا يرى ذلك الفصل الناجز بين الهيجلية، متمثلة فى السياسة الليبرالية، والماركسية. وهو ما تعرض له "ديلا فولبه" خاصة فى دراسته المقارنة بين فكر كل من "روسو" و"ماركس". فالفردية التى ينادى بها "روسو" الليبرالى تتناقض عنده بروحانياتها المثالية، فى نهاية المطاف، مع "العقد الاجتماعى" الذى نادى به هو نفسه، ومع الماركسية العلمية فى آن. وهو ينحو فى نظريته الجمالية التى عرضها بالتفصيل فى كتابه "تقد التذوق الفنى" (١٩٦٠) إلى رفض النظرة الرومانسية إلى الأعمال الفنية. فعنده أن القضية ليست للتفتيش عن علاقة قد لا تكون موجودة أصلاً بين العمل الفنى والسياق الاجتماعى لتاريخى الذى يتفاعل معه، وإنما التعرف على خصوصية هذه العلاقة النوعية بين العمل الفنى والعمليات الاجتماعية التى يلتحم معها فى لحظة تاريخية=

صفة راسخة في الإنسان قابلة للتواصل وليست قيمة جمالية متصلة بمنعزلة ليس لها اسم، كما كانت تدعو لها نظريات "الجوهر" الشكلية والمثالية والبنبوية وما بعد البنبوية في القرن العشرين، من «كروتشه» إلى «فيليك» ومن «ياكوبسون» إلى «بارت»، وصولاً لثرثرة ما بعد الحداثة.

إن القول بشاعرية أدبية إنسانية مضادة للعدمية ولاتجاهات السوق، لايعنى المطالبة بحركة إنسانية نخبوية و"متخمة بالقيم"، أى على الطريقة العتيقة، ولا بأفراد "أقوياء" مثقفين وأصحاب امتيازات. بل على العكس، يعنى فهم الأدب وممارسته كشكل وحيد من أشكال التواصل، شكل ديمقراطى يدعو للمساواة، شكل جماعى تبادلى مزود بقيمة المعنى، يمكنه الوجود حتى فى الظروف الحالية، ويمكنه أن يتفاعل (وهو يتفاعل فعلاً) مع جميع الثقافات. إن «أكبيه» و«جاليانو» و«موريسون» و«كواباتا» و«جوردمر» يعنون العوالم كلها وليس فقط الجنوب، الإفريقيين أو الأوروجوايين، أو السود أو النساء، أو المضاربين فى البورصة أو مهندسى البترول. إن الأدب ينتج توأصلاً عاماً يدعو جميع العوالم إلى التساؤل ويدفعها إلى التفكير، فى الوقت الذى يدعو فيه ما يسمى بـ "الفكر الواحد" إلى استهلاك الشيء نفسه إلى أقصى درجة وإلى "تصفح" الواقع الافتراضى، وذلك بدلاً من التفكير والتطلع

معينة. فضلاً عن ذلك اكتشاف تلك الخصوصية التى تجعل من العمل الفنى نفسه عملاً رائعاً وإن زالت الشروط التاريخية التى بعثت على إيداعه. وفى ذلك يستخدم "ديلا ثوليه" عددًا من المفاهيم والمصطلحات التى صكها أدوات دقيقة لتجسيد نظريته الجمالية، منها على سبيل المثال مفهوم "التباعد" و"التحديد بواسطة المفاهيم التخصصية" و"الصور - المفاهيم" و"اللغة كعمل أدبى" و"التتميط" وتعدد المعانى" و"أحادية الدلالة" و"التقيد الحرفى" و «الاختصاص بمجال فنى محدد» Tecnico. (المراجع)

إلى عالم مختلف يشكل بديلاً للكارثة التي نعيش فيها إذا وُجدنا جنوب الخط
الفاصل بين طرفي الثروة في العالم.

فهل يمكننا انطلاقاً من هذه الشعاعية أن نعتبر الأدب على المستوى
العالمي أفضل مرشد، إن لم يكن المرشد الوحيد للبراعة الإنسانية، كما كان
يريدها «جوزيف برودسكي» عام ١٩٨٧؟ أو حتى قوة وحيدة قادرة على
مواجهة مضاعفات الديمقراطية الرأسمالية والتحكم فيها بعد سقوط
الشيوعية كما كان يريد «سلمان رشدي» عام ١٩٩٠؟

أزعم أن الأدب هو المصدر الوحيد، إلى جوار الموسيقى، لتعليم
المقهورين وللتمرّد لصالح "الإنساني الحر"، وهما شيء واحد، كما علمنا
البرازيلي "باولو فيريره"، وسوف يظل في متناول من لا يريد أن ينزلق في
وعاء الصابون العولمي.

لنر: إن الأدب العالمي قد توقف عن أن يكون فكرة "حلم"، كما كان
يريد كل من «جوته» (١٨٢٧) والشعراء الرومانسيين، وتحول إلى ما
وصفه «ماركس» و«إنجلز» عام ١٨٤٨ بالسوق العالمية، أو الـ "قلت
ماركت" Weltmarkt للأدب القديمة والجديدة والمستقبلية، تتبعها الثقافة
الجماهيرية وتشتريها مقدمة إياها باعتبارها الوجه النبيل لها هي نفسها. وإلى
جوار هذا الأدب العالمي، والذي نستطيع باطمئنان أن نسميه اليوم الأدب
العولمي global literature، يوجد أدب آخر تدمره السوق وقوانينها، بقوة تقل
تارة وتزيد أخرى، ولكنه يتقاطع معها، ونستطيع أن نسميه «أدب العوالم»
Worlds' Literature^(١) والذي بدأ يشكل شبكة على مستوى الكرة الأرضية
للتعارف أو إعادة التعارف، للترجمة والتبادل متعدد الأطراف. إن أدب

(١) لاحظ هنا تمييزه الواضح لمفهومه (أدب العوالم) عما صار يعرف بـ "الأدب
العالمي" Worlds' Literature . (المراجع)

العوالم الذى أتحدث عنه ليس فكرة تزيد عن غيرها فى أن لديها تاريخًا مزدوج المركز كما هى الحال فى فكرة الأدب العالمى عند "جوته"، بل إن من الأفضل وصفها بأنها فكرة لا تتعلق بأى شىء سوى بتاريخها. إن أدب العوالم هو شاعرية المستقبل - تمامًا كما كانت الرومانسية عند ظهورها، ولكن مع تخلصها من المركزية الأوروبية وغطرسة البرجوازية الشرائية - أكثر من كونه مكتبة جيوبوليتيكية عالمية متخمة بالأعمال والأجناس والموضوعات والعلاقات الثقافية. بل على العكس يطرح هذا الأدب نفسه فى مواجهة العولمة التى تقوم بها الثقافة الجماهيرية داخل "الجسم المقدس" للسوق الوحيدة التى يراها العالم الشمالى ويفرضها على الكون. ولا يزال أيضًا قادرًا على أن يطرح نفسه كشكل من أشكال "تعليم المقهورين" وكقوة «يوتوبية»، بل إنه يستهدف أن يصبح بالنسبة للحوار بين العوالم منطقة متحركة لا يمكن التحكم فيها، أو كما يقول إدوارد جليسون "لا يمكن توقعها".

وهذا من مسلمات المقاومة فى هذه العوالم. وهو يطمح لأن يطرح نفسه كموضوع تعبيرى للتواصل والبحث عن المعنى والمساواة المتبادلة غير العنيفة بين الثقافات من خلال اللغات والترجمات. كما أنه يهرب - كما نريد له نحن الذين نمارسه - من التنظير التأطيرى والتصنيفى المشهور فى التراث المدرسى الأوروبى. ويبدو أنه يريد لنفسه طواعية واختيارًا أن يسلم نفسه إلى معرفة نقدية وتاريخية يشارك هو نفسه فى تكوينها وتخزينها دون الاعتماد على مصدر معين. يريد أن يسلم نفسه إلى شكل نقدى للتاريخ يبدو مختلفًا ولا يزال فى بداياته، بل إنه يتأسس على مناهج لا تزال حتى الآن تجريبية^(٢).

أما "الأدب الأوروبى" فيظل على العكس موضوعًا أكاديميًا وقاموسيًا، أو على أفضل الأحوال بناء تعليميا محافظًا أو قلعة إمبريالية فى إمبراطورية لم تعد موجودة.

والحقيقة أن الأدب الأوروبي إنما يمثل فئة "مثالية" أو فكرة تجريدية، أكاديمية نمطية، وليس مفهوماً شعرياً. ربما كان "ماتزيني" وحده هو الذى صاغه مفهوماً شعرياً. باختصار فالأدب الأوروبي يوازي فكرة أن الأمم الغربية و"كبار" أوروبا - مثلما كان يريد "ف. بروننتير" فى بداية القرن العشرين - قد سيطروا على الأمم الأخرى بالتدريج، مثل: إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا، انطلاقاً من "قاعدة مشتركة": تلك التى سوف يطلق عليها "فرانز فانون" فيما بعد اسم "القاعدة الإغريقية اللاتينية".

وفى عمله الصرحى الذى يدرس فيه انتقال الإرث بين العصور القديمة الكلاسيكية^(*) والعصور الحديثة فى الدول الغربية ينقد "إرنست روبرت كورتيوس" أفكار الأدب الأوروبي لـ"بروننتير" و"فان تيجم" مؤيداً الفكرة الكونية للشاعر "قاليرى لاريو" وهى فكرة "... السيطرة الثلاثية للمركز الفرنكو-ألماني-إيطالى وحزام من المناطق الخارجية، وهى مناطق حرة حدودية حقيقية، مثل الإسكندنافية والسلافية والرومانية واليونانية والإسبانية والقطالونية والبرتغالية والإنجليزية، وأهم ما فيها الإنجليزية والإسبانية لما لهما من قدم وأثر بعيد خلف الأطلسى".^(٢)

وقد أعجب «كورتيوس» بالنموذج المركزى - الطرفى الذى اقترحه

(*) وصحتها "الإغريقية الرومانية"، ذلك أن مفهوم "الحضارة الكلاسيكية" ينم عن أيديولوجية مفادها أنها تمثل "مهد" الحضارة الأوروبية الحديثة، وهو محض تصور أيديولوجى يسعى لفصل الغرب المهيمن والمستغل لسائر العوالم عن البلاد التى يخضعها لابتزازه وتدخله المستمر، فضلاً عن أنه يصدر عن منطلق معرفى غير دقيق. انظر نقدى الفاسفى لهذا التوجه فى دراستى "خرافة الأدب الأوروبى" فى كتاب الأدب الأوروبى من منظور الآخر، تحرير فرانكا سينيوبولى، روما، ٢٠٠٣، والذى نشرت ترجمته بالمجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

"لاربو"، لأنه يرسم خريطة إمبريالية للتاريخ الفكرى الأوروبى مخلصاً إياه من التاريخ السياسى. وطبقاً لـ "كورتبوس" فإن المدخل المقارن لـ "قان نيجم" فى كتابه "التاريخ الأدبى لأوروبا وأمريكا من عصر النهضة إلى يومنا" عام ١٩٤١ تشتم فيه رائحة الخلط بين التاريخ السياسى والتاريخ الثقافى.

وفى جميع الأحوال فإن فكرة الأدب الأوروبى يبدو أنها تعلقت: (أ) بالعلاقات بين الآداب القومية الحديثة (ب) للدول الغربية فى القارة الأوروبية (ج) التى تم اعتبارها وتصنيفها على أنها "كبيرة". وأضيف: (د) وهى نفسها التى استعمرت العوالم منطلقة من داخل أوروبا نفسها والتى ظلت لعدة قرون المنطقة الأولى للغزو، أو للاسترداد واستعادة الماضى، الذى وصف بأنه إمبراطورى وأصبح بهذا مدأ أسطوريا امتد لآلاف السنين. ثم حملت النور بعد ذلك على جناحيها، بالقوة والمدافع، نور حضارة "أسمى" و"أكثر عالمية". النور عندما يظهر متولداً من الغرب.

يمكننا أن نفضل التاريخ الغربى «لبرونتيير» أو خريطة المركز والأطراف «لاربو» و«كورتبوس»، ولكننا ينبغى على أحدٍ حال أن نتفق على أن النموذجين كليهما - بتتويعتهما - قد تم بناؤهما حول أيديولوجيا ضمنية غير قابلة للنقاش "نموذج أوروبى غربى" مهيمن وعالمى. وينبغى أن نتفق أيضاً على أن هذين النموذجين يستبعدان أو يهملشان بقوة ليس فقط الآداب الأوروبية الأخرى، بأن يحكما عليها بأنها "متأثرة" أو "صغرى"، وإنما أيضاً بإزاء أدبين إمبراطوريين هما البرتغالى والروسى، والأخير بدرجة أقل. وهما أدبان لبلدين قاما بغزو إمبراطوريات عالمية، وتم استبعادهما انطلاقاً من موقفين مبدئيين وغربيين فضلاً عن كونهما متطرفين. واحدة لكونها أصغر الدول الإمبراطورية، وقد صوبت جهودها نحو المحيطات

والأماكن البعيدة. والأخرى لأنها الأكبر والتي تريد أن تصبح أكبر وأكبر بالتوسع نحو الشرق عن طريق ابتلاع شره ونهم للأراضي، توقف عند حدود المحيط الأوروبى - الآسيوى بواسطة اليابان "الصغيرة" بهزيمة عسكرية لم يكن أحد حتى ذلك الوقت يتخيل أن تحل بقوة أوروبية عظيمة (١٩٠٤-١٩٠٥).

إن هذا الغرب البعيد الخفيف العابر للمحيط (البرتغال) وهذا الشرق البعيد الضخم أكل الأراضي (روسيا) هما اللذان رسما لأوروبا من «لشبونة» وحتى «فلاديفستوك» خارطة مستحيلة بعيدة عن الخيال، ومع ذلك فقد كانت من الناحية التاريخية هي الأكثر واقعية.

أما الباحث الذى طور نقدًا أكثر فعالية لتوليفات قيم المركزية الأوروبية، والتي سميت نظريات و/أو أفكار عن "الأدب الأوروبى"، بأن قلب التنظيم الأيديولوجى له بالكامل، فهو السلوفاكى "ديونيتش دجوريشين (بتعطيش الجيم)". فقد اتبع استراتيجىة جديدة تمامًا. لم يلجأ إلى التفكيك المبهر بدرجة أكبر أو أقل، بل قام بصبر وصرامة ببناء نموذج عام مفصل بأدق التفاصيل لعملية التفاعل الأدبى، ولو بدا للبعض أنه تجريد بارد. لقد انطلق من الآداب القومية ووصل إلى الأدب العالمى من خلال الشبكة الوسيطة لجماعات التفاعل الأدبى وما يتبعها من تآلفات تاريخية - جغرافية لما يسمى بمركزيات التفاعل الأدبى.

فى الخارطة الواسعة المعقدة «لدجوريشين» ليست هناك دول مسيطرة و"مؤثرة" فى اتجاه واحد، ولا توجد بصفة خاصة الفئة التى أصبحت رسمية وصرىحة، وهى فئة أوروبا الغربية، التى اعتبرت "الأم الطبيعية" التى لا نقاش فيها ومنطقة تتطور فيها الحضارة الأدبية "الأورو-عالمية" ومن ثم

العالمية. وتجاوز «دجوريشين» الكتلة الأيديولوجية لمركزية أوروبا الغربية دون أن يحاكمها، وبمبادرة صامتة غير محسوسة، بسيطة وغير قابلة للنقض. كيف؟ سوف أحاول في سطور قليلة أن أستحضر وألخص نظرية «دجوريشين» المعقدة.

لا معنى لدراسة الأدب الأوروبي كما لو كان موجودًا فعلاً بهذه الصورة، فهو في الحقيقة ليس شيئاً شرعياً محدداً أو قابلاً للتحديد - إن لم يكن بطريقة أيديولوجية متعسفة (مكشوفة) - داخل عملية التكوين الأدبي والثقافي ودراستها، وهو أيضاً ليس أفقاً منهجياً مثل الأدب العالمي. عثر دجوريشين على المثال الملموس، وربما الوحيد، للأدب العالمي متمثلاً في "مركزية التفاعل الأدبي ثلاثي القارات المتوسطي". إن ذلك الذي نستطيع، بل ينبغي، أن ندرسه هو "جماعات التفاعل الأدبي" التي يتم رسمها على نحو مختلف في خارطة العوالم الأوروبية على أسس ومقاصد وعلاقات جغرافية وثقافية وتاريخية، ثم الجماعة البلقانية، وجماعة وسط أوروبا، وجماعات الشمال، وغيرها. وليس في الخريطة أية جماعة تفاعل أدبي "غربية" و/أو أوروبية في حد ذاتها.

وكلما مر الزمن كلما زدت إدراكاً بأن عمل «دجوريشين» وروحه يهدياني إلى تفكير وفهم أفضل لعملى. وبينما كنت أعد لنشر البحث الأخير الذى أجرته مع هذا الأستاذ السلوفاكى ومع الأصدقاء الآخرين في أكاديمية العلوم في «براتسلافا» حول المركزية المتوسطية^(٤) استطعت أن أجمع الأفكار التى أبحث فيها، ودفعنى البحث إلى فكرة جديدة. فهذا البحث جعلنى أترجم دراسة "إى. أ. رياوزوفا" حول الأدب البرتغالى فى سياق الأدب الناطق بالبرتغالية، مقتنعاً بأن الترجمة هى أفضل طريقة لقراءة نص كما يقول "إيطالو كالفينو".^(٥)

(٥) إيطالو كالفينو: ولد فى كوبا عن أبوين إيطاليين فى عام ١٩٢٣، وقضى معظم =

على أية حال فقد وقعت في غرام النتاج الأدبي للبرتغالية^(*) من خلال

عمره في موطن والديه (إيطاليا) حيث صار كاتبًا وروائيًا ذائع الصيت. تنقل بين الاثخراط في التنظيم الفاشي في مطلع شبابه، والانضمام بعد ذلك إلى صفوف الحزب الشيوعي الإيطالي، ثم استقالته المدوية منه في عام ١٩٥٧، حيث نشر نصها آنذاك في صحيفة "لونيستا" (الوحدة) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي. ألف الروايات وكتب في الصحف والمجلات، واهتم بالخطاب الثقافي الأكاديمي في كل من إيطاليا وفرنسا، حيث تعرف في «الكوليج دو فرانس» بباريس على «رولان بارت» و«ليفي ستروس» وتعاطف مع ثورة الطلبة في ١٩٦٨. إلا أنه مما أثار الاستغراب أنه ألف نصًا روائيًا للطبعة الإيطالية من مجلة «بلاي بوى». توفي في عام ١٩٨٥ إثر انفجار في شرايين المخ في أحد مستشفيات «سينا» بإيطاليا. كتب في «مذكرات ست للألفية القادمة» يقول: «في الوقت الذي تسارع فيه وسائل الإعلام إلى تسطيح ما تبثه من معلومات حتى يصير متجانسًا وأحيانًا، تصبح وظيفة الأدب عقد الصلات بين الأشياء المختلفة؛ لأنها ببساطة مختلفة، وذلك ليس بتقليل التباينات بينها، وإنما بالعمل على شحذها إلى أبعد مدى ممكن». (المراجع)

(*) من الجدير بالذكر أنه لا يوجد قسم واحد في أي من الجامعات المصرية مخصص للغة والأدب البرتغالي، ناهيك عن الآداب الناطقة بالبرتغالية. وذلك على الرغم من أن البرازيل وحدها، وهي أكبر بلد ناطق بتلك اللغة، يقارب حجمها من حيث المساحة حجم الولايات المتحدة الأمريكية!! وهو الأمر الذي يجعلنا أحوج ما نكون إلى أن نحزر أنفسنا من الإطار الأيديولوجي الاستعماري الغربي الذي طالما اتخذ سندا لقهرنا على مدى عقود وقرون عدة. وأما التوجه «الكوزموبوليتاني» الغربي لدى العديد من مثقفينا الذين لا يكونون عن الدعوة له باسم «تقدم» موهوم للثقافة الوطنية (كان صديقنا الراحل الكبير «حسن فتحى» يدعو «الاستعمار الذاتى») فبحاجة ماسة إلى المراجعة، خاصة وأن ذلك الخطاب صار الآن مأزومًا بسبب محاولات الغرب المدوية لتصفية الاستقلال الوطنى فى الأطوار العربية، وذلك عن طريق تصفية علمائنا (انظر حال العراق حاليًا)، وذلك تارة بالحرب المباشرة وأخرى بالتدخل والابتزاز المباشر وغير المباشر. (المراجع)

فكرة الباحثة الروسية. وهى مبادرة أخرى عطوف لرفيق البحث السلوفاكى، مبادرة صموت ولا يمكن ردها حتى وإن جاءت بعد وفاة الباحثة.

فما فحوى هذه الفكرة؟ وما الدور المتميز الذى يلعبه فيها الأدب البرتغالى؟ حتى نجيب عن هذا السؤال أرى من اللازم الاقتراب من التاريخ السياسى والتاريخ الأدبى^(*) بطريقة تجعلنا نجرى دراسة ثقافية حقيقية مركبة وجمعية". وفور أن أقررنا هذا الرابط أجد لزاماً على أن أعلن أن هذا المنظور الجديد قد سجل نقطة تقاطع بين الرؤى التى يطرحها "دجوريشين" و"رياوزوفا" ورؤيتى لشاعرية التخلص من النزعة الاستعمارية الأوروبية.^(٥)

من الناحية العملية فإن عالمية الأدب الأوروبى قد أصبحت حقيقة ملموسة حسب الاتجاه الذى قرره الشابان «ماركس» و«إنجلز» عام ١٨٤٨، ليس فى اتجاه تحقيق حلم «جوته» ولا «فريدريش شليجيل» عن "القصيدية التقدمية العالمية" التى تتخلص من سجن القلب الألمانى لأوروبا، وإنما فى غزو الكوكب من جانب القوى الإمبريالية الاستعمارية التى نضجت فى القرن التاسع عشر، أو "عصر الإمبراطوريات" كما يقول "إى. هوبسباوم".

أما الذى بيّن العلاقة بين الآداب الأوروبية والاستعمارية بوضوح فهو إدوارد سعيد، وبخاصة فى كتابه الذى ظهر عام ١٩٩٣ بعنوان "الثقافة والإمبريالية". ولكن من الحقيقى أيضاً أن الآداب الإمبريالية الغربية قد أعطت دفعة لميلاد الآداب غير الأوروبية بلغات أوروبية. إن الآداب غير

(*) عين زميلنا الدكتور "مارتن فرانتسباخ" فى سبعينيات القرن الماضى أستاذًا لكرسى التاريخ الاجتماعى لآداب شبه الجزيرة الإيبيرية وأمريكا اللاتينية فى جامعة بريمن بألمانيا. فكم عدد الباحثين المصريين أو العرب الذين يشغلون مثل هذا الموقع فى جامعاتنا العربية؟! (المراجع)

الأوروبية للمستعمرات قد تفاعلت مع آداب الوطن الأم، حيث غزتها وأحدثت فيها تحولات ونزعت توجهاتها ثم أعادت توجيهها وهجنت لغتها من داخل لغاتها نفسها^(*).

^(*) وهو ما سبق أن أشار إليه سارتر نفسه عندما تحدث عن الآداب الناطقة بالفرنسية بقلم كُتَّاب ينتمون إلى المستعمرات الفرنسية. ولكنها قضية تحتاج للمناقشة، فـ "جيمس جويس" مثلاً يقول: إن اللغة الإنجليزية - لغة المستعمر لأيرلنده في مطلع القرن العشرين، الفترة التي دونَ فيها «جويس» روايته الأولى - كانت «تقف في حلقه» وهو يكتب بها. ويناقش «إعجاز أحمد» قضية اللغة الإنجليزية في الهند في كتابه الذي يحمل عنوان: «في الشأن النظري»، وهو يستحق في تقديري أن يترجم إلى العربية. ففارق كبير أن يسعى «بيكيت» مثلاً إلى أن يكتب مسرحياته بالفرنسية، بعد أن يصوغها في الغالب بالإنجليزية أولاً، أو أن يضطر الكاتب إلى الاستعانة بلغة مستعمر بلاده «لتعبير عن نفسه». فمهما كان تمرده على المستعمر بلغته، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فإن ذلك يعكس في الوقت نفسه مرارة تلك التبعية اللغوية التي يحاول الكاتب أن يفضها عن ذاته. كما أن هنالك أمراً آخر يتصل بعملية النشر في العواصم الغربية، إذ إن متطلبات الذوق والتوجهات الأيديولوجية العامة في تلك العواصم تفرض نفسها من خلال ناشريها على الكُتَّاب المنتمين إلى ثقافات غير غربية، وإن دونوا أعمالهم بلغاتها، وأمين معلوف الذي يكتب أعماله الروائية بالفرنسية مثل واضح على محاولات «التكيف» مع المتطلبات الأيديولوجية للنشر في فرنسا. كما أن كُتَّاب مقاطعة «كيبك» الناطقة بالفرنسية في كندا الذين يحاولون نشر أعمالهم الإبداعية في باريس يعانون من التدخل نفسه من جانب الناشرين الباريسيين، الأمر الذي يشكل في أحيان كثيرة «رقابة ذاتية» لدى الكاتب غير الفرنسي بإزاء ما يكتبه ليعرضه للنشر في العاصمة الفرنسية، وهو الأمر الذي سبق أن ناقشناه في مؤتمر الفيدرالية الدولية لجمعيات اللغات والآداب الذي عقد في جامعة برازيليا عام ١٩٩٣؛ لذلك أعتقد أن تصور المؤلف هنا إزاء ظاهرة تهجين اللغات الغربية بحاجة للمناقشة النقدية، إذ إنه يبرز العوامل الإيجابية لهذا التهجين، ولكنه لا يتعرض=

ومن اللحظة التي تكونت فيها الآداب "المهجنة" تكون أيضًا ما يمكن أن نسميه "رابطة تفاعل أدبي" بين أعمالها وكتابتها وأعمال آداب الوطن الأم وكتّابه. إنها نصوص وموضوعات ومؤلفون وأجناس "تتوازي" وتتخالط حتى تكون "منطقة تأثير متبادل" تنتشر وتتعدى العوالم التي حولها جميعًا فيما يمكن أن نسميه "النكوين المشترك".

كان لابد لهذه العملية أن تكون واضحة للعيان أمام الجميع في تعقدها الفاتن، فتتمة ما يمكن أن نسميه قلب الزمن الذي أعطانا الحياة. ولكنني لست مقتنعًا بها. فيبدو لي أنها موجودة في عصب أدباء الكاريبي وأمريكا اللاتينية وإفريقيا والعالم الإسلامي وآسيا، ومنهم بدأت أتعلمها. وليس بالتأكيد من (نقادى؟): كبار النقاد الغرب، الأوربيين الذين يسمون «بلانشو» أو «دوما»، أو «ايكو» أو «شتاينر»،... إلخ.^(*)

«الجوانب السالبة له، خاصة عندما يتعلق الأمر باحتياجات سوق النشر في العواصم الاستعمارية وما يترتب عليها من آليات تدخلية خاصة بالنسبة للأعمال الإبداعية لكتاب لا ينتمون ثقافيًا واجتماعيًا إلى العواصم الاستعمارية، الغربية. وإن كان ذلك لا يعنى بطبيعة الحال الاستسلام لهذه الآليات، ولعل المؤلف نفسه، وإن كان "أوروبي" المولد، أفضل مثال على هذه المقاومة لما هو سائد ومسود. إنما على هؤلاء المهمشين أن يتضافروا لتغيير آليات القهر الحالية التي لا يتخلى عنها القاهرون بسهولة لتعزيز سلطتهم التي لم يعد لها مبرر عقلاى واحد، بينما أن لها أن ترحل كي يحل مكانها ذلك الذى يتجاوزها إلى آفاق إنسانية أرحب. ولعل الحلم اليوتوبى الذى يقدمه لنا "نيشى" هنا ليس إلا تجسيدًا لهذا الكيان الأدبى البديل المقاوم. (المراجع)

^(*) هنا تتقلب الآية، فلسنا نحن وحدنا الذين نتعلم من الغربيين بعقلايتهم الشكلية فى معالجة الأمور حتى "تتطور" بما يتكيف مع معايير الغرب السائدة، وإنما يقبل الغربيون المتجاوزون بنزعتهم الإنسانية لمركزية ثقافتهم، من أمثال مؤلف هذا الكتاب، على الالتحاق بنا والتفاعل معنا، أو بالأحرى مع الواعين منا بضرورة شق=

هل يمكن التفكير بطريقة تحليلية في أن العصور الحديثة هي "نظام من خمسمائة عام"، طبقاً لتعريف «ناعوم تشومسكى»، أى أنها نظام يتوازى مع غزو الكوكب وامتلاكه من جانب الرأسمالية الأوروبية عبر دولها الاستعمارية، الأكثر تقدماً وتحضراً، الأكثر ثراءً وتسليحاً، الأكثر أهمية ومسيحية، الأكثر عالمية أو التى تتولى مهام عالمية، أى باختصار الدول التى لها "ثقافة إمبريالية"، فضلاً عن "ولع حقيقى وملموس بالتسلط". منذ ذلك

سبل مختلفة للمعرفة عن تلك المسودة "عالمياً" بحكم هيمنة الغرب بمعاييره على العالم. وهو ما لا يعنى "مقاطعة" مستحيلة للإنتاج المعرفى الغربى، وإنما السعى للإضافة الناقدة إليه بما يودى إلى تجاوزه من خلال اختلاف موقعنا الجغرافى، وثقافتنا الاجتماعية. وقد خصنى المؤلف مشكوراً بالذكر فى الحاشية الخامسة من هذا الفصل؛ حيث ذكرنى على رأس قائمة من كبار الباحثين الذين تفاعل معهم من خارج المحيط الغربى، ومن بينهم "روبرتو فرنانديس ريتامار" شاعر أمريكا اللاتينية وباحثها المنظر الكبير فى مجال التبعية الثقافية الأدبية. وقد سبق لـ "نيشى" - مؤلف هذا الكتاب - أن نشر لى خمس دراسات نقدية مترجمة إلى الإيطالية فى دوريات الأدب المقارن التى يصدرها بالتعاون مع جامعة "لاسابينزا" فى روما. وقد أشار فى السطور الأولى من دراسة له نشرت بالإيطالية والإسبانية والبرتغالية عنونها "الأدب العالمى وأدب العوالم" إلى أن زميلة له فى قسم الأدب المقارن فى جامعة «لاسابينزا» (فرانكا سينوبولى) قد استوحت دراستى "خرافة الأدب الأوروبى" فى تحرير كتاب لها بعنوان "أسطورة الأدب الأوروبى". كذلك تفاعل زملاء له فى تخصص الأنثروبولوجيا التربوية فى الجامعة نفسها بدراسة أخرى لى ترجمت إلى الإيطالية تحت عنوان "تخص الأطفال العرب فى عصر هيمنة ثقافة «بيزنى». ولعل «نيشى» يرى بذلك التفاعل النظرى تحقيقاً لحلمه الذى طالما طرحه فى كتاباته، والذى نتمنى أن يتحقق على نطاق أوسع فى المجالين النظرى والإبداعى معاً بين عالمنا العربى وسائر العوالم. (المراجع)

الحين تأسست فى جميع العوالم إمبريالية توسعية لم تنجح سوى حضارات قليلة جدًا فى مقاومتها ولو جزئيًا مثل: الإسلام والصين واليابان. إمبريالية على مستوى الكرة الأرضية اقتلعت جذور ثقافات وقضت عليها واستغلت الأرض والرجال والنساء. ولكنها أيضًا جهزت العوالم كلها، على الأقل سطحياً، لكى تنهيا للدخول فى السوق العالمية، سوق ذلك العصر. ومنذ ذلك العصر تم شق الطرق وبناء الجسور والأحياء والمناجم والمدن والموانئ والتكنات والمطارات ("التحضر فى البنية التحتية"، كما يمكن أن نسميها) والخرائط والقواعد والمدارس والكنائس، والطبقات الحاكمة، والضرائب والموضة، التى أخضعت بدورها العوالم كلها للعبث الأوروبى وشمال الأمريكى. إن الإمبريالية وقد تراجعت فى النصف الثانى من القرن العشرين عن الاحتلال المباشر للأراضى المستعمرة واصلت التحكم فيها "عن بُعد" واستخدامها سياسياً واقتصادياً، فهى تعرف أين تضع أيديها وأقدامها ومتاعها فى كل مرة تحتاج فيها لذلك. والنظام الإمبريالى للقرن السادس عشر جعلنا نرى بكل وضوح أن ما يُدعى "ما بعد الاستعمار" ليس إلا إعادة استعمار، وإن يكن بوجه مختلف أكثر تهنئياً وأناقاً، على هيئة واقع سياسى - اقتصادى، وكخلفية تمهيدية لما نطلق عليه "النظام العالمى الجديد"، أو "نظام العولمة"، الذى نتحدث عنه اليوم كثيراً، حتى فيما بيننا نحن رجال الأدب.

وهذا النظام مستعد دائماً للتدخل العسكرى لفرض "النظام" مثلما حدث فى البلقان وفى حرب الخليج وفى «الإكوادور» وفى المحيط الهادى، عندما فرضت مصالحه ذلك، بينما ترك المثقفين يلهون بالألعاب الأكاديمية من نوع "ما بعد الحداثة" و"ما بعد الاستعمار" و"نهاية التاريخ" و"صدام الحضارات" والعولمة التى يتم الحديث عنها فى آلاف المؤتمرات التى يمولها «سوروس»

و«مردوخ» في الصين وفي الهند وفي بلغاريا، فضلاً عن الجامعات الأمريكية والجامعات الأخرى في شمال العالم.^(*)

وأخيراً أرى أن غزو العوالم واستعمارها ربما كان هو الذروة، أو الجريمة البشعة لانشغال الحضارة الأوروبية - وما هتلر إلا مجرد نتيجة نموذجية قصوى لذلك كما أوضح لنا «إيميه سيزار» في كتابه "حديث حول الاستعمار" - ولرأسمالييتها التي لا يمكن كبحها أو إيقافها، تلك الآلة الجهنمية لنزع جوهر ما هو إنساني وجعله "مرناً" تجاه الخراب بكل معانيه. لقد ظلت الرأسالية وحدها منتصرة، وأصبحت تعنى أن الجزء "المختار" من الجنس البشري توصل إلى المقدرة على تطوير نفسه وترك ٨٨% من البشرية غارقاً في اليأس.

أنتج الغزو والاستعمار على أية حال وضغاً يستحيل معه إصلاح التاريخ العالمي، واستحالة الإصلاح لا تعنى الإبادة في حد نفسها، فقد كان المغول والتتار والعرب والأتراك وكثير غيرهم من الأمم من كبار الفاعلين في هذا المجال، وإنما تعنى أنها حولت اللقاء بين كل شعوب الأرض إلى مجموعة من الحملات العسكرية واستيلاء على الحضارات، بحيث صار من المتعذر على عوالم الجنس البشري المختلفة أن تلتقى من خلال قوانين استضافة وأصالة كل عالم على حده. إن جعل اللقاء كارثة، وأن يحمل هذه الكارثة بداخله وبداخل شفرة "الحضارة" الخاصة به، كجراثيم الأمراض التي لم يتحصن "المعرضون" ضدها، والتي كانت السبب الوحيد للإبادة، طبقاً لتعليقات المتحف البريطاني الناشئة عن "اتصال" شعوب أمريكا الشمالية الأصليين مع الأوروبيين. إن هذا كله هو مصير الغرب - كما يحلو القول لفلاسفة الموضة. مصير ما زال يتواصل بعنف وشراسة.

(*) ألم نزل نحن أنفسنا في العالم العربي ضحايا لهذه المودة الفكرية؟! (المراجع)

إن رأسمالية أوروبا - أمريكا الشمالية، ثم فيما بعد رأسمالية آسيا هي الأخرى، دنست ولا زالت تدنس مجمل طبيعة هذا الكوكب، يضاف إليها ويساويها بتر لا إصلاح لمستقبل الجنس البشرى. كما أن الاستعمار والاستغلال غير المحدود للطبيعة كانا من العلامات المؤثرة في تاريخ العوالم وكوكب الأرض بطريقة غير قابلة للإصلاح، بجميع أشكال المذبحة لما هو "إنسانى حر"، وتدمير طبيعة هذا الكوكب. إننا نعرف القيم المعاكسة أو المنكرة في لحظة الفقر المدقع: في أعمال مثل "اللقاء الودود" لـ «إيميه سيزاير وفينثيوس دي موراييس» و"التغام المحسوس" عند «جوزيبى أونجاريتى». لقد رأها الشعراء من وراء الظلام وحدوها.

وأعتقد أن آداب الحواضر الأوروبية يمكن، بل ينبغي، أن يتم سردها في جملتها من منظور مسار التخلص من الاستعمار المعاكس لمنظور المركزية الأوروبية، بكتابة تاريخ أدبى سياسى مختلف للحضارة الأوروبية الحديثة.

هذا الفهم المتمرد يمكن أن يصبح دافعاً - حتى وإن كان دافعاً ضعيفاً وبعيداً عن المركز - للمغامرات «اليوتوبية» الجديدة التى يمكن أن نبدأ بها باعتبارنا رجال أدب. و«اليوتوبيا» لا تعنى المملكة المهجورة النابعة من الخيال الفلسفى والذى يتحول إلى خيال استعراضى يمكنه أن يمثل جميع العوالم الممكنة بعد أن تدفع المقابل. إن ما هو «يوتوبى» يتم إفرازه فى محطات الحياة، وفى الفجوات المفاجئة بين مراحلها، وفى نوبات الاغتراب العازلة الناشئة عن عواصف غير متوقعة، فى سحب شمالية، وفى أبواب وحدائق، وخلف الجدران وداخل الثقوب، وعلى متن قطعة موسيقية. إن مواصفات هذه الفجوات تجعلنا نأمل بإمكان العمل، حتى وإن كان داخل أفق حديدى جامد وضبابى الرؤية وقاسٍ ونشاز، لصالح "أماكن الإعلانات" تلك

التي لا تزال حتى الآن إعلانات عن عالم أفضل ينبغي أن تنتشر فيه القيم التي سبق إنكارها ونفيها، قيم اللقاء الودود (الذي نجعله وودًا ثم نتركه في مهب الريح) والتناغم المشترك (الذي لا نعرفه سوى كلمات خاطفة في الأحلام). وعندما نقرر أن نغير العين والفكر نتبادل العزاء باللامكان (المشابه «لليوتوبيا» ولكنه ليس كذلك) الموجود داخل المخيلة، الذي يتضافر معه الفقر المدقع، وبالثورة التي تطرحها علينا المغامرات اليوتوبية الجديدة: لقاء في المستقبل. الفقراء والمتمردون وحدهم يعرفون كيف يقومون بهذه الثورة الخطيرة غير المرئية.

نعود إلى التاريخ الأدبي للتخلص من النزعة الاستعمارية. إذا أردت أن أبنى هذه الرؤية المخالفة وأضمن لها الفعالية فإنني لا بد أن أتبنى، وبإصرار شديد وصريح، فكرة أن الاستعمار الأوروبي للعالم (من القرن الخامس عشر وحتى الثامن عشر) وما تلا ذلك من عصر الاستعمار الإمبريالي الأوروبي الأمريكي الشمالي يعتبران من المراحل التي مهدت وأنتجت وأوحت بما نسميه اليوم "العولمة". وكان عالم الاجتماع الفرنسي "جورج بالاندييه" في بداية الستينيات من القرن العشرين^(*) قد عرف العالم الاستعماري بأنه "مجتمع مغترب عالميا". وظاهرة العولمة الحالية والتي نفخرت فيها جميعًا تجد في مغامرات الغزو الأوروبية تاريخًا خاصًا لها لو نظرنا إليها بتجرد، فقد تحققت بوصفها نظامًا امتك زمام السلطة في القرن العشرين، عندما اكتمل الاستعمار الاستيطاني واستقر، وبالتالي تحول إلى

(*) نشر 'بالاندييه' في تلك الستينيات دراسته الشهيرة "حول نمط الإنتاج الآسيوي". ولكنه صار الآن بعد إحالته إلى الاستيداع من وظيفته أستاذًا للتكنولوجيا في جامعة باريس الثالثة، مديرًا لمتحف الحضارة" في باريس الذي لا زال تحت التأسيس حتى بضع سنوات خلت (عندما التقيت 'بالاندييه' آنذاك). (المراجع)

"تحقيق الأهداف التي كان يريد منذ طفولته أن يحققها عندما يكبر" أي أن يسيطر على المجتمعات التي تحولت إلى أسواق، ويتحكم فيها من الداخل. فإذا كنا مستعدين لأن نأخذ بهذه النظرة فإن اتجاه مسيرة العالم في عصر الحضارة الحديثة الأخير، والذي أطلقت عليه من قبل "التاريخ الأدبي السياسي المختلف" يمكن أن يعنى مدرسة أدبية وتيارًا مختلفًا عن "التيار العولمي الإمبريالي السائد"^(١)، ويمكن أن يعنى علامة وأثرًا في اتجاه المستقبل، أو من ناحية الجانب الآخر للحياة، كما كان يقول "سيلين":

«إنه تيار تعددى مركب مضطرب ومعقد، ولا يزال غير مؤكد، ومحتشد إلى جوار الجبهة التي تزلزل المسيرة المنتصرة للعالم الموحد. تيار تاريخي للتخلص من العولمة. وتيار سياسي ليس فقط من منظور المبدأ، وإنما، وبشكل خاص أيضًا، بسبب قيمته الانقلابية المخطط لها والمعادية للإمبريالية».

كم تبدو هذه الكلمات غريبة. أليس كذلك؟ تبدو مواد لغوية قبيحة ومحرجة لدرجة شديدة، أو على الأقل ليست على الموضحة، أو أطلاقاً لم يعد لها معنى من أيام «تشي جيفارا» و«فانون» و«سارتر» و«لومبومبا». لا تفيد أحدًا اليوم؛ حيث تسيطر أخبار البورصات العالمية والجنس على الخط مباشرة من خلال الإنترنت و"حروب الإغاثة الخيرية" والأغذية المعدلة وراثيًا.

وأنا أرى اليوم تحديدًا أن عدم وجود لغة أو منهاج للتمرد الفكرى والمدنى في عالم الشمال هو أكثر أشكال المعاناة حدة لكل مقهور يريد أن يعثر على مخرج أو على الأقل على قيس من نور على جدران الكهف الذي يجد نفسه محبوسًا فيه.

وكما كان يقول رئيس لـ«بوركيينا فاسو» الشاب توماس سانكارا (الذي

قتله، من خلف طاولة كتابة أوروبية، شخص رأى أنه غير مناسب وغير مريح (عام ١٩٨٧) فى كتابه "الأمل المغتال": "على إفريقيا أن تبدع مستقبلها". وهذا هو أيضا واجب كل من يحارب مع الجانب الإفريقى: قبائل المابوكى فى جبال الإنديز (تشيلى) و«ماتيس» فى «الأمازون» و«جواتيمالا» و«المايا» فى «المكسيك» والأكراد المهاجرين فى أطراف أوروبا: إنهم "الفقراء" كما تسميهم "سيمون فايل"^(١) وهم ضحايا "العولمة". كل أولئك الذين يحاربون مع ٨٨% من العوالم حتى وإن كانوا يعيشون فى عالم بنسبة ١٢% الباقية وفى "أيامهم السعيدة"، قلقون يشعرون بالذل والمهانة، وهم هكذا يشاركون فى "المرحلة الانتقالية (الحالية - آ. نيشى)" نحو المجهول "سمير أمين". ربما لم يعودوا

(١) (١٩٠٩ - ١٩٤٣) درست فى "مدرسة المعلمين العليا" فى باريس، حيث تميزت فى الفلسفة على زميلتها فى الدراسة "سيمون دو بوقوار". وعلى الرغم من أصولها البرجوازية فإنها انحازت للطبقات العمالية والمعدمة. فقد ضحت بعملها مدرسة للفلسفة وتظاهرت مع العمال العاطلين، كما عملت عاملة فى أكثر من مصنع. وفى عام ١٩٣٦ انتقلت إلى إسبانيا لتتحق بالجبهة الجمهورية فى الحرب الأهلية هناك، ولكنها ما لبثت أن سقطت فى حاوية بها زيت مغلى مما جعلها تعود إلى فرنسا للعلاج. زارت إيطاليا عام ١٨٣٨، ثم عادت مع أسرتها إلى باريس فى ١٩٣٩. وفى عام ١٩٤٠ رحلت إلى مارسيليا حيث شاركت فى تحرير المجلة الأدبية "كراسات الجنوب". بدأت تتعلم السنسكريتية فى ١٩٤١. وفى عام ١٩٤١ رحلت مع والديها إلى نيويورك لتعود إلى أوروبا فى عام ١٩٤٣، ولكن هذه المرة لتعمل فى لندن كاتبة فى منظمة فرنسا الحرة. وفى مايو من العام نفسه (١٩٤٣) دخلت المستشفى لتعالج من مرض السل. وقد رفضت أن تتناول الطعام، رغم إلحاح محبيها، تضامنا منها مع معذبي الحرب العالمية الثانية. وفى يوم ٢٤ من الشهر نفسه لفظت أنفاسها الأخيرة لتدفن فى "أشفورد" من محافظة "كنت"، وتصبح أيقونة للتضامن مع المسحوقين فى هذا العالم. وقد صدرت محاضراتها فى الفلسفة بعد وفاتها فى أربعة مجلدات. (المراجع)

وحدهم بعد أن وُكِّت شبكة "قزمية" ولكنها عالمية الثورة المدنية في سياتل في نهاية القرن العشرين، تلك التي جسدت بوضوح موضوع "الإنسانى الحر".

نعود إلى الخط الأدبى لحديثنا: ماذا عساها تكون القيمة السياسية والمعادية للإمبريالية لتاريخ قررت أن توجهه الحركة الأدبية المتحررة من النزعة الاستعمارية لأوروبا؟ وفى أى شىء يتمثل مفهوم التحرر من النزعة الاستعمارية والذي يثار كثيرًا دون أن يتم توضيحه بشكل كافٍ وإنما يشير إلى كل من ولد فى "القارة" المُستعمرة، أمّ المستعمرات كلها؟

إن لائحة مواصفات حركة التحرر من النزعة الاستعمارية الملزمة، لائحة لم تتم صياغتها فلسفياً على الطريقة الأوروبية، ولا تزال غير مؤكدة ويوتوبية الطابع. فهي تتضمن ضرورة رؤية شاعرية تتسم بالعملية، شاعرية تدفع أصحاب النزعة الإنسانية الأوروبيين إلى التفكير والعمل من الآن وصاعداً باعتبارهم من منظور الفكر الأوروبى أصحاب تاريخ استعمار وإمبريالية وعولمة العوالم، وإلى الإحساس بأنه يجب قلب الفكر والتاريخ رأساً على عقب. هذه المبادرة المعقدة والجافة والمختارة، (هذا هو معنى وطريقة كونها ملزمة)، هى أيضاً البداية لعمل متشكك وناقد يستهدف تفريغ الهوية الخاصة التى تتمثل فى "الرجل، الأبيض، الدافع إلى التحضر، سيد المعرفة والقوة والقانون والحقيقة" حتى وإن لم تكن تتمثل فى السلطة والثروة والقوة والسيطرة التى تكون فى أيدٍ أخرى. هذه الشاعرية العملية تجعل من الممكن، بل من الواجب، ومما له مغزى، العمل بطريقة أوروبية فعلاً ضد الإمبريالية العالمية ذات الأصل الأوروبى، والاحتشاد فى صف الفريق الذى يشمل "أولئك الذين يتخلصون من استعمارنا لهم". هكذا تلتصق المدينة الفاضلة بالمستقبل الذى تنتمى إليه حقاً، والتى حرمانها منه دائماً، بأن أرجعنا إليها الأماكن الخيالية والثقافة النظرية. وهكذا أيضاً تستطيع المدينة الفاضلة أن تبرهن على أنه يمكن خلق اتجاهات جديدة وبناء طرائق جديدة مثلها.

إن التخلص من النزعة الاستعمارية اتجاه أدبي وممارسة سياسية تجمع بين الغربيين والشرقيين والمستعمرين ومن كانوا مستعمرين سابقاً فى العالمين الشمالى والجنوبى، فى تجريب متبادل وتطوير مشترك لطرائق جديدة لتحرير الجنس البشرى كله. والتخلص من النزعة الاستعمارية هو الطريقة التى نتحرر بها من سيطرة الآخرين، والسبيل الذى يخلصنا من حب السيطرة. مسيرتان تسيران معاً لأول مرة، وطريقتان تعملان معاً بالتساوى.

ومصطلح «التخلص من النزعة الاستعمارية» ليس مجرد مرادف أو بديل لمصطلح ما بعد الاستعمار. فبالإضافة إلى التفريق بين التحرر من النزعة الاستعمارية وما بعد الاستعمار فإننى من الآن وصاعداً سوف أميز بين التخلص من النزعة الاستعمارية باعتبارها عملية تاريخية لتحويل الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية التقليدية، والتخلص من النزعة الاستعمارية باعتبارها طريقاً وأسلوباً للتحرر من سيطرة الإنسان على الإنسان، باعتبارها عملاً مقاوماً لما يسمى العولمة، ومدينة فاضلة يمكن أن يمارس فيها الإنسان عملية تحرير نفسه. وهو ما يمثل "ضرورة تاريخية" بالنسبة للمهاجرين من خارج الجماعة الأوروبية، أما بالنسبة إلينا، نحن الأوروبيين، فهو يمثل "مخالفة للمألوف".

ويمكن للتاريخ الأدبى الذى يستلهم هذه الشاعرية أن يفتح طريقاً خاصاً به لم يسبق طرقه، ويقترح "مساراً هرمياً نازلاً حسب المسيرات التاريخية المختلفة للتخلص من النزعة الاستعمارية"، أى من الإمبراطوريات الاستعمارية الأولى الإسبانية، وكانت هى الأولى أيضاً التى تخلصت من تلك النزعة، وصولاً إلى "وحوش" الإمبريالية فى عصرنا الحالى: أى الولايات المتحدة وروسيا الأورو-آسيوية. هذه الكتابة التاريخية المختلفة تطرح مفهوم التخلص من النزعة الاستعمارية نفسه بوصفه شكلاً تطهيريًا لنا نحن

الأوروبيين. وهي قيمة يمكن استعادتها فقط من وجهة نظر تاريخ مختلف للثقافات المدنية الأوروبية التي قد تصل إلى حد التطور المشترك مع الثقافات المستعمرة، وتجد في هذا التطور المشترك معنى التاريخ الخاص بها، من خلال خلق "نقطة تفاعل أدبي" شجاعة وفعالة، وتكوين مشترك جديد تمامًا.

يتعلق الأمر بتاريخ يتشابه بقوة الأشياء مع تاريخ الإبادة والاستغلال، مع تاريخ الرأسمالية وتطورها، وهو أيضًا تاريخ مختلف عن التاريخ الذي تزويه تواريخ الأدب القومية أو حتى "المقارنة" و"أوروبية الاتجاه" (هناك اليوم من يكتب التواريخ الأدبية لأوروبا من وجهة نظر معاهدات ماسترخت والعملة الأوروبية التي توحدنا!).

وعلى هذا فسوف أحاول أن أبحث عن نوع من الصورة الزمنية، التي لا تزال بدائية ومشوشة، وربما أيضًا شديدة البساطة والتسطيح، لهذا التاريخ المختلف. في البداية من الضروري أن نذكر أن أزمنته هي أزمنة التسجيل الرسمي للأحداث، والتي سوف يتم نقلها إلى نطاقات أخرى، وقيمة ما سوف أتحدث عنه لا علاقة له "بالجوهر" أو "بالخواص الأصلية" غير المعلنة لمختلف الأمم الاستعمارية، ولا علاقة له بالعنف والضخامة الاستعمارية التقريبية لها؛ فالبرتغاليون كانوا بخسة البريطانيين والإيطاليين نفسها. (كان أول من روى الأعمال الخسيسة لمواطنيه في القرن السادس عشر البرتغالي "قرناو منديس بينتو"^(*) في عمله الرائع Peregrinação^(**)). كل ذلك كان يتم ذكره بوضوح، وسوف أتركه دون تشويش ولن يكون للمجهول منه شأن.

(*) عمل قرصانًا وتاجرًا وسفيرًا، وارتحل إلى كل من إثيوبيا وبلاد فارس والهند، ووصف تلك الرحلات في رواية أسفاره. (المراجع)
(**) بالبرتغالية: الحج (إلى أصقاع الغربية). (المراجع)

علاوة على ذلك فتتابع الأحداث والتصنيف التدريجي الذى أقرحه لن يؤخذ حرفياً، وإلا فسوف يتحول حديثى ببساطة شديدة وبعيثة إلى المعادلة الثقافية: من استعمر أولاً (إسبانيا أو البرتغال) هو أول من تخلص من نزعته الاستعمارية وتطور مع من استعمره (الدول الناطقة بالإسبانية أو الناطقة بالبرتغالية). إن تتابع الأحداث والتدرج فى هذا التاريخ يحاولان على العكس أن يضعوا فى دائرة الضوء الساطع طرائق ومسيرات مختلفة تتعلق بالوقت المناسب وقيمة الاتجاهات المختلفة للتخلص من النزعة الاستعمارية، وكذلك معالم استشراف مستقبل العمل.

وحتى أجعل كلامى أكثر خفة، فإننى أقتطع فى هذه النقطة جملة من عمل "دانييل بيناك": "الجنية القوية" La fata carabina حيث يقول: "أعتقد أنه حتى نعيد كتابة التاريخ يلزم أن نضع الجغرافيا فى فوضى قليلاً والعكس صحيح".

وأخيراً: إذا كان مصطلح "ما بعد الاستعمار" ليس مرادفاً لمصطلح التخلص من النزعة الاستعمارية" فماذا يعنى، على الأقل، فى الشعرية الأدبية؟

يسمح لى السؤال هنا بتقديم اقتراح إضافى: إن ما تسمى بأداب ما بعد الاستعمار يجرى نعتها بهذا الاسم، لأنها تبدأ اعتباراً من التخلص من النزعة الاستعمارية؛ فكلمة "ما بعد" post تعنى "اعتباراً من" a quo. بهذه الطريقة فقط يمكننا تحاشي الاضطراب وصياغة حديث له معنى متحرر من النزعة الاستعمارية. إن أدب ما بعد الاستعمار هو كل من أدب المستعمر وأدب المستعمر باللغة نفسها، لأن "ما بعد" تعنى "اعتباراً من بداية الاستعمار" وليس "اعتباراً من نهاية الاستعمار"، كما يبدو ضمناً فيما تعنيه ما تسمى بنظرية ما بعد الاستعمار الحديثة ذات الصناعة الأمريكية - الإنجليزية وبدرجة أقل

الفرنسية. في مرحلة أولى من مراحل كتابة أدب (ما بعد) الاستعمار كان المستعمرون على درجة ساحقة دائماً: من «كاموويش» إلى «منديس بينتو» إلى «مارينيتي»، ومن «دافوي» إلى «كونراد»، ومن «كابيتسا دي فاكا» إلى «مولتاتوالي» إلى «كامي». وانطلاقاً من عصر خسوف النزعة الاستعمارية (ومن ثم التخلص من النزعة الاستعمارية) بدأ أدب ما بعد الاستعمار يُكتب - باضطراد ثم بانفراد - من جانب كتّاب "الأمم" المستعمرة في السابق ومن الكتّاب المهاجرين. ومنذ ذلك الوقت وكتّاب العالم الشمالي يكرسون أنفسهم لكتابة "كتب الرحلات".

وهناك تدقيق أكبر: إن "نظرية ما بعد الاستعمار"، والتي نتجت في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبصفة خاصة في الجامعات الناطقة بالإنجليزية والفرنسية، هي ظاهرة مختلفة، أحياناً ما تكون نقدية وتحريية، وغالباً ما تتداخل وتختلط مع كلام ما بعد الحداثة الفارغ، ولا تزال محاطة في البستان الأكاديمي من جانب الآداب ما بعد الاستعمارية التي صنعت تاريخ العوالم منذ القرن السادس عشر.

والإمبراطوريتان الاستعماريان اللتان كونتهما البلاد الأوروبية أولاً هما البرتغالية والإسبانية. وهكذا نجدهما على قمة التدرج الزمني التنازلي لتاريخ الأدب الذي يفكر فيه تيار التخلص من النزعة الاستعمارية. وقد تأكدنا على الفور إمبراطوريتين مع عودة «كريستوفر كولومبوس» من العالم الجديد. في عام ١٤٩٣ قام البابا «الساندرو السادس بورجا» بدور الوسيط بين الأمتين الإيبيريتين بإصدار مرسوم الوجود المشترك *la Bolla Inter Coetera* يرسم به الخط الأرضي الجنوبي على طول الظهر الأوسط للمحيط الأطلسي (رايا) والذي يستخدم في تقسيم الأرض إلى قسمين طوليين: إلى الغرب الأراضي الذي تتجه إليه الغزوات القادمة من إسبانيا وإلى الشرق

الأراضى الخاص بالغزوات القادمة من البرتغال (المهتمة بأسيا أكثر من اهتمامها بالعالم الجديد). وقد تقبلت الدولتان المسيحيتان الأمر البابوى ووقعتا فى العام التالى على معاهدة تورديسياس والتي أعطت البرازيل للبرتغال رغم أنها غرب خط رايبا. [أعلم البابا الغزاة فى أمره البابوى - كما يذكر المؤرخ الإسبانى الكبير للعالم الجديد الفرانثيسكانى "برناردينو ريبيرا دى ساهاجون"، والذي مات ودفن فى المكسيك عام ١٥٩٠م - أن "تتصير الهند ليس فقط واجباً دينياً ولكنه التزام قانونى".]

كان من شأن الأدب البرتغالى أن تكون له انطلاقة رائعة - يمكن القول فعلاً إنه كان سيولد أو تعاد ولادته - جنباً إلى جنب مع الاكتشافات والغزوات للعوالم الجديدة عبر البحار، بحيث يتقاطع طريقه على الفور مع المغامرات البحرية والأراضى غير الأوروبية. خلق الأدب البرتغالى مع «لويس كاموويش» القصيدة القومية الخاصة به: "أيها البرتغاليون" والتي نظمت بين عامى ١٥٤٥ - ١٥٧٠، ولم تكتب هذه القصيدة بين وسائل ومرايا ومطابخ البلاط الملكى فى «لشبونة» ولكن فى أثناء الرحلة بين الهند وكمبوديا. وتحكى الأسطورة أن مخطوطتها تم إنقاذها مع مؤلفها الذى كان يرفعها عاليًا بيده فى أثناء حادث غرق لسفينة عند مصب نهر «الميكونج». الحكاية تليق أكثر «برامبو» وليس بأديب أوروبى عاش قبل قرابة خمسمائة عام.

ويُعرف «إدواردو لوورنسو» فى كتابه الجميل عن الصورة الذاتية البرتغالية، Labrinto da Saudade, Lisboa, Publ.Dom Quixote 1992 p. 20 [1978]^(٩) قصيدة "أيها البرتغاليون" بأنها: "قصيدة فيها العز والحزن..

(٩) بالبرتغالية، ومعناه: متاهة الحنين إلى الماضى، الصادر عن منشورات دون=

هي سيمفونية قداس الميت وترتيلته في الوقت نفسه". وهذه القصيدة لا تُغنى ولا تروى ولا تصنع أساطير وطنية مثل قصائد «أوغسطين» و«فيرجيل»، وليست رحلات رمزية محضة في عالم ما وراء القبور المسيحية، في منطقة المانش المعزولة أو في الجزيرة الوهمية للساحر دوق ميلانو «بروسبير»، ولكنها توضح بواقعية مغامرات الغزو عبر المحيطات لفاسكو دا جاما وسفنه المتجهة إلى الهند، لكي يضاعف حجم القارة الإفريقية وينقل المغامرة غير العادية «لبارتولوميو دياز» إلى مكان أبعد.

بالقصيدة البرتغالية أصبح الأدب البرتغالي عمداً أدباً قومياً بقدر ما هو استكشافي وعابر للقارات. والقصيدة تؤكد على مجد شعري نشأ مباشرة عن المغامرة "الحقيقية" (V89) (وليس من تظاهر وادعاء أو اختراع أساطير على الورق أو في دواخل الإنسان) لشعب كامل يسكن في أمة صغيرة جداً (VII,2) وضعت بالكامل على حافة الأطلنطي لأوروبا وتوجهت ناحية المحيطات كلها، والتي سوف تغزو - بمغامرتها الغربية هذه - إمبراطوريات لا تتسق أبعادها على الإطلاق. إنها قصيدة قومية تتبع خريطة عوالم حقيقية في الجغرافيا وفي الاكتشافات الأوروبية (X, 92، والدراسة). قصيدة تفتتح في الوقت نفسه نهضة مختلفة عن النهضة الأوروبية ذات الطابع الإيطالي الكلاسيكي. نهضة تفتح مستقبلاً طويلاً غير متوقع، ومعه أيضاً حلمه وغروبه.

هذه النهضة البرتغالية لا تنظر في الواقع إلى الوراء، إلى العصور القديمة المثالية، إلى التاريخ وفقه التراث الإغريقي اللاتيني، ولكنها تتخرط في المستقبل وتلقى بنفسها إلى المغامرة، في ذلك الذي لم يحدث بعد: تُبعث من جديد في اتجاه المستقبل وليس على عجلة العودة الحزينة غير المكتملة

مكيخته، لشبونه، الطبعة الثانية، ١٩٩٢، ص ٢٠. (المراجع)

لما يساويها ولما هو على شاكلتها. إليست ترسانة الأساطير الإغريقية اللاتينية في القصيدة البرتغالية إلا نوعاً من الصخور الضالة في الفضاء التي تصرخ وتتفصل عن الطقوس الدينية المسيحية. وتبدو كلتاهما، وبخاصة الأولى، ثانوية الأهمية أكثر من كونها ثروات جوهرية حتمية ومشاركة ومطلوبة كما في قصيدة دانتي].

إن الأسطورة القومية البرتغالية للحنين، والتي تتخذ شكل "صورة الذات" auto-immagine^(*)، وتظهر كثيراً عبر الأدب والثقافة البرتغاليين بطريقة صريحة ابتداء من الرومانسية، وقد امتدت إلى جميع الأراضي الناطقة بالبرتغالية، من البرازيل إلى أنجولا، حيث تم تفسيرها من الأدباء والمؤرخين على السواء على أنها "حنين للإمبراطورية المفقودة"، هذه الإمبراطورية التي تم تكوينها في عقود قليلة من الزمان. أما أنا فأرى أن هذه الأسطورة يمكن تفسيرها بشكل أفضل إذا اعتبرنا الحنين حنيناً خاصاً بالحالة الأولى: الحالة الوليدة المفاجئة لكل المغامرات اليوتوبية وللعنف المدهش الذي جعل هذه المغامرات ممكنة. كذلك إذا عدنا إلى مقياس الفرد، فإننا نعتبره حنيناً لحياة مفردة، يمكن أن تبدأ من جديد، ويعاد خلقها في المحيطات، والأشعة مفتوحة والمدافع مصوبة إلى عوالم بعيدة مجهولة. إن

(*) في إشارة من المؤلف هنا إلى مبحث "صورة الذات" في الأدب المقارن، ويدعى الإيماجولوجيا، وهو المبحث الذي يدرس العلاقة بين صورة الذات وصورة الآخر في الآداب القومية المختلفة، والدور الذي تلعبه تلك الصور في تشكيل مواقف الشعوب وتحيزاتها بإزاء بعضها البعض من خلال آدابها. وقد طور هذا المبحث "هوجو ديزرنك"، أستاذ الأدب المقارن سابقاً في جامعة آخن، والذي نشر له "أرماندو نيشي" بعض مقالاته في دورية الأدب المقارن التي يصدرها بالتعاون مع جامعة لاسابينزا (المعرفة) في روما. (المراجع)

الحنين المقصود هو حنين للنشاط المتسارع "البدائي" غير المحدود، الذى يفتح القصة، وحكاية مجد ليس له نظير ولا مثيل فى النظرة المليئة بكل أحلام العالم". ولكنه سوف ينطفئ فجأة ليتحول مع مرور القرون إلى إدارة حزينة للموجود. بالتحديد ذلك الذى ينظر إلى "دكان بيع السجائر المواجه للبيت" فى قصيدة «الفارو دى كامبوس فرناندو بيزوا» (يقدم «بيزوا» لنفسه تعريفاً، من بين التعريفات الكثيرة التى يقدمها عن نفسه، بأنه "سباستيانى عقلاى").

حلم ضخم فى الماضى، بدأ من جديد فى الحلم، تجسده "المدائح البحرية" لآلفارو دى كامبوس/بيسوا. الحلم بالقرصنة، ليس بأن يصبح الفرد قرصاناً، وإنما بملحمة القرصنة بكاملها: السفينة والغنائم البحرية والمغامر والضحية والمحيط.

وبأسلوب غير محسوس تعتبر قصيدة الحنين هى الحنين الموجه إلى لحظة البدء والانطلاق للغزوات الشابة المجازفة، التى حاولت فى الوقت المناسب أن تدعم القوة اليوتوبية الكاملة لمنطلقاتها - أحلامها، ولكنها انقطعت قبل أوانها، بالطريقة نفسها التى مات بها الملك الشاب «دون سباستيانو» فى معركة القصر الكبير فى المغرب ضد الموريسكيين عام ١٥٧٨. [قصيدة «كاموويش» العظيمة مهداة بالتحديد لهذا الملك، والذى كان وقت إهداء هذه القصيدة له صغيراً دون سن الرشد]. إنه الملك الذى أثار موته بعدها بقليل سقوط البرتغال فى أيدي التاج الإيبانى للملك فيليب الثانى والذى خلق أيضاً الأسطورة القومية البرتغالية الثانية المتمثلة فى النزعة السباستيانية. ومحتوى هذه الأسطورة أن الملك الشاب لم يمت فى المعركة المغربية وسوف يعود إن عاجلاً أو آجلاً... ليواصل الخط الذى انقطع لشبابه ولشعبه، ولكى يجدد الحالة الوليدة للغزوات الممكنة جميعها، أى لكى يستأنف

المسيرة الاستثنائية للشعب - الإمبراطورية - القصيدة، ولتقدمها غير العادي نحو الإطلال على اليوتوبيا غير الأوروبية: "الإمبراطورية الخامسة" بعد "اليونانية والرومانية والمسيحية وأوروبا"، كما يقول بيسوا في "رسالة" عام ١٩٣٤، الديوان الوحيد الذي طبعه في حياته.

وهكذا تتشابك قصيدة الحنين مع النزعة السباستانية في قلب الثقافة البرتغالية على مر القرون. يوقفان مستقبلها الذي فتحته "مضامينهما" نفسها على مصراعيه. والثغرة التي تركتها الشعوب الأوروبية الأخرى مسدودة مخفية لا يمكن العثور عليها، منسية إلا في الأحلام، حافظت عليها قصيدة الحنين، والسباستانية مفتوحة ولهانة بحب الأماكن البعيدة وعشق العلاقات اليوتوبية بين العوالم، والتي نادرًا ما عبر عنها بعض الشعراء وأصحاب الرأي [كان «بوتيتشيللي» و«جوفاني بيليني»، فضلاً عن «مونسو ديزيدريو» دائماً يهدون خيالي، كل بطريقته المختلفة، هذا الانطباع التغريبي والجميل: إن "عالمًا مختلفًا" يكون مرئيًا عندما يكون بالنسبة إلينا ثانويًا].

وبينما كانت دول أوروبا الوسطى والغربية وإيطاليا على رأسها تحاول أن تستعيد على مدى ألفي عام وحتى نقطة التحول في بداية العصر الرومانتيكي البرجوازي، المثل الأعلى المدني والإنساني للكلاسيكية اليونانية اللاتينية وطابع الإمبراطورية الرومانية - المسيحية - البربرية، كانت البرتغال تبني حداتها الأدبية الخاصة داخل الحدثة التاريخية المواقبة^(٧) تحن البرتغال، القدرة على أن نكون "هكذا يقول «بيسوا» في ديوانه "الرسالة".

بهذه الطريقة فإن الأمة البرتغالية تعلن وتوضح على الفور أن كل ما هو مغامرة وغزو يعدُّ تاريخًا، ليظل الجهد الضخم أو الضئيل غير مكتمل، ويولد الحنين والغروب المفاجئ، وتتهار أسطورة تاج الملك وتتحول إلى

حزن هادئ بعد أن فتحت الباب على مصراعيه لليوتوبيا، متحولة إلى أسطورة عابرة للقارات.

سارت الدولتان الإمبراطوريتان الإيبيريتيان يدا بيد وجنبًا إلى جنب طوال ٥٠٠ عام هي عمر الحداثة الأوروبية مع الثقافات الجديدة الناطقة بالإسبانية والبرتغالية حتى كونا معها جماعات أدبية ازداد ترابطها وتكاملها حتى وإن كانت في الغالب متصارعة. وتبدو دائمًا أنها تنقل آداب الحواضر داخل الثقافة الناطقة بالبرتغالية والإسبانية، بدلاً من إيقانها في مكانها. يكفى أن تفكر في شاعريات الحداثة البرازيلية: من بيان أكل لحوم البشر (مانفستو الأنتروبوجو) لـ «أوزفالدي دي أندراجه»^(٦) عام ١٩٢٨^(٧) وإلى

(٦) وضع «أوزفالدي دي أندراجه» (بتعطيش الجيم) بيان «أكل لحوم البشر» (بالبرتغالية: الأنتروبوجو) عام ١٩٢٨ ليرمز به إلى عملية «التهام» الحضارات الثلاث: الأمريكية الأصلية، التي تدعى خطأ «الهندية»، والإفريقية، والبرتغالية في مزيج واحد متجانس متناغم يمثل الهوية البرازيلية (بعكس «بوقة الانصهار» الأمريكية الشمالية التي عادة ما تفضى إلى للتنظي والصراع العرقي). ولطالما وظف الفنانون والكتّاب هذا المفهوم الرمزي في معالجاتهم للواقع البرازيلي المعاصر الذي ينفى في أن فكرة المركزية الأوروبية أو التبعية الثقافية للمراكز الغربية. وقد دعت إدارة بينالي ساو باولو للفنون التشكيلية الفنانين المشاركين في آخر دوراته إلى استيحاء هذا المفهوم الذي صكه «دي أندراجه» في هيئة موضوع رئيسي لأعمالهم الصادرة عن مختلف الخلفيات الثقافية والمنظورات الفكرية بوصفها تعليقًا تشكيليًا على هذا التصور المفاهيمي المجازي. وقريب من ذلك المفهوم نجد مفهومًا آخر صكه عالم الأنثروبولوجيا البرازيلي «جيلبرتو فريره» (١٩٠٠ - ١٩٨٧)، هو «الوزو تروبوكانيزمو»، والذي يتكون من مقطعين: «وزو» بمعنى «برتغالي» و«تروبوكانيزمو» (استوائى). ويشير هذا المفهوم إلى إضافة الثقافة الاستوائية في البرازيل إلى الثقافة البرتغالية الواحدة عليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد أثار هذا-

"الاستوائية البرتغالية"^(*) لعالم الأنثروبولوجيا "جيلبرتو فريره" فى بدايات الأربعينيات.

وقد اعتقدت أننى عثرت على العقدة الاستوائية البرتغالية فيما بدا لى "الحنين للدولة التى ولدت من جديد" فى قصتين رويتا مؤخرًا، إحداهما برتغالية والأخرى برازيلية. وهما عبارة عن نص أدبى قصير "لخوسيه ساراماجو" بعنوان "حكاية الجزيرة المجهولة" لعام ١٩٩٧ وحكاية فيلم «والتر ساليز» "المحطة الرئيسية للبرازيل" Central do Brasil للعام نفسه.

والجزيرة المجهولة التى يريد بطلا القصة الوصول إليها نكتشف أنها هى المركب نفسها الذى أعطاه إياهما الملك: يكتشف الرجل والمرأة هذا فى النهاية، كما يكتشفان فى الوقت نفسه أنهما يتحابان، حتى وإن كانت المرأة مجرد خادمة (لكنها لن تكون كذلك فيما بعد). وهكذا يركبان البحر إلى "الجزيرة المجهولة بحثًا عنها نفسها". منفتحان تمامًا من أجل تجديد وجودهما، معًا ونحو المجهول.

=المفهوم جدلاً كبيراً فى البرازيل، خاصة وأن التيار الثقافى المناهض للتبعية هناك يؤكد على تمايز الثقافة واللغة البرتغالية البرازيلية عن ثقافة ولغة البرتغال. وهو ما يتضح من مجرد الرجوع إلى قواميس اللغة البرتغالية البرازيلية التى لا تتطابق فى الكثير من مفرداتها وتلك الصادرة عن البرتغال. لذلك فقد أثار مفهوم "جيلبرتو فريره" كل ذلك الجدل فى بلاده؛ مما جعله يدعو لفكرته هذه فى رحلة قام بها فى مقتبل الخمسينيات إلى البرتغال، ألقى فيها سلسلة من المحاضرات عن تصوره بإزاء انصهار الثقافتين البرتغالية والبرازيلية فى مجال واحد ممتد، بل إن بعض أنصار "جيلبرتو فريره" يدعون إلى تأسيس ما يوازي للفرانكوفونية بالنسبة إلى الشعوب الناطقة بالبرتغالية، والموجودة فى إفريقيا (أنجولا وموزمبيق)، بالإضافة إلى البرتغال نفسها والبرازيل فى أمريكا الجنوبية. (المراجع)

(*) هى الأسطورة التى ترى أن انتشار الزواج بين الأجناس البرتغالية يؤكد عدم وجود عنصرية برتغالية. (المترجم)

وفى المشهد الأخير من الفيلم البرازيلى تختتم «دورا»، البطلة، الخطاب الذى كتبه للطفل «خوسيه» الذى سافرت معه مسافات شاسعة فى البرازيل حتى تعثر على والده، الذى عهدت به فى النهاية إلى إخوته، تختتمه بجملة: "لدى حنين [نقول الكلمة والكاميرا على دورا متجاوزة كتفيها] لكل شيء. المرأة، الوحيدة وحده شديدة، المفلسة، ووراءها ماضيها المظلم البائس، تضع نفسها فى مهب الريح نحو المجهول، وهى مستعدة أن تذهب نحو المغامرة إلى مستقبل مجهول ولكنه مضى.

وتعود «دورا» للرحلة، للسفر، ولكنها الآن دون صحبة، بعد أن أحست بالحنين لكل شيء وبعد أن حملها ذلك على عمل الحساب النهائى لأعمالها. وهذا يعنى الحنين (ألم العودة الذى يعود فى النهاية والذى لم يكن ينبغى الآن أن يعود ويعيد أى شيء) لكل شيء كان باستطاعتها أن تكونه (وليس الشيء الذى كائنه بالفعل) ولم يكن حياتها. إن "الحنين لكل شيء" يصبح فى هذه النقطة - فى نهاية القصة بالتحديد، ولكن فى اللحظة المناسبة بشكل إعجازى - عودة الوعى، وتصبح استعادة العمل نوعاً من الزهد المكتمل، عناية طويلة وغير مرئية ولكنها عناية متوالدة، طالما أن الشر هو الذى كان يجب أن ترعاه. إنها لم تعد إلى الوهم أو العدمية وإنما إلى العكس منهما، العودة فى النهاية إلى التلاعب بالحياة حتى تتحرر، وإن جاء التحرر لقاء متأخراً (متأخراً جداً ولكن فى موعده) فى المستقبل. إن «دورا» الآن هى «سباستيانو» الذى عاد من الجولة الطويلة فى عتمة الحنين حتى يستطيع أن يعاود السفر إلى المغامرة. حتى وإن لم يكن شاباً كما كان فى ذلك الوقت، ولكنه لا يزال يشعر أنه شاب.

وتفتتح المغامرة الاستعمارية البرتغالية مع «كاموويش» الأدب الأوروبى الحديث كما تختتمه مع "الحكاية الاستعمارية الحية الأخيرة": رواية

«أنطونيو لوبو إنتونس»، «فى مؤخرة العالم» لعام ١٩٨٣. ربما فى هذا النص يهدأ الحلم السياسى البرتغالى ووحشية الحركة الاستعمارية الأوروبية بكاملها:

... الحرب... انتشرت عبر «أنجولا»، تراب التضحية الأحمر
«لأنجولا». وصلت إلى «البرتغال» على متن السفن المحملة
بالعسكريين العائدين، الذين فقدوا التركيز وسادهم الذهول بسبب
جحيم البارود، وانسلت إلى مدينتى المتواضعة التى حجبها سادة
لشبونة بواسطة قنابل زائفة من الورق، فوجدتها ناعسة فى مهد
ابنتى كأنها قطة... الخوف من العودة إلى «البرتغال» كان يسحق
حلقى لأننى، كما تفهم، ليس لى مكان فى أى جهة، فقد كنت بعيدًا
لفترة طويلة جدًا، أطول من أن أنتمى إلى هذا المكان، لهذا الخريف
الممطر ولهذه المعارض، لهذه الشتاءات الطويلة التى تشبه
المصابيح المحروقة، لهذه الوجوه التى أتعرف عليها بصعوبة من
وراء تجاعيدها، كما لو أن ممثلًا مسرحيًا ساخرًا ابتكرها. معدوم
الجنور، عائم ما بين قارتين ترفضانى، بحثًا عن مساحة بيضاء
لكى ألقى المرساة... كل شىء واقعى، إلا الحرب، التى لم توجد
قط. لم تكن هناك مستعمرات قط، ولا فاشية، ولا «سالازار»، ولا
معسكرات الإبادة فى تارافال، ولا الثورة، هل تفهم؟ لم يوجد أى
شىء على الإطلاق، لقد أوقفت روزنامات هذا البلد منذ وقت طويل
حتى نسيناها... لقد قضينا سبعة وعشرين شهرًا معًا فى مؤخرة
العالم.

حرب أخيرة فى أنجولا والملك «سباستيانو» فى ميدان معركة الهزيمة
المغربية، جمعهما معًا «مانويل دى أوليفيرا» فى فيلم من أفلام الثمانينيات.

وهكذا، بدلاً من الرعب بقى الحنين هو المنقذ: الرغبة «الأوروأفروبرازيلية» بلغة برتغالية لها بداية جديدة.

والحديث عن إسبانيا مختلف قليلاً، ولكنه يبحر على القارب نفسه للتطور المشترك مع الناطقين بالإسبانية. إنه حديث انقلاب حواضر الوسط الأوروبى وابتلاعها فى جماعة متعددة هجين (أكل لحوم البشر" تقريباً: كيف لا نتذكر نجاح شخصية «كاليبانو» لـ«شكسبير» فى الثقافة النقدية الأمريكية اللاتينية؟).

فيما عدا ذلك فإن كل هذا يحملنا إلى التشابك الهجين الذى بنى أوروبا الحديثة، والذى خرج إلى الوجود من خلال تعشيق الحضارة المسيحية مع الحضارة اليونانية اللاتينية ومع اختلاط الناتج من حضارات الشعوب الجرمانية والشعوب الأخرى. ذلك التشابك الثلاثى الذى شق طريقه على مدى ذلك العصر الطويل الذى نسميه، نحن الأوروبيين، العصور الوسطى.

نعود إلى الثقافة الناطقة بالإسبانية: فما يطلق عليه "الرواج" (مصطلح مكروه عن حق من جانب «روربرتو ريتامار») للآداب الإسبانية الأمريكية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، والتي يمكن تلخيصها واحتواؤها فى القطبين: الكاريبى "جارتيا ماركيز" والأرجنتينى "بورغيس"، هذا الرواج يعنى إثارة البركان لكى يبعث إلى الضوء عملية طويلة غير مرئية للتخلص من النزعة الاستعمارية المشتركة بين الحواضر والأطراف، مع التكوين التاريخى "لشعب أمريكى لاتينى" ووعيه بوجوده" داخل تاريخ العالم، كما يريد أن يقول الخطاب النقدى الذى بدأ مع «مارتى» وانتقل إلى «جيفارا» ثم إلى «ريتامار» نفسه^(٩).

«جارسيلازو دى لا فيجا»، المولود فى «كوتسكو» فى «بيرو»، هندی مهجن، كتب ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر أعمالاً تاريخية

وملحمية تفتتح وتؤسس لهذه الجماعة الإسبانية الأمريكية. مات «جارسيلازو» في «قرطبة» بإسبانيا عام ١٦١٦، في العام نفسه الذي مات فيه سيرفانتس وشكسبير. وقبله كان «الفارو نونيز كايثا دي فاكا»، في كتابه التذكارى «للغرقى» عام ١٥٤٢، قد كتب يحكى كيف أن أحد الإسبان استطاع أن يتحول إلى هندي متجولا من «فلوريدا» (والتي تم غزوها من جانب «إرناندو دي سوتو» وسوف تتم حكاية غزوها من جانب «جارسيلازو» فى عمله «فلوريدا» عام ١٦٠١) إلى «المكسيك». والخبرة التى حكاها «كايثا دي فاكا» تقلب مقدما الأيديولوجية، التى تعتبر الأم والقائد للأدب الاستعماري الأوروبي كله، الخاصة «بروبنسون كروز لديفو»، ووضعت مستقبلاً مختلفاً، خاسراً وضائعاً، مقارنة بالإمبريالية.

صاغت القارة الإسبانية والبرتغالية الأمريكية محتواها الخاص منذ زمن. وأعتقد أن الأمر يتعلق بأقوى وأمثل «غزو» وإنتاج لهوية غير استعمارية ومتخلصة من النزعة الاستعمارية فى التاريخ الحديث للعالم. من «بوليفار» إلى «مارتى» وصولاً إلى «تشى جيفارا» و«ماركوس» والهندود الإكوادوريين المتمردين فى بداية عام ٢٠٠٠، هذه الهوية انشغلت بالوحدة - عنوان إحدى الروايات عن «جيفارا» بقلم «كورتازار» - بين الاختلافات لهذا العنصر الهجين العظيم الذى ينتشر من «المكسيك» إلى مضيق «ماجيلان»، أو كما يقول الشاب «تشى»، من «المابوكى» حتى «يوروبا» المنتزعتين من إفريقيا، ومن «إنكا» إلى «الإسبان»، ومن الكاريبيين إلى المهاجرين من أوروبا الفقيرة، كما يفهم الأرجنتيني «أرنستو ساباتو». إنه خليط رائع متحد - وليس وهمياً - يائسا متصارعا مثل بوتقة الانصهار الأمريكية - والذى استطاع أن يعيد التحدث بلغة قارية «لغة أم» والذى من خلال كتابه (و) ثأريه ينجح فى نزع حجاب العبودية عن وجهه، وهو نافر من نظرة «الحضارة» الأوروبية وقوتها، وأن يصبح معاصراً لباقي العالم بالثورة الكوبية - كما كتب أوكتايفو باث.

فى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين كانت أمريكا الناطقة بالإسبانية والمتسلحة بالثورة الكوبية والنجاح العالمى لأدبها الجماعى، تبرز بالحرية والبناء الذاتى باعتبارها "عالمًا جديدًا بين العوالم". قلم يكن تخلصها من النزعة الاستعمارية يهدف إلى أن يكون غزوًا وفرضًا للقوة على العوالم الأخرى، أو تلك "الإبادة" العنصرية للسكان الأصليين، كما فعلت القوة الإمبريالية الجديدة فى الشمال الأمريكى، وإنما على العكس فهى عندما عبرت عن أفضل ما لديها فتحت باب الحوار الجماعى والأخوى، وهو خطاب "شديد الإنسانية" استطاع الكشف عن جماعية العوالم فى العالم، ومنح الكرامة لمن يطالب بالاختلاف، فخلق الحوار وامتدح ثراء التهجين، وسأوى وتعاون مع الحواضر الأوروبية السابقة ومنبت السكان الأصليين من أرض بدائية، مزروعة وبور، و"العبودية الأم" للأفارقة المجتئين من جنورهم والمشتتين.

هكذا أصبحت أمريكا اللاتينية - بين كثير من المتناقضات - "عالم العوالم" الجديد، الذى انفتح أولاً على العوالم كلها. حدث قارى عظيم ولد من كارثة الاستعمار وتحرر منه خالقًا شاعريته الخاصة، وهى شاعرية سامية ومغامرة. إن أمريكا اللاتينية تمثل لنا، نحن الأوروبيين الآن، إحدى العجائب الجديدة التى أنتجت نفسها بنفسها من خلال عملية نموذجية للتحرر من النزعة الاستعمارية. ونحن نقف أمامها كأنها أثر ضخ لتاريخ مختلف يتحدث إلينا عبر أدبه وموسيقاه، أدب وموسيقى جماعية وموحدة.

وأمريكا المكونة من العالمين الناطق بالإسبانية والبرتغالية - أطلق عليها "مارتى" "أمريكنتا" و"العنصر الكونى" طبقًا للمسيكى «فاسكونسيلوز»، ونسميها نحن الأوروبيين، أمريكا اللاتينية ويسميها البرازيلى "دارسى

ريبيرو^(*) "الوطن الكبير" - حققت نفسها باعتبارها "العالم الجديد"، الذى ولد

(*) توفى متأثرًا بمرض السرطان عام ١٩٩٦ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين. وهو أنثروبولوجى وروائى برازىلى معروف، كما أنه باحث منظر له عدة كتب - أهدانى إياها فى "ريو دى جانيرو" حين التقيت به عام ١٩٩٣ - من أهمها: أمريكا اللاتينية فى مفترق الطرق، ونظرية "البرازيل". كان وزيرًا للثقافة فى بلاده حتى أوائل الستينيات، إلا أنه هاجر إلى الخارج بعد انقضاء العسكر على السلطة، ثم عاد إليها بعد انقضاء الحكم العسكرى، حيث أصبح عضوًا فى مجلس الشيوخ بالعاصمة برازيليا عن ولاية "ريو دى جانيرو". وكان مسئولًا فى هذه الولاية عن ألف وخمسمائة مدرسة لمختلف مراحل التعليم، كما أنه أنشأ جامعة تكنولوجية، حدثى عنها فى أثناء لقائنا، لتنمية ولاية ريو. و كان بالمثل عضوًا فى أكاديمية البرازيل التى أنشئت على غرار الأكاديمية الفرنسية (عدد أعضائها أربعون يتم اختيارهم بالاقتراع السرى). من بين روايات "دارسى ريبيرو"، الذى كان يتمتع بروح مرحة محبة للحياة، رواية تدعى: "يوتوبيا متوحشة". وهى تحكى قصة أوروبى وقع "صيدًا" فى أسر قبيلة من النساء فقط فى حوض "الأمازون"، حيث جعلوا يغنونه ويستخدمونه بشكل متناغم، الواحدة تلو الأخرى، لإشباع حاجتهم للإنجاب. ولكن ما كان يؤرقه أنه كان يعلم أن هذه القبيلة سوف تستخدمه طعامًا لها فى النهاية. وحينئذ تذكر حالة فلاح ألمانى وقع فريسة لقبيلة من رجال الأمازون، وعندما هموا بإعداده لـ "وجبتهم" جعل صاحبنا يبكى ويصرخ حتى إنه بال على نفسه، مما جعل أهل القبيلة ينفرون من أن يكون بهذه الحالة المنفرة "طعامًا" لهم، ومن ثم أطلقوا سراحه. تذكر ذلك هذا الأوروبى وهو فى أسر قبيلة النساء، ولكنه لم يسطع أن يبكى وهن يمتعنه بالطعام والشراب والجنس بينما كل ما عليه أن يلتقى على ظهره فوق شبكة تميد به فى الهواء كالمهد بالنسبة إلى الطفل. وعندما يصل شوق القارىء إلى نروته ليعلم ما سيحدث لذلك "المسكين" المنعم، ينتقل به "دارسى" مباشرة إلى أهم القضايا الاجتماعية التى يريد أن يحدثه بشأنها. لذلك فقد دعتة عن حق رئيسة أكاديمية البرازيل فى خطاب منها إلى بعد وفاته "معلمًا وتربويًا كبيرًا". (المراجع)

من خليط المستعمرات الأوروبية والوجود السابق عليها للسكان الأصليين، ومن الهجرات الاستعمارية الأدنى من المختطفين والمستعبدين الأفارقة لخليج غينيا ومن شعوب مختلفة من المحيطين الهادى والهندي. عالم جديد من بنى البشر يمكن أن يعتبر حقاً "الأكثر حرية". وهم يحملون حضارة ولغة وإبداعاً وليس عالماً جديداً من السلطة كذلك الذى تكون فى أمريكا الشمالية وكان "سوبر غربى".

فإذا وصلنا إلى رؤية أمريكا اللاتينية على هذه الشاكلة، ووراءها ومعها الفقر وبؤس الحال وانعدام الأمان إلى جانب التعثر الجنوبي، فذلك يعنى أننا بدأنا ننضم إلى صفها، وإلى صف أحلامنا.

ولا يزال على إفريقيا المستعمرة فى جانبها الأكبر من الفرنسيين والإنجليز - وأيضاً من العرب والألمان، والبلجيكين والهولنديين، والبرتغاليين والإسبان، وأيضاً منا، نحن الإيطاليين، كما هو معروف، وربما كنا أسوأ المستعمرين - لا يزال عليها أن تحدد محتواها المتخلص من النزعة الاستعمارية، من خلال السبل الباقية فى الذاكرة، حتى وإن كانت قد تقطعت، وإن كان قد بحث عنها "فانون" و"لومومبا" و"سانكارا" و"كبرال" و"تيتو" و"تكروما" ومن الأحياء "مانديلا" و"سيزار" و"أكيبى" و"سوينكا" و"كى زيربو" و"سمير أمين" و"جورديمر" و"تجوجى" و"أثيونجو" وكثيرون غيرهم، من الأقباء والثوريين المتحررين من النزعة الاستعمارية.

والأفارقة هم المقاتلون الأعلى قيمة والأقل حظاً فى الجنس البشرى: فعلاوة على مواجهتهم لظروف بيئية هى الأصعب والأوعر على الكرة الأرضية بخلق "الإنسانى الحر" البدائى مع الهجرات، كان عليهم أيضاً تحمل كارثة الاستعمار والترحيل وتدمير مسيراتهم الحضارية، وأخيراً الإهمال الإجرامى؛ فبدلاً من تعويضهم ومباركتهم تركناهم فى أسوأ الأحوال بعد

انتزاع ثروتهم، فى ديون تعجيزية وفى الجوع/العطش وفى الفقر السافر وفى المرض/القدر وعدم القدرة على الدخول إلى مستقبل تطور الجنس البشرى. حرمان من الدخول إلى المستقبل ثم تقنينه من خارج إفريقيا.

ولد الأديب البرتغالى من جديد مع "كامويش" متمسًا بانتمائه لما بعد الاستعمار، لأول مرة وللمرة الوحيدة فى أوروبا؛ فقد كان بالفعل حديثًا ويمضى نحو المستقبل. ولكن الأديب البرتغالى ولد من جديد على نحو "ما بعد استعماري"، وذلك بطريقة مزدوجة. فقد تواكبت الملحمة الحديثة للقصيدة البرتغالية مع العمل غير العادى - غير المعروف فى إيطاليا والمذكور قليلاً فى أوروبا - "فرناو منديس بينتو": "الحج"، الذى نشر متأخرًا فى عام ١٦١٤، أى بعد ثلاثين عامًا من موت المؤلف. هذه السخرية العظيمة من العوالم والمغامرات تعتبر الوجه الآخر من العملة مقارنة برأس الأعمال الملحمية البرتغالية. وهو محيط عالمى حقيقى - من اليابان وحتى البرتغال - يضم القصص وصروف الدهر وملماته، نص مفعم وماجن، صعلوكى منتهك للمقدسات، ملء باللصوص والقراصنة والمحتملين، والتجار والرهبان، والمغامرين والمنافقين، وكلهم مشدودون إلى الثراء السهل وحده، ملء به هو: فرناو نفسه، الذى يروى أنه أكل كفرو (الكفرو ليس عنزة إفريقية وإنما كائن بشرى من قبائل البانتو فى جنوب شرق إفريقيا).

والأديب الإيبانى ينتمى إلى ما بعد الاستعمار، لأن من خلاله وُلد فى النهاية أول أديب "عالمى" متحرر من النزعة الاستعمارية، ذلك هو الأديب الإيبانوأمرىكى. وهو أديب عالمى لأنه أصبح بسرعة وخلال عقود قليلة إرثًا حرًا لجميع العوالم، ولكنه يواكب تراثًا طويلًا عمره ثلاثة آلاف سنة من الحضارة الأدبية الأوروبية التى فرضت نفسها قدوة وعالمية. وهو أديب عالمى أيضًا لأنه بيّن لأول مرة ما المقصود بمصطلح "عالم من عوالم": أمة - قارية تعددية ومهجنة.

ويسير الأدبان الناطقان بالبرتغالية والإسبانية إلى الأمام منذ زمن نحو مستقبل العوالم، يفتحان الطريق بشباب وشرعية. ولم يُعترف بهما، بل لوثتهما ما تسمى بـ "الأسطورة السوداء" وهي اختراع وإنتاج مشترك أنجلو فرنسى، تتهم الأمم الإيبيرية بأنها قوى استعمارية ووحشية وضارية ومدمرة وجشعة و"غير متحضرة".

أحد الآباء "المستشرقين" للديمقراطية الإنجليزية فى الولايات المتحدة، "بنيامين فرانكلين"، والذي وصفه "كارليل" بأنه "الأب لجميع الأمريكين"، كتب عام ١٧٥١م: "عدد الأشخاص البيض حقاً فى العالم صغير جداً نسبياً. إفريقيا كلها سوداء أو داكنة، [...] وأيضاً أمريكا كلها (بغض النظر عن الوافدين الجدد). وفى أوروبا الإسبان والإيطاليون والفرنسيون والروس والسويديون لديهم ما نسميه نحن عادة بلون البشرة الداكن. الألمان أيضاً داكنون، استثناء من الساكسون الذى يشكلون مع الإنجليز القسم الأعظم من الشعوب البيضاء على وجه الأرض. أود لو أن عددهم كان أكبر". (١٠)

هذه الأفكار الأنجلوساكسونية المتطرفة الصريحة كونها السيد فرانكلين قبل أن يصبح تنويرياً، أى فى سن دون الخامسة والأربعين.

ومع السيد فرانكلين ننقل إلى المسار المختلف الذى يسجل أيضاً المحطة الثانية لأحداثنا التاريخية التدريجية، الاستعمارية البريطانية، والتي نضع إلى جوارها النزعة الاستعمارية الفرنسية أيضاً. فكلاهما انطلق عقب النزعة الاستعمارية الإيبيرية، ولكنهما قاما ببناء الإمبراطوريتين الكبيرتين واللتين كانتا تفخران دائماً بأنهما "حديثتان" و"تاضجتان" ووصلتا إلى كمالهما الطويل القيم فى القرن التاسع عشر ولم تقتصر حياتهما بشكل تعيس على القرن السادس عشر.

وفى الوقت نفسه فنحن لدينا علاقة مع الأمتين اللتين تم اعتبارهما وفرضهما باعتبارهما ممثلتا أوروبا فى مهمة نشر الحضارة. لقد أسست بريطانيا العظمى وعبرت أقصى تعبير عن "الثقافة الإمبريالية" الحديثة لأوروبا. والمفكرون الإمبرياليون للمملكة المتحدة - كما بين لنا إدوارد سعيد - تصوروا (واقفوا بتصوراتهم) أن إمبراطوريتهم الجديدة قد تتجاوز روما والآخرين جميعاً فى التاريخ، وكلها بربرية مغتصبة، وحملاًها "أخوة الإنسان الأبيض" الذى حمل الحضارة إلى الشعوب المتوحشة البدائية^(٥) وحكمها بالنظام والعدل. ثم تنازلت عن هذا للأمريكان (عام ١٨٩٨ وذلك بمناسبة محاربتها "إسبانيا" لغزوها "الفلبين"): أولئك المستعمرون السابقون الذين استطاعوا السيطرة على القرن التالى والقرون التى تليه بنص كلمات "كيلنج".^(١١)

وفى المقام الثانى "فرنسا" الرقيقة، الأرض شديدة المسيحية لمُنظّر السيطرة الإستعمارية "الحقيقية"، جلالة الملك "فرانسوا" الأول، الذى حل عقدة "بورجيا" فى معاهدة "تورديلاس" المشبوهة، وهو حامى "جوفانى دا فيراتسانو" و"جاك كارتية"، ومنشئ "الكوليج دو فرانس". "فرنسا" التى ابتدعت التنوير والثورة البرجوازية، مهد الحداثة الحقيقية وذروتها، طبقاً لما تسهب فى وصفه الكتب المدرسية الأوروبية.

^(٥) من أسف أن هذه الأيديولوجية الإستعمارية صارت هى نفسها شعاراً يتبناه بعض المثقفين "الكوزموبوليتانيين" من بين ظهرانينا (المتعصبين للحضارة الغربية باعتبارها "مثلاً أعلى" لسائر الحضارات): انظر على سبيل المثال ما دعاه "توفيق الحكيم" فى روايته: "يوميات نائب فى الأرياف" "جريمة البداوة" فى مقابل "جريمة الحضارة"، كذلك التى تستخدم المدافع الرشاشة فى "شيكاغو". وهو ما كان يطلق عليه صديقنا الراحل المهندس "حسن فتحي" الاستعمار الذاتى. (المراجع)

وقد تمت تصفية الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين بالحروب الأخيرة التي كانت متوسطة بالتحديد، في الجزائر وقبرص والسويس، وهذه كانت فيها الأمتان المستيرتان جدًّا جنبًا إلى جنب ضد ما يسمى بالقومية العربية.^(١٢)

وكما أنهما قامتا ببناء الإمبراطوريات الاستعمارية الأحدث والأكثر امتدادًا واتساعًا - فالاستعماريتان البلجيكية والهولندية واللذان كانتا متشابهتين على نحو واسع لم يخلقا إمبراطوريات، وإنما "ثقافة إمبريالية" حقيقية؛ فقد أنتجا أيضًا كرة ثلجية ضخمة هي "نظرية ما بعد الاستعمار" التي تحتل اليوم أذهان كثير من المفكرين والأكاديميين الأوروبيين والأمريكيين والأفارقة والآسيويين والأستراليين.

يتعلق الأمر بلا شك بجدل حضارى عظيم ومشرف، ولكنه يميل إلى تعميم القوالب الأصلية للتحرر من النزعة الاستعمارية للإمبراطوريات الإيبيرية السابقة، وفي الوقت نفسه فهي نظرية تشهد كيف أن "ما بعد الاستعمار" البريطانى والفرنسى يتحرك على مسار مختلف عن البرتغالية والإسبانية، وعلى أن المسألة على أية حال لم يتم حلها بعد ولا تزال مفتوحة فى وقتنا الحاضر. حقيقى أن الولايات المتحدة هي الوريث "الطبيعى" لبريطانيا العظمى وفرنسا الإمبرياليتين المستيرتين بينما أمريكا اللاتينية وإفريقيا هما المستقبل لما هو حر إنسانياً، المستقبل الذى يتعرض حالياً للذل وللقهر.

من المهم أن نوضح بجلاء وتركيز أن الأدبين المتحضرين للحدائثة الأوروبية الحقيقية لا يبذوان متكاملين مع الآداب "الوليدة" كما فى الحالة البرتغالية والإسبانية، إلا ما كان من خلال الهجرة. ومع صعود الإمبريالية الكونية الأمريكية وعولمة الأسواق والمسافة التى تقصّر دائماً بين الشمال

والجنوب يبدو أن كُتَّاب التخلُّص من النزعة الاستعمارية الأفارقة والآسيويين والكُتَّاب والفنانين السود ومن الأقليات الأخرى غير الأمريكية الشمالية يلعبون دور المقاومة والمعارضة السياسية وفي بعض الحالات أيضًا المقاومة اللغوية، كما هو الحال في "الخيار العربي" لبعض الكُتَّاب المغاربة (الناطقين بالفرنسية) أو في "الخيار كيكويو" للكينى "تجوجي وأثونجو" (الناطقين بالإنجليزية).

وبينما تعبر الثقافتان الأدبيتان البرتغالية والإسبانية عن مضامين وقيم جديدة ومتحررة إزاء العوالم كلها، وذلك إضافة إلى تحررها من "النزعة الاستعمارية، إذ بالثقافتين الناطقتين بالفرنسية والإنجليزية تتجادلان في عملية غير مكتملة لما بعد الاستعمار، أو هما، على النقيض من سابقتيهما، تستحيلان إلى "قوة استعمارية وإمبريالية جديدة" تضمن لها السلطة والشهرة والنجاح العالمي، ولكن ليس من أجل أن تصبح عالمًا جديدًا من بين العوالم.

أما آداب "الأنثيل" و"الكاريبي" - من الناطقين بالفرنسية: "سيزار" و"جليسان" و"ماريس كونديه" إلى الناطقين بالإنجليزية: و"كوت" و"براثويت" فضلًا عن الكوبيين فهي لا تنحاز نهائيًا إلى جانب "أمريكتنا" لمارتي و"العنصر الكوني الجديد" لفاكونسيلوس". وهي تعبر عن الحيوية الوثابة نحو "حضارة هجين" أو ثقافة عالمية للمستقبل تجسدها هذه الآداب وتريد أن تتجاوز الإمبراطورية الثقافية الأوروبية التي أصبحت الآن بعيدة بالفعل، أو تلك الأمريكية الشمالية التي تعولم بطريقة غير تهجينية العوالم كلها في عالم واحد وحيد يهدد ويتوعد كأنه "ثعبان ضخمة" يجثم على الخليج الكاريبي بالكامل.

والزوج الثالث، المتأخر والشارد، من الأمم الأوروبية المستعمرة يتكون من "إيطاليا" و"ألمانيا"، اللتين لحقتا بالغزوات الإمبريالية^(١٣) متأخرتين،

وبملاحظة ومطاردة من داخل أوروبا نفسها: من "ألبانيا" إلى "اليونان"، ومن "النمسا" إلى "بولندا" وكل منطقة أوروبا الوسطى.

وقد أزلت "ألمانيا" و"إيطاليا" حتى اليوم كل ماضيها الاستعماري، حتى إنه يبدو أنهما يجهلان أن لديهما مشكلة "ما بعد استعمارية" لا بد عليهما من مواجهتها.⁽¹⁴⁾ وكتاب العوالم الأخرى الذين يعبرون بلغتيهما هم مهاجرو العقود الأخيرة للقرن العشرين و"الأقليات" من الإمبراطوريات الوسطى القديمة الناطقة باللغة الألمانية. ويبدو أن "إيطاليا" و"ألمانيا" ليس باستطاعتها حتى الآن التشكيك في أن ما نسميه في أفضل الأحوال "مشكلة المجتمعات متعددة الثقافات" هي القمة الطافية، التي تثير القلق والتي تُعدُّ تهديدًا و/أو وبالأحرى، لجيل جديد يسمى "مشكلة ما بعد الاستعمار للأمم الأوروبية الإمبريالية"، والتي كانت دائمًا استعمارية.

وأخيرًا في ذيل تصنيف الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية نجد "وحشين" حقيقيين بالمعنى الحرفي للكلمة سواء المعنى الحديث أو القديم. ومصيرهما وبطرائق مختلفة بشدة ينتمي إلى المستقبل أكثر من انتمائه إلى الماضي.

أتحدث عن "الولايات المتحدة الأمريكية": المستعمرة الإنجليزية السابقة والتي أصبحت خلال قرنين من الزمان مركز العالم الاستعماري. وهي تحمل بداخلها الإحساس الأصيل المستمر لعذاب ما بعد الاستعمار، في الأحداث متعددة الأعراق وفي التكوين التهجيري لوجودها من الأصل، والذي لم يحل مع مرور الزمن في تحقيق النموذج التصالحي لما يسمى «بوثقة الانصهار» melting pot، وهو النموذج المنفصل الذي تفخر به الولايات المتحدة. وتتحكم الولايات المتحدة في العوالم دون أن تكون هي نفسها عالمًا متعدد العوالم، وإنما فقط ديمقراطية عنيفة وغير قابلة للتصالح، حيث يعيش عشر السكان تقريبًا في السجن. وهذا العشر ليس مجرد بيان إحصائي ولكنه جزء من

العوامل التي تتكون منها الأمة، الجزء المشوش الذي يتضمن الهندي والزنجي والمهجن واللاتيني.

وأحدث عن "روسيا" التي لا تزال إمبراطورية ضخمة من الأراضي الأوروبية والآسيوية المؤسسة على الرهبة العسكرية. وهي أكبر "أمة - لا أمة" في العالم، من "سان بطرسبرج" إلى "فلاديفستوك". إمبراطورية تتهار ولكنها ترفض، من خلال رأسها القابع في "الكرملين"، أن تعترف بأنها إمبراطورية وترى أنها أمة "كونفيدرالية" متعددة الأعراق.

بالنسبة إلى "لولايات المتحدة الأمريكية" فإن الحاضر والمستقبل يظهر أنهما يخصان الشرطي "الديمقراطي" متعاضم القوة على مستوى الكرة الأرضية، والذي هو في خدمة القوى الاقتصادية المالية العابرة للقوميات. أما بالنسبة "لروسيا" فإن الحاضر والمستقبل يبدو أنهما يخصان إمبراطورية تتجو معتمدة على نفسها، متأخرة بالمقارنة بمسيرة العوالم. أمة لها غرابة خاصة، فهي أوروبية وتشتمل على أراضى آسيوية واسعة، وهي أراض صامته مغتربة، باستثناء القوقاز المتمرد والمتأسلم، والمستشهد تحت بصر الحلف الأطلسي.

وأنا أرى هاتين الإمبراطوريتين "وحشيتين"، الأولى لحاضرها ومستقبلها "الإنساني" العالمي (كما وصفها "ناعوم تشومسكي" بأنها "الإنسانية العسكرية الجديدة" بعد الحرب ضد "صربيا" من أجل "كوسوفا"، إنها النسخة الأمريكية المسلحة للاتجاه الفلسفي الكوني لأوروبا وربما بمصيره نفسه أيضاً) الذي يمثل خطراً على الجميع، والثانية لتأخرها السرطاني العسير.

وسوف تتساءلون هنا: وماذا عن الأمم الأوروبية الأخرى؟ الأمم الصغيرة التي لم تنشئ يوماً أية إمبراطوريات استعمارية؟ كيف يمكن أن ندرسها في إطار هذا "التاريخ المختلف"؟

اعتقد أن هذه الأمم أكدت نفسها كإمبراطوريات صغيرة استعمارية إقليمية داخل أوروبا - مثل "المجر العظمى" و"صربيا العظمى"... إلخ، أو صارت حتى لا تكون ضحية لهذه الإمبراطوريات مثل: "أيرلندا" و"مالطا" و"فنلندا" و"اليونان" و"أيسلندا"^(١٥) و"سلوفاكيا". على أية حال يبدو أنها جميعًا زرعت صورتها الخاصة باعتبارها "أمة أوروبية" خاصة من خلال اللغة والأدب. والأمة تعنى: هوية مستقلة. وأوروبية تعنى: داخل حضارة واسعة مشتركة ومتشابهة. ودرس "دجوريشنكوى" يعود ليفرض نفسه نموذجًا أو فى القليل درسًا مختلفًا.

ربما أمكن فهم التاريخ الأوروبى - الوجه الآخر المعكوس للتاريخ الإنسانى والمثالى الذى تربينا عليه من خلال مفاهيم مثل: الحرية والفرد والديمقراطية والروح - على أنه تاريخ لصراعات استعمارية وبيوتوبيات إنسانية ومثالية، أحيانًا كريمة وأحيانًا ملموسة: مثل صراعات الأمم الصغيرة غير الاستعمارية، وبالتحديد فى اللحظات التحررية عندما كان عليها أن تحارب من أجل الاستقلال عن الأمم الإمبريالية. ولكنه فوق أى اعتبار تاريخ لغزوات توسعية وللسيطرة على الشعوب الأخرى، منذ غزو شعوب "الكورجان" (والتي فضلت الأكاديمية الأوروبية تسميتها بالهند أوروبية و/ أو الأريانية، كما بين لنا "م. بيرنال" و"م. جيمبوتاس") اعتبارًا من الألفية الخامسة قبل الميلاد وحتى اليوم.^(١٦)

وربما - فيما يتعلق بالشعوب السلافية والروس فى الشمال والبلقانيين فى الجنوب - يمكن أيضًا أن نضيف إلى دعوهم بأنه قد تمت التضحية بهم على نحو غامض لإنقاذ أوروبا، فيما يتعلق بغزوات الرُّحل القادمين من السهول الآسيوية القاحلة فى الشمال، وفى الجنوب فى مواجهة الأتراك، وأنهم بهذا شاركوا فى التآلق الغربى للحضارة الأوروبية، كما يمكن أن

نضيف إلى هذه الدعوى التى تتسم بالنتهمين الذاتى دعوى أخرى من جانب جميع الشعوب المستعمرة من جانب الأمم الإمبريالية الأوروبية بأن هذه الشعوب قد مكنت أوروبا الاستعمارية من "التقدم" والثروة والهيمنة وأن من حقها أن تحصل فى المقابل على تعويض مناسب.

ولو قرأنا هذه الدعاوى معًا بالمنظور الكاشف للتخلص من النزعة الاستعمارية فإن هذين الخطابين يتكاملان ويبرران أحدهما الآخر، حتى وإن كان الخطاب السلفى قد تم النظر إليه على أنه نموذج نمطى متكرر أساسى للدعاية ذات الطابع القومى.

وأخيرًا، فإن هذا الاقتراح التقريبى "لتاريخ مختلف" للثقافات الأدبية الأوروبية فى علاقاتها المختلفة بالعوالم التى كانت مستعمرة منها فى البداية يحدد أيضًا الإطار لما أسميته عمداً "الأدب الجديد للعوالم" وهو الأدب الذى يتدفق من الأمريكتين إلى إفريقيا وأستراليا. فهل هناك "منسيات" ظلت خارج هذا الأدب؟ أو من الصعب ضمها إليه؟ المراكز الإمبريالية الكبرى للمقاومة الآسيوية: بعض الأمم الإسلامية، ولكن أيضًا فوق كل هذا الصين واليابان. هاتان القوتان الإمبرياليتان الأخيرتان فى النصف الثانى من القرن العشرين بدأتا تضعان أمام نفسيهما مسألة المعنى والقيمة فى علاقاتهما بما يسمى بالحضارة الغربية ومع النظام المتسلق للرأسمالية "الديمقراطية".

و"اليابان" - بعد أن جرحها هذا النوع من الاستعمار شديد العنف شديد السرعة والكثافة فى دقائق معدودات، والذى تمثل فى الهجوم الذرى الأمريكى الشمالى: هذه الفكرة جاءتتى من الرقصة التى ظهرت فى الخمسينيات بلا تراث سابق عليها وسميت "بوتو" Butô وكانت بمثابة الرد الفنى المناسب على رعب "إنسانى الطابع" لم نسبر بعد أغواره وآثاره وعواقبه وتنفيذه المجنون، وإزالتة العبثية، قررت "اليابان" أن تتحدى الغرب

فى السباق الاقصادى، وأن تخفى هويتها الخاصة المستعادة (الروح "الكوكورو" Kokoro فى الرواية التى تحمل هذا الاسم "لناتسومى سوزيكى") لى تتقدها من عيوننا الجارحة، والعكس صحيح، أى لى تشتعل النظرة إلينا، نحن الأوروبيين، مع تغطيتها بالكاميرات والابتسامات. لقد غير اليابانيون مسار نظرتنا "الاستعمارية" التى كانت مركزة على هويتهم - روحهم مع قلب نظرتهم مسبقاً علينا - وهى استراتيجية مضادة للاستعمار تستحق الإعجاب وتحقق الانتصار.

أما "الصين" الضخمة فهى على العكس ظلت متأخرة فى مرحلة انتقالية طويلة للانتقال من "الماوية" ومما سبقها من جمود إمبريالى لألف عام، ولكن مفكرها الأكثر حرية يطورون الآن فكراً شديداً الافتتاح حول مشكلة العلاقات مع الحضارة الإمبريالية الغربية ومع تراثهم الخاص بهم. والنقاد والأدباء الصينيون (وخاصة فى الأدب المقارن) وهم يتحدثون عن التحديث فى "الصين" كمعنى وقيمة للقاء مع أوروبا، مكافئاً لما كان يعنى بالنسبة إلى الحضارات الأخرى كارثة الاستعمار، يقترحون فى هذا السياق رؤية جماعية للعالم بلا "مركز إمبريالى".^(*)(١٧)

(*) كانت الصين حتى مشارف الثمانينيات من القرن الماضى لا تعترف بالأدب المقارن، وتتنظر إليه على أنه فرع علمى "كوزموبوليتانى"، مما جعل الراحل "رينيه إيتامبل"، أستاذ الأدب المقارن فى جامعة باريس، يعتب عليها ذلك الموقف فى مقال له نشر فى أثناء السبعينيات فى صحيفة "لوموند" الفرنسية. ولكن ما لبثت "الصين" أن اعترفت بعد ذلك بهذا التخصص، وقد حضر مؤتمر الجمعية الدولية للأدب المقارن الذى عقد فى "السوربون" عام ١٩٨٥ الدكتور "زهوانج" من جامعة "بكين"، بوصفه رئيساً للجمعية الصينية للأدب المقارن. وقد نظم فى أوائل التسعينيات مؤتمراً دولياً لجمعية حضره عدد كبير من المقارنين الغربيين، وإن كنت لا أعرف إذا كان مقارن عربى قد=

بعض الأمم الإسلامية و"الصين" و"كوريا" و"اليابان" وأمم آسيوية أخرى، مثل "الهند" متعددة اللغات والناطقة بالإنجليزية، كلها عوالم تحمل معها آدابها الخاصة القديمة، تستعمل لغاتها وتحفظها، وتضيف إليها في الوقت نفسه في جدلية متحركة، ولها آداب جديدة ولدت من خبرة التحديث/الاستعمار/الهجرة من جانب أوروبا ونحوها. وبهذا فهي تدخل بقديمها في حوار العوالم.

في هذه الحالات، فإن ما أسميته "أدب العوالم" لم يعد من الممكن تمثيله بواسطة تحديث فكرة "الأدب العالمي" الرومانسية ولا حتى بالفكرة الحالية لما يعرف باسم "الأدب الكوني" الذي فرضه التحكم العالمي الموضوع بين يدي الرأسمالية الجديدة الاتصالية المعلوماتية الذي يعامل عناوين الكتب كأنها أسهم في البورصة. هذا هو الأدب العالمي الذي يكتسب وجوده من خلال آليات الربح والسلطة والاتصال الجماهيري، والذي يواكبها ويطيعها في كل مكان. وإلى جانبه وفي مقابله - حتى وإن كانت توجد منطقة متحركة يتقاطعان فيها ويعملان معاً^(١٨) - ينشط أدب العوالم الذي بدأ الحوار الجماعي المستمر، والذي لا ينتهي لمن يقاوم السيطرة ويبدع المستقبل. ويفعل هذا إنسانياً مائة في المائة، دون أن يكون مصدر هذا الأدب رسالة إيديولوجية (ميتافيزيقية) أو أي دعوى مطالبة بالتعويض (علمانية)، بل يفعل هذا لأنه لا بد أن يفعله أحد، ولا بد أن يوجد جزء من الإنساني يعمل من خلال خطاب "يوتوبي" من أجل تحسين الآخرين وإنقاذهم، وإن أمكن، الآخرين جميعاً، من أجل النوع واستحقاقاته. بالمعنى الذي خطر على بالي: الأرض والحرية.

=حضره. على أية حال فقد وجه "زهوانج" الدعوة إلى ولكني لم أتمكن آنذاك من تليبيتها. (المراجع)

الحديث اليوم عن "الأدب العالمي" أعتقد أنه يعنى وجوب مراعاة هذه الخريطة شديدة البساطة، التى تستعين لأسباب تتعلق بالمواعمة باللغة الموحدة للإمبراطورية: أدب كونى يتوازى تمامًا مع السيطرة الثقافية لسوق الفكر الموحد، وأدب للعوالم. وهو محدد بصيغة المفرد، ليس لأنه موحد ومقنن ولكن لأنه يعبر عن قدرة الأدب على أن يترجم ويترجم العوالم، بل أيضًا أن يكون هو ترجمتها: عوالم من لغات وثقافات مختلفة فيما بينها وعوالم من أحلام مفردة وحكايات وأغانٍ وخبرات غير متوقعة. وهو يشكل القدرة على التعبير عن معنى التعددية غير المحدودة للخطاب، وعن الاختلاف المحدد والقابل للإنقاذ للثقافات التى نقيم حوارًا فيما بينها، والتى تحاول توسيع دائرتها الخاصة حتى تستطيع أن تزد دائمًا ومعًا على سيطرة السوق العالمية باللسان "اليوتوبى" القادر على الترجمة.

الهوامش

- (١) أسطورة الأدب الأوروبي (بالإيطالية)، روما، ميلتيمي ١٩٩٩.
- (٢) أفكر في "التاريخ المقارن للأدب باللغات الأوروبية" وهو عمل كبير يجرى الإعداد له، وتنفذه "الجمعية الدولية للأدب المقارن" (AILC/ICLA) كما أفكر في "تواريخ عالمية" أخرى كتبها علماء المقارنة من جميع أنحاء العالم في أونة أحدث. وقد قدمت "فرانكا سينيوبولي" عرضًا ناقدًا لها في فصل يحمل عنوان "التاريخ المقارن للأدب" في: "نيشي" (تحرير) "مدخل إلى الأدب المقارن"، (باللغة الإيطالية) ميلانو، ب. موندادوري ١٩٩٩.
- (٣) في الفصل الرابع عشر المخصص "للكلاسيكية" ولتكوين القانون الأدبي من القدم إلى العصر الحديث يختتم "كورتيسوس" حديثه بـ"فكر "لاربو" عام ١٩٢٥، وهو القائل بأنه: "يوجد اختلاف عميق بين الخريطة السياسية والخريطة الفكرية للعالم. فالأولى تغير وجهها مرة كل خمسين سنة، وتغطيها تقسيمات اعتباطية واهية، وأقوى مراكز تأثير فيها متغيرة للغاية. بينما تتغير الخريطة الفكرية على العكس من ذلك ببطء شديد، كما أن محاورها غالبًا ما تكون في غاية الاستقرار، لأنها توجد هي بذاتها على خريطة فقهاء اللغة، ولا تتضمن وجود دول أو قوى، وإنما مناطق لغوية وحسب... وهناك منطقة أساسية ثلاثية: الفرنسية - الألمانية - الإيطالية، وحزام من المناطق الخارجية لها علامات حقيقية ملموسة مثل: الإسكندنافية والسلافية والرومانية واليونانية والإسبانية والقطالونية والبرتغالية والإنجليزية، وأهمها من حيث القدم أو من حيث دوامها الطويل عبر الأطلسي: الإسبانية والإنجليزية"، في: "الأدب الأوروبي والعصور الوسطى اللاتينية" (١٩٨٤) وله ترجمة إيطالية منشورة في "فلورنسا" عام ١٩٩٢

ص ٣٠٠-٣٠١. وفي أهم أعمال "أوروباخ" كتابه "المحاكاة" *Mimesis* الصادر عام ١٩٤٦ يدور النموذج الأوروبي الغربي بطريقة مثالية على مائدة التاريخ، من العصور القديمة، هوميروس وبترونيو وثاتشيتو وإنجيل مرقس إلى الآداب الخمسة التي تسمى "تجوم الغرب" وحتى فيرجينيا وولف".

(٤) نجوريشين - أ. نيشي، "البحر المتوسط. شبكة أدبية"، (باللغة الإيطالية) روما، بولتروني ٢٠٠٠. وعن "نجوريشين" ينبغي أن نتذكر أيضا "تظرية المقارنات الأدبية" براتسلاف، ١٩٨٤ و"ما الأدب العالمي؟" براتسلاف، فيدافاستوفو أوبزور ١٩٩٢.

(٥) انظر بهذا الخصوص للدراسات التي ضمتها كتيبي الأخيرة الصادرة بالإيطالية: أربعة حسابات، روما، دار سالوستيانا ١٩٩٨، وخواجات مهجنون ومهاجرون سريون ومتمردون، روما، دار ميلتيمي ١٩٩٨، وشاعريات العوالم، روما، دار ميلتيمي ١٩٩٩. وكان بالفعل حديثاً عن شاعرية التخلص من الاستعمارية الأوروبية، وهو الذي دفع "نجوريشين" إلى طلب التعاون معي، كما يعلن هو بنفسه في مقاله "مقاربات" المنشور في "البحر المتوسط" والذي سبق ذكره. وقد حملني الهم البحثي نفسه إلى اللقاء مع المصري "مجدى يوسف" والكوي "ريتامار" والكوري "تشو دونج إيل" والصينية "يو دائوي"، والكاميروني "بول داكبو"، والهايتي "لويس فيليب داليمبير" والبرازيلي "جوليو سيزار مونتيرو" والصربي "بردرج ستانيوفيتش" وآخرون كثر من الأصدقاء في مختلف العوالم.

(٦) بخلاف أنها مختلفة عن نموذج التواريخ القومية المعتادة أو لتلك التواريخ (ما بعد الحدائية؟) المضطربة غير العقلانية لنوع من الخليط غير المتجانس من النصوص الذي يحتوى على كميات ضخمة من التاريخ ولكنه لا يحتوى

على مؤرخين. ومنها نموذجان أثارا الجدل في "إيطاليا" في العقود الأخيرة من القرن العشرين وهما "المادى والتخيلى" لكل من ل. دى فيديريشيس و"ر. تشيزرائى"، و"الأدب الإيطالى" تأليف "أزور روزا". والطابع الذى يجمعهما بعد عدة سنوات من ظهورهما واستيعابهما أصبح الآن واضحا: المبدأ الفردى التجارى.

(٧) فى الأصل Kairoticamente وكلمة Kairos تشير لدى الإغريق القدماء إلى اللحظة المناسبة للفعل والتدخل، والتي ينبغى التقاطها وهى تمر عابرة. وهو شاب يطير برأس حلقة أمامه ولديه خصلة على العنق. وقد رأيت فى جرينويتش أن الشعار الموجود أمام "كاتى سبارك" رائع الجمال، وهو أحد رموز الإمبراطورية، يمسك خصلة طويلة فى يده، أى أنه أمسك اللحظة المناسبة.

(٨) نص البيان ونصوص أخرى للمؤلف تم نشرها بعد ترجمتها والتعليق عليها بواسطة "أيتورى فيناتسى - أجرو" و"كاترينا بينشرل" فى "ثقافة التهام لحوم البشر" من منشورات مليتيمى (روما) عام ١٩٩٨. ويذكر أنه فى عام ١٩٢٨ ظهرت أيضا رواية "Macunaima" التى تعتبر رواية تفاعلية الثقافة بكل معانى الكلمة لمؤلفها "ماريو دى أندراجيه" Mario de Andrade. وفيما يتعلق بنظرية "قريره" فإن "رايزوفا" كتب فى دراسته "الأدب البرتغالى والناطق بالبرتغالية حول كيفية التغلب على عقدة «الأمة الصغيرة» بواسطة المركزية تفاعلية الأداب"، وذلك فى: "دجوريشين - أ. نيشى: "عالم الاجتماع البرازيلى "جيلبرتو فريره"، وهو يعتمد على تحليل الصفات الثقافية المتطابقة للعملية التاريخية الاجتماعية فى البلاد الناطقة بالبرتغالية، خلق فى بدايات الأربعينيات من القرن العشرين نظرية الاستوائية البرتغالية، ومن ثم أوجد ما يسمى بالجماعة "البرتغالية" الاستوائية. وقد طور افتراضا مؤداه أن

البرتغال خلقت نظامًا واحدًا يجمع أراضيها الإفريقية والآسيوية مع "البرازيل"، وهي التي غزاها الغزاة البرتغاليون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. نظام واحد به العديد من الاختلافات بداخله وخليط من الثقافات. وطبقاً لـ "جيلبرتو فريره" فإن الثقافة واللغة البرتغاليين توحدان وتنظمان هذه الجماعة. وبدراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المختلفة على ضوء العلاقات الاجتماعية والثقافية الموجودة في البلدان الناطقة بالبرتغالية اهتم "فريره" بخصوصية البرتغاليين البيولوجية. وهو يفسر تدخل البرتغاليين في إفريقيا عن طريق البحارة والجنود والتجار والتبشيريين، ثم بعد ذلك بواسطة المستعمرين البرتغاليين بالموصفات الطبيعية وقدرتهم على التواءم مع المناخ الذي لا يتحملة الأوروبيون الآخرون. وهو فضلاً عن ذلك يعتبر النموذج البرازيلي للحضارة البرتغالية الاستوائية نتيجة للاختلاط المتناغم بين الثقافة البرتغالية وثقافة الموطن الأصلي، ويبرز النزعة المسيحية للبرازيل باعتبارها نموذج "الجنس الكوني الجديد" الذي ينبغي أن يصبح الوسيط بين الشرق والغرب في العالم (صفحات ١٤٤-١٤٥).

وفي كتاب لـ "فريره" عنوانه "تفسير البرازيل"، والمترجم في "ميلانو" عام ١٩٥٤م، وجدت النظرية التي تجمع "البرتغال" و"روسيا" في النموذج "مزوج القارة عرقياً وثقافياً": والحقيقة أن كلا الشعبين البرتغالي والإسباني "منتقل بين أوروبا وإفريقيا"، بينما الشعب الروسي انتقل بين أوروبا وآسيا (ص ١٠٢). الفكرة نفسها تناولها "سيرجو بوارك دي هولندا" في الكتاب الشهير Raizes do Brazil (جنور البرازيل - المراجع)، ريو دي جانيرو، منشورات جوزيه أولمبيو، ١٩٨٩ (الطبعة الحادية والعشرين).

(٩) النقد الأمريكي اللاتيني عن حق والذي أحده في الخط الكوبي "مارتي-كاربينتيه-جيفارا-ريمار" بالإضافة إلى شخصيات شهيرة أخرى، دعم دائماً

هذه الفرضية. انظر بصفة خاصة عن "روبرتوف. ريتامار"، Para el perfil definitivo del hombre (نحو معلم محدد للإنسان - المراجع)، هافانا، الأدبيات والمعارف الكوبانية، ١٩٩٥ [١٩٨١] وكذلك للمؤلف نفسه: نحو نظرية للأدب الإسباني الأمريكي، روما، ميلتيمي ١٩٩٩، وكذلك "الأمريكي اللاتيني" Latinoamericana، ميلانو، فيلترينيللي ١٩٩٣ لإرنستو تشي جيفارا. ففي يوم عيد ميلاده الرابع والعشرين والذي تم الاحتفال به في مصحة جذام "سان باولو" في "بيرو"، كان الطبيب الشاب الذي عبر أمريكا الكبرى على دراجته النارية يعلن في خطاب شكره: "من المكسيك" وحتى مضيق ماجلان تشكل نوعًا واحدًا مهجنًا". وكتب روزالبا كامبا عام ١٩٨٢ في موضوع الهوية اللاتينية الأمريكية كتابه القيم "الهوية والقناع": America Latina: l'identita e la maschera ثم أعيد إصداره بدار نشر ميلتيمي بروما (٢٠٠٠).

(١٠) يتعلق الأمر بكتاب "ملاحظات حول زيادة البشر وانتشار السكان في ربوع بلادنا" Observations Concerning the Increase of Mankind and the peopling of our Countries المذكور في D. Cohn-Bendit و Th. Schmid في Patria Babilonia روما- نابولي، تيوريا ١٩٩٤، ص ٩٦.

(١١) من البديهي أن أعود في ذلك إلى "مدائح كيلنج الشهيرة": عبء الرجل الأبيض "The Whit Man's Burden" التي كتبت عام ١٨٩٨ تكريمًا للولايات المتحدة التي كانت تحارب "إسبانيا" لكي تصبح القوة الإمبريالية الجديدة على المحورين العالميين الخاصين بها الهادي والأطنطي (في الفلبين وجزر الكاريبي مع تركيز خاص على كوبا)، بعد إنجلترا المتسيدة، والتي رأت مستقبلها بهذه الطريقة: كإنقاذ لنوعها وتراثها الإمبريالي الذي لا ينتهي.

(١٢) بطريقة دموية تركت البرتغال آخر مستعمراتها الإفريقية (أنجولا وموزمبيق) فقط في عام ١٩٧٥، وذلك عقب سقوط نظام "سالازار" الفاشي

وأمام ما يسمى بـ "ثورة القرنفل". وهذا يعنى مرة أخرى أن مصير المدينة الكبرى معقود على مصير الجماعة الإمبريالية. عدا هذا فالرواية المضادة للنزعة الاستعمارية البرتغالية راجت رواجًا كبيرًا بصفة خاصة فى السبعينيات وكانت أفضل الروايات التى يقدرها الجمهور الوطنى.

(١٣) فيما يتعلق بالمغامرة الإثيوبية كتب "أنجلو ديل بوكا" Angelo del Boca أنه "تم التفكير فيها وتنفيذها فى عصر بدأت فيه القوى الرأسمالية بالفعل فى طرح المسألة، تحت ضغط الحركات القومية الإفريقية والآسيوية، بشأن كيفية تصفية إمبراطورياتها دون خسائر أو أضرار أكثر من اللازم" فى "إفريقيا فى ضمير الإيطاليين"، (بالإيطالية) روما-بارى ١٩٩٢، ص ١١٢.

(١٤) انظر أيضًا "ديل بوكا"، "الجدل الناقص حول الإمبريالية"، فى "مرجع سبق ذكره ص ١١١-١٢٧، انظر كذلك دراساتي الإفريقية فى "شاعريات العالم" (مرجع سابق)، حيث أعدت تناول المسألة من جذورها كما يقال. إن إزالة التاريخ الاستعماري الإيطالي من جانب الثقافة الإيطالية قد تم موازنتها لحسن الحظ بواسطة بعض الأعمال التى قدمها مستعمروها السابقون. وأقصد بذلك فيلمين "ممنوعين" فى إيطاليا وهما الفيلم "عمر المختار أسد الصحراء" من إنتاج عام ١٩٧٩م الذى أخرجه مصطفى العقاد السورى الأصل الأمريكى الجنسية وتم إنتاجه بأموال ليبية، و"أدوا" إنتاج عام ١٩٩٩ من إخراج الإثيوبى "مال جيرىما"، الذى يعيش منذ عام ١٩٦٧ فى الولايات المتحدة الأمريكية. والفيلم الذى يحكى هزيمة على يد جيش مينليك عام ١٨٩٦ من خلال بحث يثير الإعجاب عن أصوات التراث، وقد تم تقديمه فى مهرجان البندقية السينمائى السادس والخمسين فى دار مجهولة للسينما فى شارع لا يمكن العثور عليه ثم اختفى بعد ذلك. وتستحق قصة الفيلم الأول بعض التعليق: فهو يبدو فيلمًا مبنياً طبقاً للقوانين الاستعراضية - ممثلون

مشهورون ("أنطوني كوين" فى دور "عمر المختار" و"أوليفر ريد" فى دور "جراتسيانى" و"رود شنيجر" فى دور "موسوليني" و"راف فاللوني" فى دور ضابط إيطالى مخلص للنظام وجاستون موسكين من أقطاب الفاشية فى مهمة استعمارية... إلخ) ومجاميع ضخمة فى مشاهد طويلة ومعقدة للحرب، ولكن له نكهة ملحمية - تحرر من النزعة الاستعمارية جدير بالاحترام ودقة وثائقية معتبرة. وفور خروجه تم عرضه - كما يحكى "ديل بوكا" فى الفقرة الختامية: "من يخاف من عمر؟" فى الكتاب السابق ذكره - فى جميع أنحاء العالم ولكن تم منع توزيعه فى إيطاليا. فوكيل وزارة الخارجية (الإيطالية - المراجع) فى ذلك الوقت "رافائيل كوستا" قد اعتبر - حسبما روته مجلة "بانوراما" الأسبوعية - أن الفيلم "يجرح شرف الجيش الإيطالى". ومن الواضح أن وكيل الخارجية لم يلق نظرة على الفيلم الذى يقدم فى الواقع انتباهًا دائمًا دقيقًا وصريحًا للتمييز بين المناورات الفاشية (الشريرة والقاسية) والجيش الإيطالى (المكون من رجال مخلصين يفهمون العدو المتمرد). وقد أخبرنا أنجلو ديل بوكا مرة أخرى مؤخرًا أن "أسد الصحراء" (الزعيم الأسطورى للمقاومة الليبية الذى تم إعدامه بعد محاكمة هزلية عام ١٩٣١) تم منعه فى إيطاليا بفيتو صريح. وحتى اليوم لا يمكن عرض الفيلم إلا بعد الحصول على تصريح من المباحث العامة الإيطالية Digos (غازات موسوليني، روما، الناشر المتحدون، ١٩٩٦، ص ٣٩، التذييل ٧٣).

(١٥) العقدة التاريخية بين الأدب الأيسلندى (مستعمرة) والأدب القارية الإسكندنافية ("الدنمارك" و"النرويج" الاستعماريين) تمثل الحالة الأولى لجماعة تفاعلية الثقافة فى أوروبا، حيث أدب المستعمرة هو الذى "يؤسس" آداب الدول الاستعمارية، فقد أسست القصائد الأيسلندية للشعراء "الدافنين" و"الإيدا" القديمة التى وضعت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بالإضافة إلى "الإيدا الصوتية" التى ألقت نحو عام ١٢٢٠ للأدب الشمالية كلها.

(١٦) هذه النبذة عن أحداث طويلة جداً "أيدولوجية" أوروبية تعود إلى عشقي، اليوتوبي العكسي - ولكن ليس لهذا وحده - لاكتشافات وأفكار عالمة الآثار "ماريا جيمبوتاس". فرضية "أوروبا القديمة" ما قبل الكورجانية المؤسسة على "مجتمع تبادلي" وسلمي، غير أموية ولكن متساوية الأجناس، حتى وإن كانت تهديها فكرة (ولهذا بالتحديد) أنثوية عن العالم، وهي فكرة أختارها ويمكن أن تمثل "قيمة مضافة" حقيقية ملموسة لخطابي عن التخلّص من النزعة الاستعمارية الأوروبية. انظر بصفة خاصة "إلهات وآلهة أوروبا القديمة من ٧٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ قبل الميلاد" جامعة كاليفورنيا برس، بيركلي - لوس أنجلوس ١٩٨٢. وهناك تصوير جزئي جيد للاكتشافات والأفكار الخاصة بالأنثوية "جيمبوتاس"، ترتبط بالثقافة النسوية والفكر المركّب يقدمه "ر. إيزلر" في "الكأس والسيف" [١٩٨٧] وله ترجمة إيطالية، بارما، براتيكة ١٩٩٦. وفيما يتعلق "بمارتن بيرنال" فإنني أرجع إلى كتابه الشهير والذي نوقش طويلاً "أثينا السوداء" [١٩٨٧]، وله ترجمة إيطالية، بارما براتيكة ١٩٩١ الجزء الأول.

(١٧) أحيل إلى أعمال الزميلين والصديقين المقارنين في جامعة بكين "يوى داليون" و"وانج ننج". للأولى انظر دراسة حول "دولية وقومية الأدب المقارن" إعداد "أرماندو نيشي" و"فرانكا سينوبولي"، روما، ميلتيمي ١٩٩٧، وللتاني انظر "تخليص الصين من النزعة الاستعمارية؟ نظرية ما بعد الاستعمار والثقافة الصينية" في كراسات جايا Gaia الجزء الثامن ١١، ١٩٩٧، ص ٤٣: ٥٤ و"ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار والعولمة: منظور صيني" في المجلة الإيطالية للأدب المقارن، الجزء التاسع ١٢، ١٩٩٨ ص ٤٩: ٦٠.

(١٨) لنقدم بعض الأمثلة ونأخذها من حشد الكتاب المهاجرين أصحاب الشهرة

الدولية: "تابوكوف" يسوق على أنه يكاد يكون كاتبًا بورنوجرافيا، و"كونديرا" يدين بنجاحه غير المتوقع وغير العادى فى النشر فى إيطاليا إلى مسلسل تليفزيونى عن الأقسام وراقصات الباليه ذكر فيه اسمه، و"رشدى" يملأ الصحف ووسائل الإعلام منذ الحكم بإعدامه من جانب النظام الأصولى الإسلامى الإيرانى بسبب روايته "آيات شيطانية" [وهى، ونقولها فيما بيننا، عمل ليس من المؤكد أنه سهل أو سلس أو ممتع القراءة]، و"كادرايه" يطرح نفسه على أنه محرر ورئيس وملك "ألبانيا"، رغم أنه يعيش بعيدا عنها فى باريس، و"فارجاس يوزا" الذى يريد (كان يريد) أن يصبح رئيسا لبيرو بموافقة من وزارة الخارجية الأمريكية... إلخ.

استراحة بين الفصلين

فيم يفيد هذا النوع من التاريخ المختلف للأدب الأوروبية والمهجنة؟
وماذا تعنى بعثرة التاريخ والجغرافيا؟

هذا المصطلح "بعثرة" قاله "بيناك" Pennac، أو بالأحرى مترجمته
الإيطالية.

حسنًا، أجب عن السؤال التالي:

فيم يفيد هذا التاريخ المختلف؟

هو مفيد بالتأكيد...

ولتوضيح ذلك بطريقة مفهومة وبسيطة وبما تستحق من شرح، لا بد
من الانطلاق من شرح تمهيدى ضرورى حول شروط إمكان وجود
تواريخ مختلفة حقًا ووصفها النقدى الذى..

لا تبدأ فى هذه الترهات..

ماذا نقول؟ إن حاسبى الآلى لا يتعرف على مثل هذه الترهات. هل
ضربك بيناك فى نافوخك؟

إننى لم أقرأ "بيناك" على الإطلاق ولا أشعر أننى بحاجة لذلك. وكيف
لى أن أهتم بالساحرة الكاربيبية أو "بيل فيل" أو "مالوسين" أو
"ستويكوفيتش" وجميع قصص الأطفال هذه؟

حسنًا.. أو كيه: دعنا من المقدمات الفلسفية ودعنا من بيناك.. كل شيء
تحت السيطرة.. كل شيء على مايرام.. موافق؟

كف عن التحدث كأنك شرطى من "نبراسكا" فى فيلم تليفزيونى اشتريته من محلات الفيديو... أنت تثير حنقى... أنت لا تطاق... أجب عن السؤال الأول إذا سمحت.

كنت فى سبيلى لأن أفعل هذا.. أنت تعرف أننى أتحدث دائماً عن الالتزام بتخلصنا نحن أنفسنا من النزعة الاستعمارية، ومن مسألة أننا ولدنا وتربينا كأوروبيين من دول إمبريالية. ومع ذلك فليس علينا "وحدنا" أن نتخلص من النزعة الاستعمارية. وإنما علينا "معاً"، وفى مدرسة العوالم الأخرى، بالحوار، حوار لم نستعد له بعد.

- أعرّف هذا. وماذا بعد؟

هذا التحرر من النزعة الاستعمارية الأوروبية هو الشكل العام أو الأفق إذا شئت. على أية حال، وكما تعرف، فإننى أسميها الشاعرية، التى علينا نحن أن ندعو إليها ونمارسها. شاعرية تمضى عكس التيار، وحدها، مقارنة بجميع ممارساتنا الأخرى المتعلقة بمرحلة ما بعد الاستعمار، أى للسيطرة العالمية للإنسانى وللأرضى. هل يبدو لك هذا واضحاً؟

- إلى حد ما. إنها أشياء ترددها دائماً.. استمر.

إن التخلص من النزعة الاستعمارية هى شاعرية وبرنامج معاً. ولكنه يمكن أن يظل أيضاً إطاراً بلا محتوى. لا بد من خلق الإجراءات الفعالة والطرائق وسبل العمل الملموسة. وأيضاً المعنى العام وإيقاع العمل. هذا المعنى العام بالنسبة إلى هو المعنى التربوى. التربية الإنسانية الحقة التى نتخلى عنها الآن قبل أن نبدأها. ليست "الكلاسيكية" الفقهية المتخفية الموجهة نحو الماضى، نحو "إيتاكا". وإنما المستقبلية، التى نجعل حتى كيف نبدأها. نستطيع أن نتعلمها من الآخرين، ومع

الأخرين، في نهاية المطاف. ولهذا قدمت اسم "باولو فيريره"، ويمكنني أن أصل إلى مرتبة أقل وأقدم "ماركوس"، والاثنتان من أمريكا اللاتينية. هي تربية الثقافة التفاعلية: ثورة حقيقية وصراع، كما يقول "فيريره" وكما يفعل "ماركوس" عندما يضع نفسه رهن أمر فلاحى "المايا الكيابانكيين". وعندما يتم صنع هذه الشاعرية بواسطة الأوروبيين، عندها فقط يمكن أن تعطينا هذه الشاعرية إشارة البدء في العمل على مستوى عالمي، لتصل بنا إلى شيء جديد ليس هو الثقافة التفاعلية. وأعتقد أن الأدب يعمل في هذا الاتجاه، بين الغموض والتراجع، على الطريقة الطليعية والموسيقية في آن. وذلك كما تفعل حركات التضامن الجديدة المتعارضة وما بعد الشيوعية، مثل منظمات العمل العالمي للشعوب و"أتاك" و"شبكة ليليوت".

إن اقتراحي بتاريخ أدبي مختلف يكون نافعا في محاولة تخيل وإعادة كتابة تربية الحس النقدي بطريقة مختلفة، فضلاً عن الذوق والمخيلة السياسية للأجيال الشابة في البلدان الأوروبية الإمبريالية مع البلدان الأوروبية غير الإمبريالية والبلدان غير الأوروبية بما يميزها من مخيلة خصبة، وكذلك أيضا لممارسة المستقبل. لعل هذا يكون نافعا كمساهمة من أحد رجال الأدب المنتمين للأرض الأوروبية في حركة التخلص من النزعة الاستعمارية والتربية الجديدة ذات الثقافة التفاعلية بين المواطنين والأجانب. والبديل هو أن يكتب شبابنا مثل هذا التاريخ المختلف، بناء على تعليمات محددة من القوى الاقتصادية المالية. ما رأيك؟

ينبغي أن أفكر في هذا.. ماذا تعنى بالتربية تفاعلية الثقافة؟

لا أعرف.. لا أعرف كيف أعطى لك تعريفاً يستند إلى مراجع محددة.

ربما كان ذلك ممكناً ولكنه لا يعينى. انظر: لقد كتبت الفصل الثانى من هذا الكتاب ثلاث مرات، بثلاثة أساليب مختلفة، وفى كل مرة يظهر كنص جديد. وفى النهاية فإننى أعطى للعالم أرخبيلاً مفتوحاً متعدد القنوات. قوامه جزر نصية ولدت من الرحم الزمنى نفسه، ومعها سفن أهداها لى أصدقاء.

الفصل الثاني

أرخبيل

خطوتان

فى أوروبا، ومنذ عدة سنوات أيضاً فى إيطاليا، يجرى حديث عن النزعة متعددة الثقافات وعن التبادل الثقافى وعن التربية بمبدأ التفاعل الثقافى. والتربية تفاعلية الثقافة تعنى شيئين فى وقت واحد: تدريبيًا ومعنى، يحاولان إعطاء قيمة للموقف متعدد الثقافات الذى نعيش فيه فى أوروبا الغربية، لعالم فوضى الثقافات، إذا استخدمنا صورة من صور «جليسان»^(*)

وموقف تعدد الثقافات وتعدد العرقيات، هو من المعطيات التاريخية-الاجتماعية وهو فى حد ذاته ليس له قيمة تطويرية، بل من البادى أنه يولد نكوصًا ومشاعر تتم عن ردود أفعال سلبية تتمثل فى الضيق والرفض. ولأنه

(*) Edouard Glissant شاعر وأديب ومفكر من «المارتينيك» بالبحر الكاريبى. ولد عام ١٩٢٨، والتحق بالليسيه فى عهد الاستعمار الفرنسى لبلاده، حيث كان من بين من تعلم عليهم "إيميه سيزار"، مؤسس نظرية الزنوجة. رحل إلى باريس للدراسة الجامعية حيث أسس هناك جبهة لتحرير بلاده من الاستعمار، مما جعل شارل ديغول يأمر فى عام ١٩٦١ باعتقاله فى منزله وحظر سفره إلى «المارتينيك». ولم يرفع ذلك الحظر إلا فى عام ١٩٦٥. وما إن عاد إلى بلاده من المهجر حتى أسس فيها "معهد الدراسات المارتينيكية" وذلك فى عام ١٩٦٧. وفى عام ١٩٨٨ أصبح محاضرًا فى جامعة لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو يعمل منذ عام ١٩٩٥ أستاذًا للأدب فى جامعة مدينة نيويورك. (المراجع)

من الممكن توليد قيم كل ما هو إنسانى حر من هذا الموقف، وليس مجرد اللامبالاة أو التسامح فى أفضل الأحيان، فهناك حاجة للتدريب على الاتجاه المعاكس، حاجة إلى إرادة تربوية قوية ومصممة على أن تغير الوضع القائم لتعدد الثقافات فى رحم أحد المجتمعات بالعمل بمنطق وأخلاقيات تفاعل الثقافات، أى فى عالم واحد موحد. وهذا يعنى: الانطلاق بوعى، ومن ثم التعلم، أى أن ننقل ونحن على أتم استعداد نحو مجتمع لا يشابه بوتقة الانصهار الأمريكية الشمالية الشهيرة (تعدد الثقافات على الطريقة «اليانكى ساكسونية» القائمة على الصراع والتشظى)، وإنما ونحن نتطلع إلى نموذج "أمريكتنا" نحن قبل كل شىء - ذلك النموذج غير المعروف لنا فى أوروبا اللاتينية تحت هذا المسمى - أى أمريكتنا اللاتينية: أمة كبيرة مهجنة عبر ثقافية، "وطن كبير"، ومستقر جديد "سلالة كونية".^(*)

(*) يلاحظ هنا الموقف العقلانى للمؤلف بإزاء المشكلات الاجتماعية التى تعانى منها المجتمعات الأوروبية المعاصرة من خلال العمالة المهاجرة إليها والمقيمة فيها، فهو يوجه الحديث هنا لبنى مجتمعه كى يقيموا مع الأجانب العاملين فى بلادهم جسوراً من التفاعل الواعى مع الثقافات المختلفة التى يحملها هؤلاء الأجانب، ويجعلوا من التفاعل الإيجابى بين مختلف الثقافات فى أمريكا اللاتينية نموذجاً لهم بدلاً من ذلك الذى يتمثل فى الرفض والفصل والعداء العرقى الذى يميز "بوتقة الانصهار" فى الولايات المتحدة الأمريكية. والمؤلف فى موقفه للعقلانى هذا يقف فى مواجهة العنصرية الرسمية والإعلامية بإزاء غير الأوروبيين خاصة المقيمين فى بلاد أوروبية. وهو فى موقفه هذا يضاهى ما سبق أن نادى به الراحل الفرنسى الكبير، وأستاذ علم الاجتماع الثقافى الشهير "بيير بورديو" (توفى عام ٢٠٠٣) إذ سجل مأساة المهاجرين الأجانب فى فرنسا، ومعظمهم من عرب شمالى إفريقيا، فى كتاب ضخم له يزيد عن الألف صفحة يحمل عنوان "بؤس هذا العالم" وقد قدم لى نسخة منه بإهداء رقيق فى إحدى زيارتى له فى "الكوليج دو فرانس" فى باريس عام ١٩٩٣. (المراجع)

على أية حال فإن تعدد الثقافات أصبح ظاهرة فى التاريخ الحديث لأوروبا الغربية، وهى ظاهرة تم تلقىها وتحويلها إلى مشكلة نظام عام من جانب الخطاب الاجتماعى السياسى ومن جانب الخطاب الإعلامى الجماهيرى - بتعاون وتداخل وتحالف تام بينهما - وهى تتلقى الانزعاج المنتشر بين الأوروبيين بحكم المولد وتضخمه. وهذه الظاهرة فى طريقها إلى الاتساع، بل يبدو أنها سوف تحدد مستقبلنا. أما التفاعل الثقافى فهو على العكس من ذلك: شكل متطابق مع التطور السياسى، وشاعرية مدنية، وسمو عملى سخرى بالموقف الموجود، وقيمة جديدة وغير متوقعة للتربية، ونوع من "الميتانويا"، أو قل التحول الجذرى للضمير الاجتماعى.

حتى لو كان هذا التمييز معروفًا إلى حد ما فإنه مما يستحق العناء ترديده وتأكيده من جديد مرة بعد أخرى، وكذلك فى كل مرة تكون هناك حاجة إليه. بل إنى أعتقد أنه توجد حاجة ماسة إليه الآن حتى فيما يسمى بالهينات المؤهلة ناهيك عن الخطاب اليومى.

وبدءًا من المطالبة بضرورة إيجاد السبل نحو التربية تفاعلية الثقافة فى الأزمنة الأخيرة بدأنا نناقش أيضًا التربية على الطريقة العالمية.

وبمناسبة هذه القضية البحثية أريد أن أطور بعض الاعتبارات انطلاقًا من مفهومى عن النظرية الشعرية وهى اعتبارات تعليمية فى المقام الأول.

أقصد بمصطلح "الشعرية" Poetica التدريب والممارسة التى تتحرك فى إطار التفاعل المتواصل والتقدمى والزاهد. وأعنى بالزاهد: "العمل الدائم لشحن المصير حتى يصبح حادثًا، وتدريبًا للذهن، لا يكمل ولا يتعب حتى يجعله منفتحًا على غير المتوقع، غير المتوقع هذا الذى يمكنه أن يحدث فى أية لحظة ليجب التكرار الظاهر - الظاهر فقط - وملاحم الجنون الصوفى التى يمكن لمصطلح الزهد أن يحملها وأن يتحمل بها فى أن".

شاعرية وتدريب وممارسة وزهد وتفاعل: لأى شيء؟ للقراءة (التي تعنى الرؤية - الفهم - التفسير - الشرح) وللحكم والتصرف. إن النظرية الشعرية تكون فى أفضل حالاتها عندما تتدفق من الزهد المتواصل باستمرار، وعندما تصبح تربية للنفس وللآخرين: معاً.

إن الأدب، أو بالأحرى: قيمته الاستعمالية^(*) وفضيلته التربوية، إنما

^(*) *valore d'uso* القيمة الاستعمالية مصطلح قدمه "ماركس" فى نقده للاقتصاد السياسى الكلاسيكى (عند "ريكاردو" و"آدم سميث") الذى لا يفصل بين قيمة الاستعمال للمنتج البشرى وقيمة تبادله فى السوق الرأسمالية. وهو يرد فى ذلك على "آدم سميث" الذى يتحدث عما يدعوه "اليد الخفية" (فى كتابه "ثروة الأمم") التى يرى أنها توفق بين طرفى الصراع. أما عند "ماركس" فمحط التناقض فى الاقتصاد الرأسمالى يتمثل فى أن الحصول على قيمة الاستعمال ذات الخصائص واضحة المعالم والهوية، والمترتبة على كل عملية إنتاج يقوم بها الإنسان لا يتحقق إلا عن طريق السوق الرأسمالية التى تحولها إلى سلعة مجهولة الهوية وموجهة لتحقيق الغرض الرئيسى من المشروع الرأسمالى وهو تعظيم أرباحه النقدية، وليس إلى إشباع حاجة المحتاجين إليها ماداموا لا يستطيعون شراءها نقدًا من السوق. ومن الأمثلة التى ساقها ماركس على ذلك المجاعة التى اجتاحت "أيرلنده" فى منتصف القرن التاسع عشر بسبب الأفة التى أصابت محصول البطاطس، الغذاء الأساسى لعامة الشعب هناك، مما أدى إلى وفاة مليون أيرلندى جوعاً، وهجرة مليون آخر إلى الخارج، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه محاصيل البطاطس التى نجت من تلك الأفة تصدر للبيع إلى خارج أيرلنده. فمنطق السوق الرأسمالية هو: من لا يملك النقد لشراء السلعة لا يحق له أن يستهلكها ولو أدى ذلك إلى هلاكه. أما الإجراءات التأمينية التى اتخذتها الدول الغربية لتلافي الثورات الاجتماعية التى يمكن أن تطيح بالمشروع الرأسمالى ككل، خاصة فى وجود ما أصبح يعرف بالمعسكر الاشتراكى فى أوروبا الشرقية، فهى فى تراجع مستمر فى أوروبا الغربية منذ تصفية التجربة الاشتراكية فى أوروبا الشرقية سابقاً. (المراجع)

يعمل على أن يعطى الإنسان تربيةً المعنى، أى أن يتعلم معنى الوجود فى عالم قوامه عوالم متعددة، ومعنى أن يكون لديك عقل يستجوب نفسه ويستجوب الآخر، عقل يريد أن يتواصل، عقل يصل إلى الوعى بوجوده مادام لا يتصور أنه ينظر إلى المرأة فى قاع بئر وحدته المنعزلة على نحو ما يراه فيلسوفنا ديكارت،^(*) وإنما لو عرف أن هناك شخصًا ما يفكر فى وجوده، فى شخصه هو بالتحديد، ويعتبره فى ذهنه بصيص نور من جماع الذكريات والرغبات التى يريد أن ينضم إليها، وأن يقول له ذلك حالما استطاع.

وأرى أن عالم العوالم الذى نعيش فيه اليوم ليس هو العالم الذى رسمته الفلسفة الأوروبية والذى ينطلق من التفكير المجرد عن نفسه ويعود إليه: عالم "أنا أفكر فأنا موجود"، والذى يوجد فيه الآخر كانعكاس ثانوى لنفسى، وأن تفكيرى ووجودى هو مركز هذا الفكر بل الفكر بشكل عام. أما العالم فهو على حد قول "لويس دى كاموش": "عالم من عوالم" وكما يعيد طرحه اليوم القائد التابع "ماركوس"، عالم قوامه رجال ونساء، مختلفون ومجتمعون، كما علمنا الفكر النسائى، من أجيال متعايشة وشعوب متباينة.

إن تربية الحس تؤدى إلى مساعلة النفس مساعلة مستمرة واعية ونافعة

(*) رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، الفيلسوف الفرنسى الشهير صاحب "مقال فى المنهج" وتأملات ميتافيزيقية"، و"مبادئ الفلسفة". وهو يعد أول من جعل الفلسفة الغربية مستقلة عن سائر المعارف والعلوم وأن يصبح لها منهجها المستقل الخاص بها. ويمكن الرجوع إلى مؤلفات الراحل عثمان أمين وترجماته للتعرف على آثار هذا المفكر المهم الذى ترك أثرًا بالغًا فى الفكر الفرنسى واللاتينى، وليس فقط الفرنسى واللاتينى. (المراجع)

من أجل الفهم ومن أجل الوصول إلى تشكيل الذوق والقدرة على الحكم والفعل. (يبدو أننا نسمع العجوز "كانط" في هذه الكلمات ولكنها تشكل أيضًا معادلة ما يسمى بالمنهج الأمريكي اللاتيني للتربية الثورية^(*)).

(*) يعنى "نيشى" هنا منهج للتوعية الذى اقترحه "باولو فريره" البرازيلى، والمستمد من تجاربه العملية مع الطبقات الشعبية المهمشة فى مجتمعه، حيث يرفض أن تصدر العملية التعليمية عن تصور أن التلميذ "سبورة ممسوحة بدون عليها المعلم معارفه". إنما يصر "فريره" على أن عملية التعلم الحقيقية لا بد أن تتم من خلال الحوار، أى تسير فى كلا الاتجاهين، وأن تتبادل الأدوار بين المعلم والمتعلم بحيث يصبح المتعلم معلمًا للمعلم وبالعكس. وبذلك تتحقق عنده التوعية الحقيقية لا سيما لدى الطبقات الشعبية مسلوبة الحقوق الشرعية. ولعل نيشى - مؤلف هذا الكتاب - يشير أيضًا إلى منهج "إيليش" المكسيكى الناقد للتعليم الرسمى فى بلاده (المدارس لا تنفع - أحد كتبه المهمة). على أنه من الملاحظ أن هؤلاء النقاد لا يلبث أن يتم احتواؤهم من النظام السائد، أو بالأحرى المسود عالميًا بتحفيظ دعواتهم الثورية وتحويلها إلى مجرد "آراء" نقدية تدرس فى الأكاديميات الغربية، ولا بأس من تحويل بعضها إلى "توصيات" للهيئات الثقافية التابعة للأمم المتحدة، كهيئة اليونسكو مثلاً، كى تصبح مجرد تعبير منافق عن "اعتراف" النظام الثقافى المعولم بذلك الآخر الذى لا يمثل فى الواقع سوى "مصالح مجمل شعوب المسكونة، وفى مقدمتها شعوب الجنوب المهمشة". وهل نجنا المارتينيكي "جليسان" نفسه - الذى يستشهد به "نيشى" بالمثل فى هذا الكتاب - من هذا الاحتواء؛ إذ ترك بلاده ليدرس نظريته الثورية فى جامعات نيويورك؟! ولعل عمارة الراحل حسن فتحى من أوضح الأمثلة على هذا الاغتراب الذى تعيشه مجتمعاتنا العربية، إذ لم يلتفت فى مصر إلى إنجازات هذا المعمارى الكبير إلا بعد أن أثنى عليها الغربيون وانهالوا بالتكريم على صاحبها، بل الأدهى من ذلك أن "عمارة الفقراء" التى أراد أن يقدمها دارًا تسكن إليها نفوس البسطاء من بنى بلاده لم تجد مكانها اللائق بينهم، وإنما لدى أهالى ولاية مكسيكو فى أمريكا، وفى عمارة بعض ميسورى الحال من الفنانين المصريين. (المراجع)

وتجسد التربية التي ينتجها الأدب إمكانية أن يستطيع كل فرد بناء شاعريته، ومسيرة حسه، ومنهجه الخاص في الحياة مع الآخرين: تحرير إنسانيته، الذي هو حقه الأساسي، وإن كان لا يزال موجلاً، وغالبًا ما يصل الأمر إلى إلغائه. انطلاقًا من هذه القفزة الجريئة فقط يمكن أن يصبح للبحث عن السعادة^(*) مغزى، وليس بالتأكيد، لأن هذا البحث يقره دستور من الدساتير الجمهورية.

ما الحياة، كما يؤكد "علم التركيب"^(**) إلا عمليات متواصلة من الفهم والتحول. أما المنهج فهو مسيرة الحياة، كما يقول الشاعر "أنطونيو ماتشادو"^(***) وهو الطريق الذي قطعناه ونحن نستدير لكي ننظر إليه، كما

(*) تذكرني هذه العبارة شبه الكانطية في "مطلبها الأخلاقي" بجملة شهيرة لبرتولت برخت" يسخر فيها من البحث عن السعادة في أغوار الذات الفردية؛ حيث يقول في "أوبرا الثلاث بنسات": لكل يعدو وراء السعادة، والسعادة من خلفهم تعدو!! (المراجع)^(**) complexity science هو علم جديد نشأ نتيجة عجز العلوم التقليدية منذ "تيوتن" و"داروين" عن تفسير الظواهر المركبة غير البسيطة ويبحث في النظم التي تحتوى على عدد كبير من المكونات المتفاعلة فيما بينها بهدف الكشف عن خواصها الجماعية، ويمكن أن يبحث في شتى مظاهر الحياة بداية من الفيزياء إلى الأحياء، أو حتى نظم العمل داخل الشركات أو المنظمات الكبيرة. (المراجع).

(***). ولد "أنطونيو ماتشادو" في إشبيلية (إسبانيا) عام ١٨٧٥. وتوفي في قرية "كوليور" الفرنسية عام ١٩٣٩م حيث بلغها هاربًا من ملاحقة أتباع "فرانكو". وفي أثناء هلع الهجرة فقدت منه أعمال لم تنشر من قبل، ولم يوفق إلى الاحتفاظ بها كما فعل الشاعر البرتغالي "كاموويش"، إذ رفع مخطوطة قصيدته "أيها البرازيليون" بأعلى يديه في أثناء غرق الباخرة التي كان على ظهرها في رحلته الآسيوية في أثناء القرن السادس عشر. أما "ماتشادو" فكان قد فارق الحياة بنفسه الشاعرة قبل أن يفارقها بجسده بعد=

يقول مؤرخ الأديان "جورج دوميزيل": المنهج هو أيضا ما أسميته من قبل بالزهد، تمرين متواصل للاستجواب وبناء المعنى، عندما يتوافق العقل مع التعقيد عند الكائن الحي. لقد حدثنا "سافينيو"^(*) بقوله إن المفكر هو من يُعمل

عشرين يوماً من وصوله لاجنأ إلى قرية "كولبور" التي بلغها في الثاني من فبراير ١٩٣٦م، ووافته المنية هناك في ٢٢ من الشهر نفسه. وبعده بثلاثة أيام لحقت به أمه التي صحبتته في رحلة الهلع هذه وهي في الثمانينيات من عمرها. تميز شعر "ماتشادو"، الذي صار يعرف لاسيما بعد وفاته بواحد من أكبر شعراء القرن العشرين، بالفلسفة والحكمة العميقة خاصة بعد أن فقد زوجه "نونيا ليونور" عام ١٩١٢م متأثرة بمرض السل الذي دامها حتى الوفاة. وتذكر قصائده هذه، من بين ما تذكر، بزخم الحكمة العميقة في شعر عمر الخيام. أما قصائده التي ماجت بحب الحياة، فكانت تلك التي أنشدتها قبل أن يخطها أثناء قصة حبه وزواجه من التي فقدتها في ريعان الشباب: نونيا ليونور. ولم ينثه الشعر عن الانخراط في الصراع الاجتماعي في بلده في مطلع القرن الماضي، حيث انحاز إلى الشعب وحزبه الجمهوري ضد فاشية فرانكو. وكم كان مؤلماً بالنسبة إليه أن يفقد صديقيه "أونامونو" و "لوركا" الذي اغتاله الفاشيون في ١٩٣٦م، وأن يقف شقيقه "مانويل" إلى جانب الفاشية، وهو الذي سبق أن شارك "أنطونيو" من قبل في الكتابة للمسرح. من أشهر دواوين "ماتشادو" ذلك الذي وضع له عنوان: حقول قشطلية (كاستيليا). ويكاد "نيشي" هنا أن يقتطف من أشعار الحكمة عند "ماتشادو" الذي يقول في إحدى قصائده: "أيها المرتحل، ما الطريق سوى خطو أقدامك، لا يوجد طريق هناك، فأنت الذي تفتحه عندما تمضي فيه". (المراجع)

(*) "ألبرتو سافينيو" (١٨٩١ - ١٩٥٢): اسم الشهرة الذي عرف به هذا للرسام الشاعر الموسيقي في إيطاليا، وهو من أصل يوناني، يدعى "أندريا دي تشيريكو" وله شقيق فنان مصور يكبره بثلاثة أعوام يدعى "جيورجو دي تشيريكو" (١٨٨١ - ١٩٧٨). وقد بدأ "سافينيو" - كما يدعوه الإيطاليون وكما يدعوه مؤلف هذا الكتاب، حياته الفنية بالتأليف الموسيقي، ولكنه ما لبث أن اهتم بالشعر وبالرسم. وفي باريس انضم إلى =

العقل كأي جزء من أجزاء الجسم الأخرى الأساسية: باستمرار وليس على فترات.

وأعتقد أن هذه هي النتيجة القصوى للتربية بشكل عام، وهي النتيجة التي يمكن أن تعني في نهاية المطاف، اكتساب قيمة "كرامة تحرير إنسانية الإنسان". نوعية تطويرية، وليست منفعة ضائعة أو امتيازاً مقولباً في نمط مكبر. نوعية لا بد أن تكون مشتركة وبالتساوي بين جميع العوالم، بينما تكون دائماً "ثييلة" مميزة وضمنية، سجيبة بلا طائل لدى الطبقات الميسورة في شمال العالم، ولكنها على نحو غريب تهدر قيمتها وتهملها من أجل "قيم" أخرى.

إن الأدب يحثنا على أن نكون "مفكرين ملتزمين على الدوام" بمعنى وذوق الكائن الحي. والأدب لديه هذه القوة حتى وإن كان قد يبدو أو يُقدَّر من الناحية الاجتماعية على أنه غير ضروري. يستطيع أن يوقظ ويدرب على المعنى والاستمتاع وعلى كرامة الإنسان الحر للجميع ولدى العوالم جميعها: الباريسيين والمايا والباباوا والمنديجا والاوسيتي وغيرهم. أما الترجمة فتجعلنا جميعاً معاصرين وقابلين للقراءة على نحو تفاعلي، كما لا يتحقق ذلك

=الحركة السورالية في مطلع القرن الماضي، ولم يفلح شقيقه في تثبيته عن ذلك. وقد ظل "سافينيو" طوال حياته ينتقل بين الشعر والموسيقى والتصوير. أما لوحاته فترخر بتصوير الإنسان متحولاً إلى هيئة حيوان يرمز لصفات "إنسانية"، فالتعلب مثلاً يمثل عنده للدماء البشرية، والكلب يرمز إلى الوفاء... إلخ. من أشهر لوحاته "عائلة الأسد" (١٩٢٧). كما أن له ديوان شعر صدر عام ١٩١٤ تحت عنوان: أغاني نصف الموت. (المراجع)

إلا في اشتباك الموسيقى مع الرقص بما يشذ التوهج المتبادل بينهما.^(*) فليس هناك اتصال بين العوالم أكثر شجاعة أو كرامة من الأدب والموسيقى والرقص، ويقتدر محدود من سائر الفنون عندما تقاوم وتبقى حرة ولا تعمم عن طريق "الفكر الواحد". فالفكر الواحد هو هذه السلطة الغاشمة التي تحاول أن تسحق وتوحد تعددية العوالم وثقافتها في "مدينة الملاهي العالمية الموحدة". ولكن، مثلما كانت لعبة "بلاد البالوكي" نصبًا جنائزياً يخفى وراءه طابور من الحمير، كذلك فإن الجنة الحالية للمظاهر تختفى صورة أشعة للحوض في الهيكل العظمى تظهر كسراً رهيباً يرسم عالمًا شماليًا صغيرًا غنيًا يُخضع ويستغل ويسمم ويعاقب جنوبًا ضخماً متعددًا يتم اختزاله

^(*) لعل المؤلف يشير هنا إلى ممارسة الرقص على أنغام الموسيقى الشعبية في أمريكا اللاتينية، فرقصة "السامبا" مثلاً ليست مجرد "رقصة شعبية" في البرازيل، وإنما تمثل بالنسبة إلى البرازيليين "هوية ثقافية"، حتى إن أستاذًا في جامعة برازيليا ألف عنها ثلاثة كتب. وكذلك الأمر في سائر أقطار أمريكا الجنوبية، حيث يصحب كل أته الموسيقية إلى المشارب العامة ولا يلبث في معية الصحاب أن يعزف ويغنى معهم، وقد يقف البعض ليرقص على تلك الأنغام في آن. وقد رأيت في "ساو باولو" وفي "سانفادور"، عاصمة ولاية "بهيه" في البرازيل، وعلى ضفاف بحيرة "لا تشابالا" - أكبر بحيرات المكسيك - كيف يلعب الرقص والموسيقى دورًا مهمًا في امتصاص الإحباط الاقتصادي العام لدى عامة الشعب. لذلك حرصت الحكومة البرازيلية في منتصف التسعينيات، خاصة في أثناء فقدان السريع للقوة الشرائية للعملة المحلية ("الكروزيرو" آنذاك)، على "تصب" حليات رقص "السامبا" في الميادين العامة بالأحياء الشعبية لامتنصاص غضب مواطنيها. ولعل الموسيقى والرقص هناك يلعبان دورًا موازيًا للنكتة في المجتمع المصري، وللمغلاة في التدين في مجتمعاتنا العربية المعاصرة كرد فعل تلقائي للإحباط الاقتصادي أو النفسي الاجتماعي. (المراجع)

إلى ما يوصف بأنه "بقية العالم". بينما هو فى الواقع يجسد ثراء العوالم، ذلك الثراء الذى يُختزل إلى شكل من أشكال الأكم والإفراغ من المعنى والكرامة. وهو أيضًا تعدد المتع والموسيقى والمقاومة الفكرية ويوتوبيات الجماعة المستضيفة.

عندما يكون الأدب والرقص والموسيقى والفنون جميعها حرة فإنها تربي وتعلم بهدف إنقاذ تعددية العوالم: الحفاظ على نفسها وعلى الصحة التى تتولد من تلاقحها.

إن الأدب والفنون - بما فى ذلك فن التماور العقلى والتساؤل المتشكك وقلب كل بنيات الظلم رأسًا على عقب - وجدت أيضًا فى العلم شاعرية التوازى بين الأرضى والإنسانى. شاعرية تتجاوز المعرفة العلمية "المجردة" والتكنولوجيا المبهمة التى ترتبط دائمًا بالقرنين: الإنتاجية وتحقيق الربح النقدى. يتعلق الأمر هنا "بالحركة البيئية" التى انتشرت فى جميع العوالم اعتبارًا من السبعينيات من القرن العشرين. تلك الحركة المهتدة بالوَأد، كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية، ومع هذا لم تنقل إلى حزب صغير يخرط فى اللعبة السياسية للسلطة، أو نادٍ للهممات بما قد استحال إليه فى أوروبا.

إنما يشكل الأدب مع علم البيئة والموسيقى والتصدى للدفاع عن الطبيعة شبكة من التربية العالمية الحقيقية تفاعلية الثقافة، شبكة تضع العوالم جميعها فى علاقة مساواة متبادلة. وذلك على نحو موازٍ لما من شأنه أن يجعل العوالم الخاصة - بالعالم الشمالى - تشعر بتطورها وكرامتها، كما بحس بالمعنى، وبقيمة المطالبة بحقوقها، وبالمقاومة وبالتمرد.

أرى أن طريق التربية التى تهدف إلى العالمية بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين الغربيين، يتقدم إلى الأمام بواسطة الأدب والموسيقى والبيئة. هذه الطرائق الثلاث، المتكاملة والمتقاطعة والمليئة بالشعاب المتفرعة، وبالجسور

والمحطات، لم يتم اختيارها بطريقة ميثاقية، ولم تخرج من معادلات كيميائية خاصة، وإنما هي طرائق اخترناها واحتضناها بكل حريتنا وإرادتنا بحيث تسمح لنا بالبحث الدائم عن المعانى فى العالم وفى العوالم، والمشاركة فى الترجمة التى لا تتوقف، ومزج الممارسات والفنون والمصائر بما يخلق "غير المتوقع" والمتعدد والممتع معاً ثلاث طرائق وثلاث شاعريات مشتركة بالنسبة للجنس البشرى.

فى هذه المسيرة العتيقة، جد عتيقة، والتى ما زالت تبدو لنا جد حديثة، نعد - نحن الأوروبيين - شديدي التأخر، بالغى البطء، سيئى التربية فى قراءتنا لماضيها وبسببها، ونحن الأكثر انعداماً للياقة والأقل استعداداً. إن هذه المسيرة نفسها تظل فى الغالب غير مرئية بالنسبة لنا.

إننا نتحدث كثيراً عن التربية تفاعلية الثقافة، ولكن يبدو أننا نلتف حولها، حول حلقة خارجية لها. أود أن أقول: إننا نكثر الحديث عنها لأننا لا نعرف عنها شيئاً. ونحن لا نعرف عنها شيئاً لأن التربية تفاعلية الثقافة ليس لها مكان فى موسوعتنا العالمية، وفى تراثنا الثرى جداً والمجيد، وفى حضارتنا الأوروبية السامية، الأكثر كمالاً من صاداتنا العالمية.

وأظن أن من الضروري، حتى نبدأ فى الحديث عنها، أن نعترف أننا لا نعرف عنها شيئاً رغم كل تلك الكتب والمؤتمرات والندوات والنوايا الطيبة والمبادرات. لقد حرصنا على ما نحن فى حاجة إليه، أى على ما يعكس ما هو موجود انعكاساً حميداً، فنحن ندرس أكثر قليلاً تاريخ وثقافات الشعوب المهاجرة إلى أوروبا ولا نتردد فى أن نغير السمع لمن جاء كى يقيم معنا، فنحن ندعوهم إلى الحديث والغناء والعزف وعرض عاداتهم ورقصاتهم وعقائدهم ومطابخهم فى المدارس الإيطالية التى أصبحت تحتوى على أكثر من مائة ألف منهم. ونحن مضطرون حتماً أن نستوعبهم مرة أخرى ورغم

كل شيء فى حضارتنا الغربية "الكبيرة" و"الفريدة": الكبيرة بـكبر العالم والفريدة بقدر عالميتها، والتي يتم تصديرها منذ قرون، و"الأفضل"، مثلما هو أفضل لنا أن نحصل على علبة كوكاكولا باردة لاحتساؤها من ألا نحصل عليها. ماذا يمكن أن يحدث بخلاف هذا؟ لقد تقلصت المواجهة فى الحقيقة إلى ثنائية الاستهلاك الإجبارى. ليس ذلك الذى تستطيع أن تختار فى مواجهته بين عادة وأخرى، أو بين فرص مختلفة، وإنما ذلك الذى يجعلك تحصل على الكوكاكولا والووكمان وفرن الميكروويف أو ألا تحصل على هذه الأشياء.

إن حضارتنا زعمت لنفسها أنها عالمية، ولكن القليلين هم الذين يدركون أنها كلمة ذات معنى يرتد إلى عكسه. فمعناها يمضى فى اتجاه واحد هو الاتجاه الذى أراد الغرب أن يعطيه للعالم: إنها حضارة أوروبية. وهذا هو السبب فى أننى أكدت من قبل أننا الأكثر تخلفاً والأكثر بطئاً، ولا نعرف شيئاً عما تعنى التربية تفاعلية الثقافة وكيف يمكن تحقيقها، وأننا لا نزال نمارس قراءة متسلطة وغير تربوية لتواريخ العوالم ولماضيها نحن أنفسنا.

إن التربية من منظور عالمى ينبغى أن تعنى مراجعة تربيتنا نفسها وماضيها على ضوء إعادة اكتشاف التعددية والمطالبة بها وعلى الحوار مع العوالم.

فنحن الأوروبيين المولودين فى دول "إمبريالية"، الذين نفخر بأننا شيدينا معارف العالم كلها، ليس لدينا فى معاجمنا ولا فى موسوعاتنا أو فى برلماننا خطاب عالمى للتفاعل الثقافى لا يستحيل خطاباً للسيطرة والهيمنة والتفوق الشامل، أو للعرقية والأبوية سواء أى كان خطاباً دينياً أو علمانياً، أو لآلية الاستدانة المشنومة (أى نعم المشنومة!).

فإذا كنا مستعدين للاعتراف بكل هذا أصبحنا على الطريق نحو التخلص من النزعة الاستعمارية Decolonizzazione.

إن التخلص من النزعة الاستعمارية هو اسم نظريتي الشعرية، ونشرها بشكل تربوي هو هدفى الأول.

وحتى نبدأ الحديث حولها نلزم العودة إلى بداية الحدث: نحن الأوروبيين نوى العقلية الإمبريالية، (لم يكتب نحو اللغة الإسبانية للمرة الأولى إلا لأسباب "إمبريالية" بعد اكتشاف العالم الجديد، وهى نفسها من أوائل اللغات الحديثة) انتشرنا فى مرحلة من تاريخنا فى كل أنحاء المعمورة، تلك المرحلة التى فتحت الطريق لما يعرف باسم الحداثة، ورحنا ندمر ونوقف تطور ثقافات العوالم كلها. وكما أكد المؤرخ البوركىنى جوزيف كى - زربو"، فإن الأوروبيين حرموا إفريقيا من حياتها الحقيقية برماد النار، وليست إفريقيا وحدها^(*).

(*) هذا كلام دقيق، فعندما استعمرت إنجلترا الهند بادرت بتحطيم صناعة النسيج الهندية، وبخاصة صناعة الحرير التى كانت آنذاك مزدهرة فى الهند، كما كانت تتمتع بسمعة عالية فى بريطانيا نفسها، وذلك بأن حطم الاستعمار الأنوال الهندية، وفرض على النساجين الهنود أن يعملوا على أنوال إنجليزية الصنع، مما جعل هؤلاء يلجأون لبتتر أصابعهم حتى لا يجبروا على ذلك. ولكن الأنكى هو أن شركة الهند الشرقية التى كانت تمثل الاستعمار الإنجليزى هناك، حرصت على تحطيم النظام الاقتصادى الاجتماعى الهندى، وهو الذى كان يقضى - على سبيل المثال - بتوفير مخزون احتياطى من الحبوب لاستهلاكها فى حالة ضعف المحصول أو إصابته بأفة من الأفات. فما كان من المستعمر الإنجليزى إلا أن أجبر الهنود على "التخلص من هذه العادة التقليدية السيئة - كذا!"، مما ترتب عليه أن ألقا مؤلفة من الشعب الهندى قضت بسبب الجوع عندما جاءت أعوام حصاد عجاف، وهو ما تكرر فى "مجاعة البطاطس" الكبرى فى أيرلنده فى أثناء استعمار إنجلترا لها فى منتصف القرن التاسع عشر، والتى قضى فيها مليون أيرلندى جوعاً، وهاجر مثلهم إلى الخارج، مما ترتب عليه =

=مراجعة ثقافية" تمثلت فى فقدان المتحدثين باللغة الأيرلندية، وهم من سكان الأقاليم والمناطق الزراعية فى الأساس، الأمر الذى "ساعد" على تهميش اللغة الأيرلندية فى عقر دارها، إذ صار لا يتحدثها اليوم مثلاً أكثر من خمسة بالمائة من أهل أيرلنده، وقد يفهما دون أن يتحدثها ربع أهل البلاد هناك!! من هنا كانت مرارة نقد الكتاب الأيرلنديين للمستعمر الإنجليزى بلغته، و"برنارد شو" مثل واضح على ذلك. ولكن المرارة الحقيقية تكمن فيما "جحج" فيه الاستعمار الإنجليزى بمحوه لغة المستعمر - بفتح الميم - بما تشكله من دعامة رئيسية لهويته القومية ولاعتزازه بذاته الثقافية، وهو ما يترتب عليه إفقار للتنوع الثقافى على مستوى العالم. وما كان يقوم به المستعمر فى السابق صارت تتكفل به آليات السوق العالمية فى يومنا هذا؛ إذ بسبب هيمنتها صارت عشرات اللغات تموت يومياً بموت حاملها، وهو ما يعنى اختفاء "عولم" من الرؤى والحكم والأساطير والمعتقدات المتوارثة عن آباء الآباء. بينما تعود الأجيال الجديدة نحو اللغة الأحادية للسوق، الإنجليزية المتأمركة، وتتخلى تماماً عن تراث الآباء والأجداد الراحلين وذلك تلبية لمتطلبات "العصرنة"!!! والحل هنا لا يمكن أن يتمثل فى التمرس المعاكس وراء التراث القومى، والرفض المستحيل للأخر، وإنما فى السعى لإنماء الذات الثقافية من داخلها لتتجاوز ذاتها إلى آفاق جديدة تساعدها على وطنها دراسات مقارنة دقيقة بينها وبين الأخر الثقافى، وما يترتب على ذلك من نقد إيجابى للذات وشحذ لقدراتها الابتكارية وحلولها الإبداعية، وهو ما يمكن أن يحقق التقدم الحق للذات المجتمعية ويثرى فى الوقت نفسه سائر الثقافات البشرية بهذه المسارات المختلفة باختلاف الثقافات الاجتماعية على مستوى العالم. ومن الجدير بالذكر أن ما صارت تبحث عنه معاهد الأبحاث المتقدمة فى أكثر البلاد الغربية تطوراً، هو تلك الرؤى المختلفة ثقافياً للظواهر (التي سبق أن حرص الاستعمار على محوها وتهميشها) ومن ذلك أن مدير أحد المعاهد البحثية المتطورة فى ألمانيا قال لى بأن عرضاً قدمه أحد الصينيين لموضوع بحثى من منظور كونفوشستى كان مصدر إثراء مهم لأبحاث ذلك المعهد. (المراجع)

نحن الأوروبيين "الإمبرياليين" استقوينا حضارة أعلى وبفكرة "تبشيرية" حول واجب نشرها على المستوى العالمي، كأداة للسيطرة وليست كهديّة تشاركية، أفدينا وأفسدنا جميع الثقافات.

لقد غزونا واستعمرنا العوالم، ولم ننجح بالكامل في هذا، كما في حالة الصين واليابان اللتين قاومتا دائماً، والثانية حتى الهولوكوست الذرى الذى تجاوز فيه الأمريكيون هتلر، مفتتحين "حضارة" الاغتياى، للجنس البشرى كله، وليس "لجنس معين"، عندئذ قمنا بمحاصرتها بقرارات الحظر التى أخذت دائماً الأسلوب والطابع الأمريكى: مثلما في كوبا وصربيا والعراق...

وفي النصف الثانى من القرن العشرين تخلينا عن احتلال الأراضى في هذه العوالم واكتفينا بالسيطرة عليها عن بُعد. وفي الوقت نفسه أنشأنا تصنيفاً للحقب التاريخية أطلقنا عليه اسم: "الحركة الاستعمارية" في مرحلة أولى، و"الاتجاه الاستعمارى الإمبريالى" في المرحلة التالية: وهى الفترة التى نعتبرها واحدة من أزهى عصور الحضارة الغربية الحديثة على تعددها. فترة يمكن أن تكون قد وقعت خلالها أحداث مؤسفة، نندم عليها، وهو ما يبدو أن رئيس وزرائنا الأسبق "داليم" قد عبّر عنه في أثناء زيارته لليبيا.

وأرى أن الحركة الاستعمارية لا يمكن أن تدخل ضمن تقسيم العصور في التعليم، كما أنها ليست خاصة من بين الخصائص الكثيرة التى تشكلت حدثتنا، إنها الخطيئة الأوروبية التى أضرت العوالم كلها.

في العقدين الأخيرين من القرن العشرين انتقل رجال ونساء وأطفال كثيرون من عوالم أخرى إلينا بمعدلات تتزايد باستمرار، وهم بالتحديد انتقلوا إلى أوطاننا. جاءوا ويجيئون وسوف يستمرون فى المجيء. ويبدو أنهم لا يرغبون فى الرحيل من هنا. ليسوا سائحين، لا يقومون بجولة سياحية

يعودون بعدها إلى بيوتهم، مثل اليابانيين. إنهم مهاجرون أو مغتربون أو مطرودون أو معاقبون أو مناضلون أو شحاذون أو نصابون أو عمال فى سوق العمل السوداء.

والانطلاق من هذا الحدث الطويل والمتشابك هو ما ينبغى أن نتخذ به الخطوات اللازمة لبناء خطاب أوروبى للتربية تفاعلية الثقافة. وأرى أن هذا الخطاب يجب أن يقوم فوراً باختياراته ويتخذ شكل تخلص أنفسنا من النزعة الاستعمارية.

ينبغى أن نقطع "الاستعمار الذى يعيش بداخلنا"، هذا هو ما كتبه جان بول سارتر عام ١٩٦١م فى مقدمته لكتاب "الملعونون فى الأرض" للمارتينكى (المارتينيك تابعة إدارياً لفرنسا) الذى أصبح جزائرياً فرنسياً إفريقياً: "فرانز فانون". وبعدها ببضع سنوات كان التونسى "البير ميمى" Albert Memmi^(٢) هو الذى كتب يقول فى عام ١٩٦٦م: "أن تكون مستعمراً هو مرض يصيب الأوروبى ويجب عليه أن يشفى ويتحصن منه نهائياً".

إن تخلص أنفسهم من أنفسهم هو القيمة الحضارية والعالمية الأكثر أهمية والتي ينبغى على الأوروبيين "الإمبرياليين" أن يتعلموا كيف يتربون عليها، ليس وحدهم، وإنما فى مدرسة العوالم، والتي تبشر بشفائنا. وفى الوقت نفسه فإن التخلص من النزعة الاستعمارية هو المساهمة فى حوار العوالم الذى ينتظره الجميع منا منذ ربح طويل من الزمن منا نحن الأوروبيين.

(٢) انظر على وجه الخصوص مؤلفيه: "صورة المستعمر" بكسر الميم، و "صورة المستعمر" بفتحها. (المراجع)

على أنه لا يجوز الخلط بين التخلص من النزعة الاستعمارية التي لا يتصف بها سوانا نحن الأوروبيين، و"التخلص من نزعة الأوروبية" التي تحدث عنها في خمسينيات القرن الماضي الأنثروبولوجي البرازيلي "جيلبرتو فريره". ففي استطاعة "التحرر الإنساني" عند الأمريكي اللاتيني أن يقوم بذلك لأنه، كما أشرت من قبل، جزء من أمة كبرى مهجنة.

وأريد هنا أن أورد قصة تأثرت بها كثيرًا؛ إذ توضح بجملة كيف أن مهجنًا أوروبيًا من خارج أوروبا/نصف أوروبي، يستطيع، لو أراد، أن ينزع عن نفسه أوروبيته. والذي روى الحكاية الصحفي «كارلو بيتزاتى» فى ريبورتاج عن «الإكوادور» نشرته صحيفة "لا ريبوبليكا ديللى دونى" فى عددها الصادر بتاريخ ١٨ فبراير عام ٢٠٠٠، وفيه ذكر الآتى: كنت على موعد فى بونجالا، وهى ناحية يسكنها ثمانية آلاف نسمة مقسمين على ٢٢ جالية، ٩٥% منهم لا يتحدثون سوى لغة كيوتشوا، التى تعود فى الأصل إلى لغة "الإنكا". كان فى انتظارى فى مدخل الكنيسة الأب "الجابيتشو" أو بالأحرى "دون جابرييل باريجا إرياس"، أحد آخر الإكوادوريين الذين كانوا يعيشون طبقاً لتعاليم لاهوت التحرير. خلف عدستى نظارته السميكتين كانت تلمع عينان لرجل كريم، كرّس حياته لمحاربة فقر لا شبيه له فى العالم إلا فيما ندر.

قال لى: "ذات يوم استدعانى رجل يحتضر، وهمس لى بصوت خفيض: لقد استدعيتك لىس لأننى أومن بربك أو بدينك، ولكن لى أقول لك هذا: أحب الأطفال والسكان الأصليين وأبق فقيرًا. بعد هذا اللقاء بدأت أفكر كأننى رجل هندى" قال لى ذلك "دون جابيتشو" وكان رجلاً مهجنًا نصفه هندى والآخر أبيض.

هناك أمران فى حكاية هذه القصة المحكية يعتبران جديدين على

مسامعنا نحن الأوروبيين الأول، أن أحد السكان الأصليين يستدعى قسًا كاثوليكيًا لا لكي يباركه كمسيحي في لحظاته الأخيرة. حتى يضمن الجنة، وإنما لكي يعلمه، يعلم قسًا يحمل هو نفسه. لواء الدين. والثاني، أن القس بعد هذا الحادث غير العادي وبسببه بدأ في التفكير كهندي.

أما نحن الأوروبيين هنا فإننا لن نستطيع أبدًا أن نبدأ في التفكير "كهندي" أو كمغولي، أو كأى جنس آخر، لأننا أنفسنا سكان أصليون في أوروبا. وتكرنا كهنود أو كهنة من هضبة "التبت"، أو الهروب إلى "أوغندا"، أو الاختباء في "بورتو إسكونديو"، يغيرنا نعم، مثلما تغير "كاييشا" دي فاكا، ولكنه لا ينزع عنا أصالتنا كسكان لأوروبا. وباعتبارنا أوروبيين أصليين إذا كنا نريد أن يتم قبولنا كمواطنين في عالم يتألف من العديد من العوالم علينا فقط أن نخلص أنفسنا من النزعة الاستعمارية.

من ناحية أخرى فنحن لا نستطيع أن نتظاهر بأن لنا تراثًا أو مناهج أوروبية للتربية تفاعلية الثقافة على أساس "حقنا العالمي" الذى اخترع فكرة الحرية الفردية وفكرة دولة القانون والديمقراطية. نعرف - أو لا نعرف؟ - كم بنت هذه البنى السياسية العالم كله، ولكن كم خدعته ودمرته أيضًا. أقصى ما نستطيعه هو أن نتذكر بعض الحوادث الإيجابية، مثل فكرة الإنسانية فى المندى الإبيقورى "فيلوديمو دي جادارا" فى "إيروكلانو"، والذى كان يرتاده "تستشرونى" و"فيرجيل وأوراتسيو" أو الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فى عصر النهضة "لورنسو دي مارسيليو فيتشينو"، التى طالبت بالوظيفة الحضارية للقصيدة وللشاعر باعتباره صاحب فكرة فن الإنسانية. إنها آثار نبيلة لقلّة من الصفة "الفكرية" فى بلاط الأقياء طحنتها رحي الحياة فى تاريخ إرادة السلطة لدينا. الرسالة المسيحية إذن. هذا مؤكد ولكنها ظلت ملتصقة كذريعة للكنيسة الإمبريالية العالمية الكبيرة التى تبارك الفقراء والمقهورين من العوالم

البعيدة وترفض أن تضع يدها في يد "هلدر كامارا" و"أرنستو كاردينال" و"ليوناردو بوف" و"أوسكار روميرو" و"إيكس زانوتيللي". هي إذن رسالة الدولية البروليتارية والثورية. ولكنها ماتت بآمالها وخذعها، وبمدينتها الفاضلة شديدة القوة التي لا تعرف إلا الحماس والعناد.

لدينا القليل، مما يمكن اعتباره غريبًا، نتخذه درعًا، والجو يزداد حرارة، حرارة الصحراء. لقد غرب كل شيء ونشئت وتبعثر وضاع وانهار وهوى.

فلنختر إذن أن نقرأ ونفسر ونقيم بشكل تحليلي التاريخ الأوروبي الحديث باعتباره تاريخًا استعماريًا من حيث المبدأ والفعل: وهو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينطلق بنا لكي نبني جزءًا من المسيرة نحو التريية تفاعلية الثقافة. متذكرين، ولا يكفي أن نردد هذا، أن الاتجاه العام هو الاستعماري العالمي الذي فرضته أوروبا على تاريخها وتاريخ العوالم، وهذا هو الذي تعتبره حدانته.

ينبغي أن نبدأ من التدريب على إعادة التعرف على أنفسنا كأوروبيين أصليين غربيين متحدين. هذه الهوية ثقيلة جدًا ومعقدة ومتعددة الطبقات. الأمر يتعلق في الحقيقة بهوية علوية وما إن نقرر أن نتعرف عليها نقدياً حتى تتحول إلى مشكلة عصية على التعامل معها. أين النقطة التي يمكن أن نطبق عليها رافعة "أرشميدس" كما يقول "كافكا" حتى نستطيع أن نرفع هذه المشكلة ونزيلها؟

قبل أن نواجه المشكلة ومحاولة نقلها من مكانها من الضروري أن أشرح لماذا استخدمت مصطلح أوروبي "أصلي".

"أصلي" هو مصطلح استخدمه الأمريكيون الشماليون الأوروبيون على

نطاق واسع فى الأوقات الأخيرة (بالتقريب عندما كان من بين أفلام الموضة فيلم "جميلة مع الذئب") كى يحل محل المصطلحات المبتذلة و"غير الصحيحة سياسيا" من فرط الاستخدام مثل: البدانيين والبرابرة والسكان الأصليين والهنود - أولئك الأمريكيون الأصليون الذين قرر الرئيس الأمريكى الشاب السابق وليام جيفرسون كلينتون أن يعتنى بهم من خلال برنامج "I care" - وهى العبارة التى تستخدم فى سياق التعبير عن شعوب مختلفة عن تلك الأوروبية أو من سلالة أوروبية. هذه الشعوب التى ذهبنا نحن الأوروبيين، "لزيارتهم" فى قراهم التى ولدوا فيها والتى لم يتحركوا منها فى معظم الحالات لزيارتنا فى بيوتنا لكى يستطيعوا أن يرونا بدورنا أوروبيين أصليين فى الأراضى الأوروبية.

وقول "أوروبى أصلى" لا يعنى بالنسبة لى وشم طابع طبيعى أو أصلى أو سكنى، وإنما على العكس أستطيع أن أقول: إن "الطريق ها هنا" كما يقول "مونتالى"، وهذا الطريق له قيمة عند من يستطيع أن يتعرف لدى الكينونة الأوروبية على المسئولية التاريخية ويتحملها، وهى المسئولية التى طال عمرها ثلاثة آلاف عام، ويعرف قيمتها وثقلها وشهرتها وإرثها وسقوطها وتراثها، المعنى والأزمة. ومن ثم فإن هذه هى المشكلة بالمعنى الحرفى للكلمة. مسئولية "ممكنة" نكتسبها جميعاً منذ الولادة مثل "الخطيئة الأولى" عند المسيحيين.

فإذا لم تصبح هكذا فإن الأصالة الأوروبية تكون بلا قيمة ومجرد نمط مكبر وذاتية المرجع وضارية، أكاديمية وأداة تستخدم كخاصية طبيعية، أرضاً بكرًا، تاريخاً وتراثاً، حضارة، نور العالم، إدعاء، مركزاً للعالم... إلخ ومما يُعقّد المشكلة أننا اليوم نقدم أنفسنا باعتبارنا أوروبى المولد فى داخل أوطاننا الصغيرة مع حلول غير الأوروبيين الذين يخشى منهم. فإذا

حاولنا بعد ذلك أن نتعرف على نواتنا، بطريقة أكثر قرباً وأكثر أصالة إن أمكن، كإيطاليين، فإننا نعقد المحاولة بدلاً من أن نبسطها.

نحن الإيطاليين الأصليين والأحياء توقفنا فى الواقع عن الإنجاب وعن الرغبة فى تخليد أمتنا. لقد أصبحنا بطريقة واضحة وقوية "الشعب الذى لا ينجب" والأقل نمواً فى العالم: الذراع اليابسة للأسننة.

هذا التفرد يأتى من شعورنا بأننا متعبون من أننا منذ وقت طويل لسنا على رأس الغرب، ونحن نرفض ولا نملك الدافع حتى نعيش أكثر من ذلك. لقد أصبحنا طبقاً للوقائع والإحصائيات - أول وآخر محطة للشعوب "الموروثة عن الأسلاف" - كما يصفهم "إدوارد جليسان"^(*).

خطر أن نصبح متحفاً مضمحلاً للحضارة المتوسطة تم توضيحه مؤخراً بصورة تامة فى وثيقة "قسم السكان" بإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة الصادرة فى ٦ يناير عام ٢٠٠٠ تحت عنوان "هجرة الإحلال: هل هى حل للسكان الذين تنخفض أعدادهم وتزداد أعمارهم؟". فمن بين الشعوب التى تتحلل بحكم تقدم الشيخوخة العمرية فيها، والتى تنتمى إلى أوروبا والدول الغنية (وبخاصة اليابان)، تعتبر إيطاليا من الأمثلة الصارخة. لنسمع ماذا يقول التحليل الإحصائى والاجتماعى للأمم المتحدة: تسير إيطاليا فى منحنى انخفاض عدد السكان الذى سوف يودى بها من ٥٧ مليون، وهو عدد السكان الحالى، إلى ٤١ مليون نسمة عام ٢٠٥٠م. فإذا أرادت إيطاليا أن تحافظ على مستوى سكانها الحالى احتاجت إلى تدفق للهجرة بمعدل ٢٤٠ ألف فرد سنوياً. فعدد السكان الإيطاليين فى سن العمل

(*) لنظر تعريفى به فى حاشية سابقة. (المراجع)

سوف يقل من ٣٩ مليوناً حالياً إلى ٢٢ مليوناً عام ٢٠٥٠م. ولكي تحتفظ بالمستوى الحالي للسكان في سن العمل فإن إيطاليا قد تحتاج إلى تدفق هجرة بمعدل ٣٥٠ ألف فرد سنوياً. وأخيراً فنظراً لأن العلاقة بين السكان القادرين على العمل وأولئك غير القادرين على العمل سوف يقل عن (١:٥ الحالية ٥ عاملين لكل طفل أو متقاعد) إلى علاقة كارثية ٢:١ (تشكل كارثة على نظام التقاعد وعلى نظام المجتمع ككل) وللحفاظ على توازن مقبول للعلاقة ٤:١ طبقاً لمعايير الأمم المتحدة فإن إيطاليا تحتاج في الخمسين سنة القادمة إلى ٢ مليون و ٢٠٠ ألف فرد سنوياً.

وبعيداً عن الأرقام، وهي بالفعل مذهلة، يبدو أن النصيحة الشعرية للشاعر "هولدرلين" محقة، على الرغم من أنها غامضة، ولكنها مع ذلك تستعمل كثيراً: ففي لحظة الخطر القصوى يأتي الخلاص بدوره. فإذا كنا، نحن الإيطاليين، الأوائل في العالم الذين لا يريدون أن يخلدوا فإن لدينا الفرصة غير العادية لكي نجدد أنفسنا بأن نمتزج مع من يأتي لكي ينجينا - تبدو سبة، أليس كذلك؟ - لكي نخلق مجتمع المستقبل ومجتمعاً للمستقبل. كما حدث منذ مدة في الكاريبي: حضارة يعوزها "إلهام التاريخ"، على حد قول الفائز بجائزة "نوبل" الزنجي ذي الشعر الأحمر "ديريك ولكوت".

هل نحن قادرين على أن نفهم كل هذا وأن نريده بالمثل؟ أستطيع أن أقول: لا.

نعود إلى مسألة جوهرية، وهي المشكلة الخاصة بنا، والتي تولدت عن الهوية العلوية للإحساس بكوننا أوروبيي الأصل والمولد. وأنا أقصد بالهوية العلوية شيئين مختلفين ولكنهما مرتبطان تاريخياً تمام الارتباط، وقد جاء بهما عنصر الأصل، أصل المولد الذي تحدثت عنه توأ.

في المجمل تعنى الهوية العلوية: أ) هوية متعددة وكثيرة الطبقات. ب)

هوية تتمثل فى الدافع لإرادة قوة قصوى (على رغم أنها هابطة فى الوقت الحالى، لكنها مشغولة بقوتها الثقافية) وهى التى دفعت الأوروبيين إلى غزو جميع العوالم الأخرى غير الأوروبية والسيطرة عليها بقوة ذلك الادعاء المسبق. وهو إدعاء يجمع بين الفكرى الفلسفى، والسلوكى المسيطر والعدوانى.

والعنصر الأول للهوية يمثل القاعدة المتقوية التى تم إدخال جسم العنصر الثانى فيها على المقاس تمامًا. والاثنتان معًا أنتجا ذلك "الشئ المشترك" الأحادى جيد الترابط الذى يجمعنا، نحن الأوروبيين، وهو: غزو جميع "عوالم العالم".

هذه المهمة-المصير - التاريخ أدت بنا إلى اعتبار العوالم الأخرى "بقية العالم"، وسكانها الأصليون مستثنون من امتياز - الامتياز الإلهى ربما - أن يولدوا أوروبيين.

ومن ثم اعتبارهم ببساطة غرباء ونتاج وأبناء إله أصغر. إجمالاً فإن تعريفهم ليس كأخرين، نعتبر بالنسبة لهم نحن أيضاً آخرين؛ حيث لن نعود نحن بعد، وإنما تعريفهم بالنسبة لنا فقط هو حركة نحو المركز صنعت مركزيتنا الأوروبية التى يستحيل التعامل معها. بالنسبة لهذه المركزية الأوروبية فإن البشر من العوالم الأخرى ليسوا إلا بشرًا "غير متساوين معنا"، وإنما هم من "خارج أوروبا" وقد أصبحوا اليوم أيضًا من خارج "الاتحاد الأوروبى".

لا يتعلق الأمر بالمركزية العرقية العادية التى استخدمتها كل دولة لتميز نفسها عن الدول المجاورة لها، التى تكون دولاً تتألف من بشر حقيقيين، ولكنها قد ينظر إليها على أن أهلها من البرابرة الأعداء (إن عبارة "أباتشى" أصبحت هى نفسها تعنى كلمة "عدو" فى اللغة الدارجة). فالمركزية

الأوروبية هي الذروة التي لا يمكن تجاوزها لمجموعة من المركزيات الأوروبية؛ لأنها تنزع القيمة عن بقية العوالم مقارنة بنفسها، بما في ذلك العوالم البعيدة جدًا، وتغير وتحول للرأى المركزى العرقى إلى تفوق عالمى لما هو أوروبى الأصل والمولد.

ومن خارج الاتحاد الأوروبى هم دائمًا وفى جميع الأحوال من الخارجين، أى أنهم أناس "خارج اللعبة" قدرًا، ويعيدون ليس لهم مركز أو أية هوية، باستثناء حالات قليلة ومحدودة مثل: الإسلام والصين واليابان.

أما المولودون من خارج المجموعة فإننا من الممكن أن نفعل فيهم ما نشاء ونحب: أن نذبحهم ونسلخهم ونحرقهم، ونقلصهم إلى مجرد عمالة وسخرة مقيدين بسلاسل ودون مكافأة أو تعويض، ونهلك دولهم، ونضعهم فى معرض المقتنيات الإمبريالية الاستعمارية، ونتجول بهم فى أوروبا مثلهم مثل التماسيح والأفيال والسباع؛ فهم فى نهاية الأمر جنس أدنى من البشر، أو بشر حيوانى.

ماذا يحتوى المكون الأول من الهوية العلوية الأوروبية الذى يتمثل فى الهوية التعددية متعددة الطبقات؟

يتكون هذا العنصر من موكب ما تمخض فى رحم العصور الوسطى. فى تلك العصور - التى تم تعريفها لزمان طويل بأنها "مظلمة" - ولدت وأقرت وجندت الطرائق التى من خلالها تم تشكيل ما أطلق عليه اسم "ولادة أوروبا" (والتي كانت حتى ذلك الوقت غير موجودة فى الواقع) فى مخيلة وضمير أولئك الذى كانوا يملكون صك احتكار الخيال والواقع والضمير: النبلاء والفلاسفة والأدباء والقسس.

وهذا الموكب تم تحديده فى قوالبه الأساسية: (أ) الملحقات، روما وبدخلها أثينا، مثلما كانت فى البداية أثينا وبدخلها مصر الإفريقية وآسيا

المتوسطة. ب) المستوعبات، تشكلت المسيحية كهنوتًا كاثوليكيًا يبتلع المسكونية الإمبريالية الرومانية والهيلينية، والشعوب الجرمانية المنتصرة استوعبت بدورها الكلاسيكية والمسيحية وفكرة الإمبراطورية الأوروبية-العالمية. ج) الناهضات: العصور القديمة الكلاسيكية تعود إلى الحياة وتنهض مرة أخرى وتتجدد وتبعث وتحيا من جديد تأكيدًا للتراث: كاستعادة للزمن الماضى وكلاسيكية جديدة فى الوقت نفسه.

وتتعادل هذه القوالب داخل حضن الإمبراطورية الرومانية المقدسة والتي أظهرت الهوية الأوروبية وحدة غير متجانسة ومركبة ومتعددة الطبقات ومترامية: هوية علوية مركزة تركيزًا قويًا على نفسها وقادرة على التخصيب الذاتى. ومن الغريب جدًا أن نعرف أنه فى ذلك الوقت كان جيراننا العرب يصفون أوروبا بأنها كيان صغير وهمجى داخل العالم الذى كانوا يعرفونه، وكانت "بواتيه" من المعارك الكثيرة التى خاضوها على الضلع الغربى لأملاكهم.

ومع غزوات "كولومبوس" و"فاسكو دا جاما" - كانت وراء تحول العالم إلى الحداثة كما أوضح ببراءة الشابان "ماركس" و"أنجلز" فى المانفستو عام ١٨٤٨- فإن أوروبا التى بنت نفسها من خلال قوالب الموكب التى تكلمنا عنها أنفأ، قفزت قفزة أنثروبولوجية: انطلقت بمراكبها ومدافعها لى تغزو العوالم كلها. ولم تتوقف سوى فى عام ١٨٩٨ وبالتحديد فى ذروة توسعها العالمى، عندما دعاها "كيبيلنج" برقة أن تتنازل لصالح الأمة الكبيرة والشابة الأمريكوساكسونية، وفى القرن التالى، وهو القرن العشرون والذى انتهى منذ فترة قصيرة، اكتملت دموياً عملية الخلافة.

وأوروبا التى تغزو العوالم كلها تظهر أكثر النوازع جشعًا لإرادة السلطة فى تاريخ الجنس البشرى على ظهر الأرض؛ فقد فازت بها - أى

الأرض - وسيطرت عليها كلها، وحيث واجهت دولاً تقاومها فإنها حاصرتها وتحكمت فيها وقيدتها اقتصادياً وشلت حركتها و"حدثتها"، وخنقتها بالحصار الاقتصادي. والمركزية الأوروبية المتمركزة حول الداخل وحول نفسها أفرغت كل ما حولها وفي كل اتجاه، وأكدت نفسها كعملية تحضير عالمية، أى المركزية الأوروبية التي تفيض على غيرها وتغمره. تتوسع أوروبا ناحية جميع نقاط الكرة الأرضية وتحمل معها قانون غزوها الحديدي والذي يتمثل في الرأسمالية الإمبريالية.

وقد سبق لى أن قدمت على نحو واسع النتيجة الثانية المترتبة على الهوية العليا والتي ترتبط ارتباطاً شديداً بالنتيجة الأولى. وهى ناشئة من الخليط الفلسفى واللاهوتى (بداية من الفكر الأفلاطونى حتى الهيجلى) والذي جعلنا مقتنعين - ومقنعين بالخير أو بالشر - بأننا الأفضل، وذروة تطور النوع البشرى، بل إنها لنهاية صحوة طويلة للمادة الكونية التى حلت علينا كى نحس بأننا واعون بذواتنا، كما يؤكد على ذلك "المبدأ الإنسانى" فى نهاية القرن العشرين.

وبالتحديد من هذا الوعى بالذات السامية لجنسنا المتربع فوق قمة النوع البشرى والتي حملتنا، نحن الأوروبيين، بداية من العصور الحديثة - منذ المغامرين البرتغاليين الصغار حتى العظماء الروس - إلى التوسع فى كل مكان حول المحيطات والقارات لإخضاع العوالم جميعاً باسم وبقوة وبمنطق حضارتنا ولفائدتها. لقد أمرنا "برحمة وشفقة" - كما كان يقول "فرجيل" عن المصير الإمبريالى الأوغسطى - أن نتولى مهمة تحضير العالم. "الرجل الأبيض الأخ" (*) كما فى مدائح "كبلنج" عام ١٨٩٨ (والذى لن يصيبنى الكلال

(*) انظر فى هذا السياق كتاب: أساطير بيضاء، تأليف روبرت يانج. وهو من منشورات المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة فى القاهرة. (المراجع)

من تقديمه إليكم المرة ثلو الأخرى ما تمت لم أترك هذا الكتاب). مهمة "إمبريالية" مشتركة بين الجيزويت والإسبان والحكام البريطانيين للمستعمرات والتجار الهولنديين والتتويريين الفرنسيين والفاشيين الإيطاليين وحتى مسئولى الإمبراطور والجيش الروسى الذين ما زالوا يحتلون نصف قارة آسيا.

الرجل المذكر الأبيض الأوروبى ثم خليفته الأمريكى قاموا بغزو أراضي العالم جميعها وانتشال "البدائيين/ الأصليين" من العزلة والجهل، ووصلوا حتى باتجونيا وتاشمانيا وفلايفستوك وأطراف الأسكا.

هذه الهوية السوبر ضغطت بكل ثقلها حتى إنها عند حد معين مزقت وحطمت سقف هويتى الأصلية. لا يكفينى أن أسمع "باخ" و"فيفالدى" و"شوبان" و"ديبوسى"، حتى أحس بأننى أفضل. وانطلاقاً من هذا الانهيار بدأت حركة قلقة ومدمرة ومرتابة فى الوقت نفسه من النقد الذاتى. ومنذ أن بدأت منهجة هذه الحركة وتحويلها إلى نوع من التربية لى وللآخرين أطلقت عليها اسم "التخلص من النزعة الاستعمارية الأوروبية".

فى هذه النقطة ينبغى أن يكون واضحاً أن هذه الممارسة الشعرية تعنى: واجب التخلص من النزعة الاستعمارية، من حيث إننا أصليو المولد، من كوننا ولدنا واكتسبنا هويتنا كأوروبيين. ولا ينبغى أن نؤدى هذا الواجب وحدنا أو على نحو أكاديمى مدفوعين بحالة من التفاخر "الفلسفى" الشديد، الذى ينتمى إلينا بمقياس رفيع، ونمارس هذا الواجب مع الآخرين أساساً وقبل كل شىء، ذلك أنها ممارسة شعرية وليست نظرية. وخاصة مع أولئك الذين قطعنا عليهم تاريخهم والذين منذ سنوات عدة جاءوا لزيارتنا فى بيوتنا فى أوروبا. لم يجئوا بالقطع طلباً للثأر أو بروح الغزو، وإنما لكى يعيشوا بين ظهرانينا، بكرامة الرفقة. بالروح نفسها، ربما، التى كانت لأجدابنا وأمهاتنا عندما سافروا إلى القارات الأمريكية البعيدة - كما كان يقول المعلم "جيبينو" - لكى يكونوا الثروات.

يتعلق الأمر بحدث يبدو حاليًا كأنه مصيبة ليس لها مثيل وغير معتادة وغير محتملة وغير عادلة ومزعجة، من رد الفعل المفاجئ والباعث على الضيق من لقاء في بيتنا يهزنا ويفلت من أيدينا - نحن الذين نسيطر على كل شيء منذ قرون - خرجت الموجة الأخيرة الكارهة للأجانب في أوروبا، والتي جرى اعتبارها موجة ثائوية ورجعية. أما الموجة الأساسية والعنوانية، والتي ظلت لقرون عسيرة على السيطرة، فقد اعتبرت بمثابة المنتهية في أوروبا برحيل هتلر وأتباعه.

هذا "التاريخ الجديد" لأوروبا يتطلب مقاومة وقدرة شجاعة على الثورة للوقوف في مواجهة هذا المعنى من الدهشة المرفوضة وهذه الجلالة المجروحة التي تصيب أي أوروبي أصلي المولد، حتى وإن كان في تلافيف النفس السفلية، حتى ذلك الذي بدأ طريقه نحو التخلص من النزعة الاستعمارية. مثل ربح غير مواتية وغنيمة يداهمنا الإحساس بأننا نتعرض لغزو من "الخاسرين في الأرض"، وأنا ينبغي أن نحمل أنفسنا، ونطردهم خلف السور العظيم الذي يحمي مركز العالم والذي لا يخص سوانا: المركز والعالم.

هذا "التاريخ الجديد" يستدعي استعدادًا نحو الآخر لا يمكن تقليصه أو حله في إطار المصادر القديمة للإحسان المسيحي والتضامن العلماني (من الأبيقورية^(*)) وحتى التحول إلى اليسار، حتى بعد، وعلى الرغم من، سقوط الشيوعية). ويبدو أن هذا التاريخ يطلب منا فضيلة جديدة تمامًا ومعقدة، وهي قبل كل شيء فضيلة نقدية تتمثل في الوصول إلى الاعتراف بأن النزعة نحو

(*) مذهب الفيلسوف القائل بأن اللذة هي الخير الأسمى. (المترجم)

كراهية الأجانب ما هي إلا عرض عتيف للخوف من انقلاب الأوضاع، الخوف من التهديد والمطالبة بالثأر من المغزو للغازي، الخوف من أنهم جاءوا لكي يصبوا علينا العنف الذي سبق أن تعرضوا له، الضربة المضادة الأخيرة، في بيوتنا الغنية، كراهية الاستعمار التي تصل إلينا الآن على حين غرة. يبدو أننا وقعنا في شرك حالة مأساوية زائفة نتخيل من خلالها أن التاريخ وضعنا أمام ذنب استعمارنا الزائد عن الحد. وهي حالة لا تحتمل، أن تطاردنا اليوم أخطاء الماضي، كأنه أحد أفلام الرعب الأمريكية. وما ينبغي أن نضعه نصب أعيننا واضحاً جلياً هو أن كراهية الأجانب ليست مرضاً وإنما مجرد عرض أو رد فعل لما نتخيل أنه حدث فجأة من عقاب مردود على شكل هجرة مسالمة، إحساس بالذنب، ليس واضحاً، يتم إسقاطه على حدث يفلت منا ونقوم نحن بشحنه باتجاه صراعي. هذه الفضيلة يجب أن تتجاوز هذه العقدة، وتضع قيد الاختبار قدرتها النقدية إلى آخر مدى كي تبرهن على أن ما يحدث ليس غزواً انتقامياً غادراً تحت عباءة الهجرة الفقيرة المتسولة، وإنما تسارع للتاريخ ومنحنى جديد لتطور النوع البشري، ليس له علاقة بانتقام متخف ولا بخوفنا وإحساسنا بالخجل. وهذه الفضيلة ينبغي أن تتمكن من أن تصبح عملية، وتبتكر طرائق للاستضافة العمومية وليس فقط التسامح و"سياسة الاستقبال" البخيلة التي أحياناً ما تكون مريرة.

والاستضافة العمومية تتمثل في استقبال الآخر استقبالا حقيقياً كأنه واحد يعود وليس كدخيل متطفل غير مرغوب فيه جاء في وقت خاطئ أو مغترب، أو حتى كمننقم انقلابي أو سفاح ليلي، وهو أسوأ الاحتمالات.

هو واحد يعود ليس لأنه كان ذات يوم بيننا، وإنما لأنه يأتي إلينا الآن لكي يرد إلينا الزيارة، لأنه التقى بنا في بيته وسببت له زيارتنا الدمار الشامل والآن يأتي هو (غير عادي) دون روح الانتقام، ليس لإخضاعنا وإخراجنا

من ملتنا، وإنما لدعنا، لكي يصبح جزءًا منا، لكي يغير حياته وحياتنا، ويجعلنا نغير ونصبح آخرين، مثلما أصبح آخرين عندما نرقص الراقص والمambo والتانجو أو نأكل الكسكس. لم يكن منتظرًا، ولكنه كان يجب أن يكون منتظرًا. فنحن عندما ذهبنا إلى عالمه، وكنا مجهولين وغير منتظرين بالنسبة له، لأنه لم يكن قد رآنا من قبل، قابلونا بالترحاب أكثر من مرة، بل إنهم أيضًا أحبونا. ولا يزال هذا يحدث حتى اليوم، على الرغم من كل شيء (حدث لي هذا بالفعل في إفريقيا وفي الكاريبي، وليس في اليابان أو الولايات المتحدة).

هل نعرف أخلاقيات الاستضافة الجديدة وأسلوبها؟ أستطيع أن أقول لا. فإذا كان ذلك حقيقياً فإن أقصى ما نعرفه هو أن نتظاهر بأننا نسقط لفقرنا الأرض جزءاً من الديون، ذلك الجزء غير الضروري، ونتظاهر بأننا حساسون نستجيب لتضرعات نجوم نظامنا من الفنانين الذين يغذون الخيال، ولم نعد شيئاً في ترسانتنا الضخمة للعلوم والتقنية والممارسات والتجارب لهذا الشيء. كأن المسيحية تكفى. ولكن أى مغزى يحمله الاستعداد والتربية لكي نستقبل الآخرين؟ ثم الآخرين تحديداً الذين سبق لنا زيارتهم وغزوهم وتدميرهم؟

مرة أخرى فإن المسألة ليست إسقاط جميع ديون البلاد "الفقيرة" وهى المهمة التى تأخذها على عاتقها الجهات الخيرية جميعاً من الفاتيكان إلى النقابات الأوروبية، ومن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية إلى متطوعى "يوبيل ٢٠٠٠" وما شابهها، وإنما المسألة هى فى التربية الجديدة والعاجلة وفعاليتها الثقافية والتي يمكن أن تقودنا لرؤية بالغة الدقة لما يجب علينا، نحن الغربيين، أن نعيده للعالم ونجعل من مثل هذه المعرفة عنصراً تعليمياً للجميع.

إن إسقاط الديون ما هو إلا مناورة صغيرة محسوبة للمسرح المالى

العالمى وطقس من طقوس التطهير للدين المسيحى. ينبغي أن نتجاوز هذا بعزم مؤكد ونتجه نحو عملية التعويض غير المحسوبة، وهى عملية لها ما يبررها. ذلك الذى يجب علينا - يجب، هذا هو المعنى المقصود - أن ندفعه لقارات وتواريخ كاملة. وهو ما لن ندفعه أبداً، لأنه غير قابل للحساب، وزائد جداً عن كل الحدود، لأننا لن نستطيع أن نعرف الطرائق التى يمكننا أن نفعل هذا بواسطتها، وقبل كل هذا لأننا لن نعرف أبداً أنه لابد من دفعه. من سوف يعلمنا أن نفكر فى هذا ونرغب فيه؟

هذه بعض أبعاد عدم قابليته للحساب. وهناك معطى آخر من المعطيات ناشئ عن عدم تناسب ضخم سوف يستمر دائماً فى الوجود بين ما هو قابل للرد وما تم الاستيلاء عليه. هل نستطيع أن ندفع بأعمال "ليوناردو" و"فيديا"، "بالكولوسيوم" و"برج إيفل"، "بفينيا" والزراعة فى سهل "بادانا" كلها، "بالناشيونال جاليرى" و"لشبونة"، بالبنك الألمانى المركزى، بأشبيلية وسانتياجو دى كومبوسيتلا، بمتحف "فان جوخ" بأمستردام، بالقبة السيستينية والبندقية وصناعات السيارات؟ بتلال "كيانتي" و"جرينويتش"؟ بأى شىء؟ عدم التناسب يحدده عاملان متداخلان ولكنهما لا يتقابلان: نحن لن نتنازل على الإطلاق عن علامات هويتنا وكنوزها وهم لن يعرفوا ماذا هم فاعلون بتماثيل من الرخام، ولا بنصب ضخمة من الصخر والحديد، ولا بتلال ممهدة أصبحت تنتج نبيذاً ولا بخلفيات اللوحات ولا بمصانع السيارات. ماذا عساها أن تفعل فى الساحل الإفريقى وحوض الأمازون؟

وحتى نصبح قادرين على زرع الاستضافة غير المسبوقة وإنتاجها نحو المستقبل الذى يأتى فى عكس اتجاهنا ككرة التنس المرتدة فيضربها مضربنا، نحن الأوروبيين بالأصل والميلاد، يجب علينا أن نتقدم للأمام وننجح فى عملية التخلص من النزعة الاستعمارية داخل مدرسة العوالم.

وماذا نفع حتى يتم قبولنا في هذه المدرسة دون أن ندفع ما علينا لجميع العوالم التي تنتظرنا على عتبة لجنة الامتحان؟ إننا نجعل، بل ليس لدينا، الأدوات العقلية التي تعيننا على استيعاب التخلص من النزعة الاستعمارية وتحويلها إلى مفاهيم وأفكار، وكل هذا لا يخطر لنا على بال، ولكن على العكس كانت النزعة الاستعمارية على البال وقابلة للحساب والتحقيق. في نهاية الموكب الإمبريالي نتعلق، نحن الإيطاليين، فاقدين للذاكرة، فلا نتذكر أننا كنا مستعمرين في إفريقيا لقرن من الزمان: من عام ١٨٦٩ (العام الذي استولت فيه شركة "روباتينو" على خليج عساب Assab في دنقلة Dancalia) وحتى عام ١٩٦٠، نهاية مهمتنا التي كلفتنا بها الأمم المتحدة في الصومال، وفي ألبانيا، وفي إيجيه وفي الصين.

وأرى في النهاية ومرة أخرى أن التربية تفاعلية الثقافة عالميا بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، يمكن أن تبدأ من هنا: من الدراسة المطولة، "عكس اتجاه الوب" كما كان يقول "فالتر بنيامين"،^(*) لعكس معنى تاريخنا واتجاهه

(*) (١٨٩٢ - ١٩٤٠) من أجمع أعضاء مدرسة فرانكفورت النقدية" وأتقنهم فكراً. وقد اكتشفت في ستينيات القرن الماضي فضيحة استبعاد تيودور أدورنو" الذي كان قائماً على نشر أعماله بعد وفاته، الفقرات الثورية منها. وقبل شهور معدودة من رحيل بنيامين وهو يحاول عبور الحدود بين فرنسا وإسبانيا هرباً من ملاحقة قوات النازي التي انقضت على فرنسا آنذاك كتب يقول: "إن تراث المقهورين يعلمنا أن حالة الطوارئ التي نعيشها الآن (عام ١٩٤٠) ليست استثناء، وإنما هي القاعدة. وعلينا أن نفهم التاريخ بهذا الوعي؛ لذلك فعلينا أن نقيم حالة طوارئ حقيقية، لأن ذلك يعزز موقعنا في نضالنا ضد الفاشية. فمن بين الأسباب التي تهيئ الفرصة للفاشية كي تمارس قهرها أن المناضلين ضدها يتعاملون معها من منطلق التقدم على أنها معيار =

كتاريخ غزو وتدمير لتطور العوالم، لكي تعدنا هذه الدراسة على نحو صحيح
لاختبارات التوافق مع التخلص من النزعة الاستعمارية.

لنغلق مؤقتاً هذا الحديث ونعود إلى الأدب. ففي نهاية الأمر أنا أحد
رجال الأدب، بل إننى، وإن بدا لكم هذا غريباً، أتحدث هنا كأحد رجال
الأدب^(*).

إن العوالم تتحاور فيما بينها على نحو "طبيعى" من خلال تواريخها
الخاصة ونصوصها الخاصة المتعلقة بالرغبات والابتكارات. وهى تتراسل
من خلال الترجمات وتبادل ومزج تواريخهم ورغباتهم وابتكاراتهم، الذهنية
واللغوية، ومن خلال تبادل ومزج موسيقاهم ورقصاتهم.^(**)

ستاريخى". ترى كم يصدق هذا التحليل بالنسبة إلى الصراع الدائر حالياً بين الشعوب
العربية والفاشية الإسرائيلية؟! من بين أشهر دراسات بنيامين: "العمل الفنى فى عصر
استنساخه التقنى" (انظر ترجمة المراجع لشرط مهم منها عن الأصل الألمانى فى العدد
الرابع من مجلة "ضاد" التى يصدرها اتحاد كتاب مصر). (المراجع)

^(*) قارن هذا الموقف الثورى والعقلانى الحقيقى (الموضوعى) بموقف أولئك الذين
يقضون عمرهم كله فى خندق درس البنيات البلاغية للأدب، بينما لا يفقهون أن ما
يفعلونه بعيد كل البعد عن المبحث الحقيقى للأدب باعتباره بنية تعبيرية لغوية جمالية،
لأن موقفهم هذا إنما يساعد على الفصل بين الجمالى والحقيقى، بأن يغطى الجمالى
على الحقيقة التى تتعلق فى صلبها بعلاقات الناس بعضهم بالبيعض وبالطبيعة من ثم،
بما فى ذلك "طبيعتهم" هم أنفسهم، وطبيعة سواهم من البشر، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ
من الطبيعة الأم. (المراجع)

^(**) انظر الحاشية السابق وضعها فى هذا الفصل تعليقاً على علاقة التفاعل المتبادل بين
الموسيقى والرقص، خاصة فى أمريكا اللاتينية.

والعوالم التي استعمرناها قاومت قدر استطاعتها، كما فعلت على جبهة الاختلافات الدينية العقائدية، ولكن هذه الجبهة بالتحديد هي جبهة حروب وانعدام تفاهم، وكراهية واجتياح ودمار. وفي النهاية لم ترد العوالم على أوروبا بالعلم والفلسفة لأنها أحست أنها سد زجاجي، وشكل للحضارة أكثر قسوة وغبابة، كانت إمبريالية الذهن الأوروبي تقدمه حتى وإن كان بشكل ثانوي وغير مركز. الله والقانون والربح كانت في الواقع هي الأحداث الرئيسية. لقد تحملت العوالم الفلسفة والعلوم الأوروبية، أو على أقصى تقدير استوردتها وقلدتها. اليابان فقط هي التي ردت، كمنافس، على التقنية - وهي ليست روحاً وإنما تسليح وترسانة للجهاز الذهني الأوروبي (فلسفة/علم/رأسمال) - ووصلت إلى الغرب وتجاوزته في كثير من المواضع خلال خمسين عاماً.

وعلى العكس نقرأ بحرية "كواباتا" و"سوينكا" و"أتشنج" و"الكوت" و"توني موريسون" و"محموظ" و"كلاريس ليسبكتور" و"ماركيز" و"أنيتا ديزاي" و"تادين جورديمر"، كما يقرأون في الصين وبيرو ومصر واليابان وجنوب إفريقيا والبرازيل "دانتي أليجييري" و"شكسبير" و"بودلير" و"توماس مان" و"ديكنز" و"سيرفانتس" و"رشدى" و"كونديرا" و"ساراماجو". ونستمع "بالمامبيست" الكوبيين القدامى، "جايتانو فيلوزو" و"دى أندريه"، و"طبول" خالد ومجموعة "الأندوربيان أنسامبل"، والراقصين الدروايش، واليوتو. نحن وانقون من هذا. ونحن كذلك مشاركون فيه ومنفتحون ومستعدون لتربية وتعليم أنفسنا القراءة الجماعية والغناء الموسيقي الراقص العالمي. إن الاستعداد الذي يفتح على التربية وعلى تذوق مفهوم الأخوة يعمل بالتراسل والترجمة والمزج. والتراسل يعنى التجاوب الذي يتحول إلى حوار ليس مع أنفسنا وإنما بالصورة التي كانت عليها المراسلات الرسولية رفيعة المستوى. أما الترجمة فتعنى أن تنقل نفسك خارج نفسك من خلال لغتك الخاصة

وتصبح ملكاً لغيرك عن طريق لغته. وأخيراً فإن المزج هو أن نكون معاً. إن ذلك الذى لا يمر من خلال هذه الكلمات الثلاث إنما هو "ضد" مستقبل مجتمع تفاعلى الثقافة.

وأرى أن القاعدة الأولى التى يمكن تقديمها وتعليمها للضمانر جميعها هى تحديد طرائق أخلاقية للتعويض الذى لا يمكن إحصاؤه، بوصفه هدفاً، وإن لم يكن الهدف النهائى، للتخلص من النزعة الاستعمارية الأوروبية. ينبغى قبل كل شىء أن نحرر البحث بجميع الطرائق الممكنة حتى يمكن أن نمارسه أفراداً وشعوباً. ولكى نفعل هذا نحتاج إلى ابتكار تربية جديدة للإنسان الحر: الشكل الوحيد للتجانس اللازم لكى نعيش المستقبل بتاريخ مختلف أو كما يقول الأوروبيون للعالمية.

إن الممارسة الشعرية التى تقترح التعويض الذى لا يحصى من جانب الأوروبيين تجاه العوالم الأخرى التى ذاقت منا الضرر، قادتنى إلى أن أجد نفسى على صلة بالخطاب القوى والواضح للزعيم الهندى "جوايكايپورو كواووتيموك" الذى وصلنى عبر البريد الإلكترونى يوم ١٢ مارس عام ٢٠٠٠. وكأوروبى يتخلص من النزعة الاستعمارية بكل ما أوتى من جهد قرّ فى قلبى فرح ومكافأة أحسست بهما عندما توصلت إلى إحدى البديهيات مع عقل/شخص غير أوروبى:

التاريخ: الأحد، ١٢ مارس ٢٠٠٠ الساعة ١٩:٣١:٠٥ + ١٠٠.

الموضوع: الدين الحقيقى - خطاب من زعيم هندى

المصدر: بوونه نوفه

وكالة أنباء إلكترونية إنسانية تنشر فقط الأنباء التى تدور حول التقدم

الاجتماعى والعلمى والثقافى للكائن الإنسانى الدين الخارجى الحقيقى

خطاب من زعيم هندى إلى الحكومات الأوروبية

هكذا أصبحت هنا، أنا الزعيم الهنذى "جوايكايپورو كواورتيموك"،
جئت لكى ألتقى المشاركين فى هذا اللقاء.

هكذا أصبحت هنا، أنا سليل أولئك الذين سكنوا أمريكا منذ أربعين ألف
عام مضت، جئت لكى ألتقى بأولئك الذين عثروا عليها قبل خمسمائة عام.

هكذا أصبحنا جميعًا معًا:

نعرف مَنْ نحن، حق المعرفة.

لا نحتاج لشيء آخر.

الأخ رجل الجمرك الأوروبى يطلب منى ورقة مكتوبة

بالتأشيرة لكى أكتشف مَنْ اكتشفونى.

الأخ المرابى الأوروبى يطلب منى

أن أدفع دينًا لعقد خونة

لم أخولهم قط سلطة أن يبيعونى.

الأخ المحامى الأوروبى يشرح لى

أن كل دين يسدد بالفوائد، حتى وإن كان لقاء بيع

كائنات بشرية وبلدان بأكملها دون طلب موافقتها.

هذا هو ذلك الذى اكتشفه الآن.

أنا أيضا أستطيع أن أزعم أن لى ديناً

وأنا أيضا أستطيع أن أطلب الفوائد.

أرشيف بلاد الهند يشهد

صفحة من بعد صفحة، إيصالاً بعد إيصال، توقيعاً بعد توقيع.

يتضح أنه ما بين ١٥٠٣ و ١٦٦٠ فقط

وصل إلى سان لوكار دى باراميدا ١٨٥ ألف كيلوجرام من الذهب

و ١٦ مليون كيلوجرام من الفضة قادمة من أمريكا. نهب؟

حتى هذا لم أظنه!! لماذا أظن أن الإخوة المسيحيين يعصون الوصية

السابعة؟

سلب؟ يطل على "تاناترين" من الخيال ويقول: إن الأوروبيين، مثل

كاينو، يقتلون ثم ينكرون دم الشقيق! مذبحة؟

لو كان الأمر كذلك لأصبحنا نصدق الوشاة

مثل "بارتولوميو دى لاس كازاس" الذين اعتبروا أن هذا الاكتشاف

بمثابة تدمير لبلاد الهند. أو وجهى السباب مثل الدكتور "ارتورو بييترى"

الذى يرى أن تطور الرأسمالية والحضارة الأوروبية الحالية يدينان بالفضل

لفيضان المعادن النفيسة.

لا هذه مائة وخمسة وثمانون ألف كيلوجرام من الذهب وستة عشر

مليون كيلوجرام من الفضة لا بد أن تعتبر أول اقتراض من الاقتراضات

الودية العديدة. من جانب أمريكا لتتمية أوروبا.

التفكير فى عكس هذا قد يعنى افتراض وقوع جرائم حرب.
وهو ما يعطى الحق ليس فقط فى طلب الاسترداد الفورى ولكن أيضاً
التعويض عن الأضرار والنصب.

أنا، "جوايكايبيرو كواوتيموك"، أفضل أن أصدق الفرضية الأقل جوراً.
فعملية تصدير خرافية لرعوس الأموال مثل هذه لم تكن سوى بداية
مشروع "مارشال-تزو" مقدم لضمان تعمير أوروبا الهمجية التى دمرتها
حروبها المأسوف عليها ضد طوائف المسلمين المدافعين عن الجبر وعن
تعدد الزوجات وعن النظافة اليومية وقيم أخرى سامية من قيم الإنسانية.

ولهذا، ومع حلول الذكرى الخمسمائة للاقتراض، نستطيع أن نسال
أنفسنا: هل استخدم الأخوة الأوروبيون الموارد التى منحها لهم بسخاء
الصندوق الهندوأمريكى الدولى استخداماً مرشداً مسئولاً أو على الأقل منتجاً؟
يحزننا أن نقول: لا.

لقد بددوها من وجهة النظر الاستراتيجية فى معارك لبيانتو وفى
الأسلحة الفتاكة وفى الرايخ الثالث، وفى أشكال أخرى من الإبادة المتبادلة،
لكى ينتهى بهم الأمر إلى أن تحتلهم جيوش أمريكا الأطلسية، مثل بنما (ولكن
بدون قناة).

ومن وجهة النظر المالية كانوا عاجزين بعد فترة سماح ٥٠٠ عام،
سواء عن إعادة رأس المال والفوائد أو الاستغناء عن عوائدها السائلة، وعن
الخامات والطاقة ذات السعر البخس التى يصدرها العالم الثالث.

هذه الصورة المؤسفة تؤكد ما أكده "ميلتون فريدمان" والذي يرى أن الاقتصاد المدعوم لن يمكنه أبداً أن يؤدي وظيفته ويجبرنا أن نطلب - لخيرهم هم أنفسهم - أن نعيد رأس المال والفوائد التي انتظرنا بكرم وسخاء المطالبة بها طيلة هذه القرون.

بعد هذا نود أن نحدد أننا لن نتدنى ونطالب الأخوة الأوروبيين بتلك الفائدة الدموية الجبانة من ٢٠ إلى ٣٠ % والتي يطالب بها الأخوة الأوروبيون بلاد العالم الثالث.

سوف نقصر على المطالبة بإعادة المواد النفيسة التي استعاروها، ثم فائدة متواضعة قدرها ١٠% سنويا متراكمة في السنوات الثلاثمائة الأخيرة. على هذا الأساس، وبتطبيق القاعدة الأوروبية للفائدة المركبة، نحيط المكتشفين علماً أنهم مدينون لنا كدفعة أولى مما عليهم، بمائة وخمسة وثمانين ألف كيلوجرام من الذهب وستة عشر مليون كيلوجرام من الفضة مضاعفة ٣٠٠ مرة.

وهذا يعنى رقماً يكتب بثلاثمائة صفر أمامه، ووزن يفوق بمراحل وزن الكرة الأرضية. كم هي ثقيلة هذه الكتلة الضخمة من الذهب والفضة! وكم يكون ثقلها إذا ما حسبت بالدم؟

والزعم بأن أوروبا لم تفلح في توليد ما يكفي من الثروات في نصف ألفية من الأعوام لكي تشطب هذه الفائدة الزهيدة سوف يكون، هذا الزعم، مثل الاعتراف بكارثتها المالية المطلقة و/أو اللاعقلانية الواسعة لأسس الرأسمالية.

على أى حال فإن هذه المسائل الميتافيزيقية لن تحزننا نحن

الهندوأمريكيين. ومن ثم نطلب التوقيع الفوري لميثاق نوايا تسير على هديه الشعوب الدائنة للقارة العجوز والالتزامات التي ينبغى إلزامها بها من خلال الخصخصة الفورية أو إعادة تأهيل أوروبا حتى تسلم لنا بالكامل كدفعة أولى من هذا الدين التاريخي.

يقول المتشائمون من العالم القديم: إن حضارتهم تسير نحو الإفلاس الذي يمنعها من سداد التزاماتها المالية والمعنوية.

في مثل هذه الحالة سوف نسعد بأن يدفعوا لنا بإعطائنا الرصاصة التي قتلوا بها الشاعر. ولكن لن نستطيعوا. لأن هذه الرصاصة هي قلب أوروبا.

جوايكايبيورو كواوتيموك

وترى صديقتي الفنزويلية "تريزا أداريو" بخصوص هذا الاسم الثنائي، "جوايكايبيورو كواوتيموك"، أنه يجمع بين شخصيتين أسطورتين في تاريخ المقاومة الهندية للغزو الإسباني، شخصيتين مختلفتين وبعيدتين، تم استجماعهما في هوية اسمية للمقاومة والمعارضة، الأرتيكية والكاريبية. فلنسمع ماذا نقول: عند موت "مونتيزوما" خلفه بالانتخاب "كواوتيموك"، وهو شاب نبيل مقدم من البلاط: ويقال إنه كان شاعرًا شهيرًا. وكان "كورتيس" قد أصبح غير قابل للردع، فاستولى على عاصمة "الأزتيك" - الأرض التي كان يسكنها هنود أمريكا الوسطى ومركزها المكسيك - وقام بمذبحة وأجبر الحاكم الجديد على التنازل له عن الذهب كله. ثم سجنه بعد ذلك وأحرق قدميه ثم قتله (بطلقة رصاص؟) يوم ١٣ أغسطس عام ١٥٢١. وهذه الشخصية البطولية البائسة للشاعر تم تسجيلها شعرًا ملحميًا كأنه هو نفسه

الذى كتبه. وانتقلت إلينا الحكاية من خلال التراث الشفهى باللغة النهواتل بواسطة "برناردينو دى ساهاجون". أما اسم "جواويكايپورو" فهو على العكس ينتمى إلى إحدى قبائل الهنود الأصلية، وهم المحاربون الذين يخشى بأسهم، المعروفون باسم محاربي "أراواك" الكاريبى. وهذا الكاريبى جواويكايپورو والذى خصص له تمثال فى ميدان صغير فى "كاراكاس"، تمرد على "دييجو دى لوزادا"، مؤسس مدينة "سانتياجو دى ليونيه دى كاراكاس". مع مرور الوقت أصبح الاسم المجرد "جوايكايبورو" الاسم الشائع الذى يعبر عن معنى زعيم القبيلة. أما "أرتورو أولسار بييترى" الذى ورد اسمه فى الخطاب فهو كاتب وناقد فنزويلى. عاش لمائة عام تقريباً. وتتصح الصديقة الفنزويلية تريزا مَنْ يريد أن يعرف حقائق ما حدث فى غزو أمريكا اللاتينية من وجهة نظر السكان الأصليين "للعالم الجديد" أن يقرأ كتاب "برناردينو دى ساهاجون" "التاريخ الهندى لغزو المكسيك" والمنشور فى باليرمو من دار النشر سيليريو عام ١٩٨٣ وكتاب "ميجويل دى ليون بورثيلا" "الوجه الآخر للغزو" المنشور فى ميلانو بواسطة دار النشر أدلفى، بخلاف أعمال "إدواردو جاليانو".

الكاتب البرازيلى "جوليو سيزاز مونتيرو" الذى نفى نفسه (كما يقول هو عن نفسه) فى إيطاليا، فى إقليم لوكا، حيث ابتكر مسابقة درع الكتابة ومجلة ساجرانا، أرسل لى يوم ١٥ مارس عام ٢٠٠٠ رسالة يناقش فيها هذا النص، وأورد هنا جزءاً منها:

هل تعرف أنه داخل أحشاء الغابة الأمازونية المظلمة الرطبة العملاقة لا يزال هناك قبائل لا يعرف عددها، ربما كانت ثلاثين أو خمسين، لم ترَ قط "إنساناً متحضرًا" وتتصور أن العالم كله على شاكلتها، ولا تعرف أن هناك طرائق للحياة مختلفة (حتى وإن كانوا أحياناً يرون طائرًا غريبًا لامعًا يحلق فوقهم). إنهم آخر مَنْ يوجد على الكرة الأرضية مَنْ لم يتلوث بعد

بحضارتنا. لم يعد يوجد منهم أحد في أستراليا أو في إفريقيا أو في جزر المحيط الهادى. حتى هؤلاء لا يعرفون أن أيامهم معدودة وأنه سوف يأتى يوم اللقاء الأول، الاكتشاف، وفي غضون بضع لحظات سوف يتحول هؤلاء الأمراء العرايا الحقيقيون إلى غربيين مهمشين من الدرجة الخامسة، متسولين سكارى، وسوف يتم تسكينهم في التاريخ، فى أكثر الغرف عممة وقذارة وانعزلاً. ولكن لنفكر قليلاً يا صديقى العزيز: ماذا لو انتهى هذا التاريخ المبجل فى حارة سد؟ لو وصلنا إلى النتيجة المحتومة بأن المفهوم الذى كنا نعرفه باسم "الحضارة الغربية" (*) ما هو إلا مجرد مفهوم غامض ملتبس؟ لو اكتشفنا أن الإصرار على هذا الطريق سوف يقودنا إلى الدمار الشامل والانقراض؟ ماذا لدينا من بدائل أخرى؟ هذه المئات القليلة من الرجال والنساء هى الكائنات البشرية التى تعرف ماذا يعنى السكن فى اللا تاريخ. وعندما يصبحون "متقنين" سوف ينتهى الخيار الآخر للأبد، ويكون عقابنا هو أن نراهن بكل ما نملك على رقم واحد، ويصاحبنا هذا التاريخ غير الموثوق فيه حتى اليوم الأخير. لقد أزلنا من الطاولة جميع الأرقام الأخرى، ولا يبقى لنا سوى أن ندعو أن يعثر هذا النظام الذى اتضح أنه سلسلة من الأفضاخ لنفسه على حل راجح يحسن إليه. وللخروج من هذا نعتمد مرة أخرى على العقلانية الغربية، هذه العقلانية هى فقط التى يمكن أن تقنعنا بأن نتراجع عنها هى نفسها.

(*) توجه صحفى أوروبى بالسؤال التالى إلى المهاتما غاندى: ما رأيك فى الحضارة الغربية؟ عندئذ رد عليه غاندى بلهجة ساخرة: لعلها تكون فكرة طيبة! (المراجع)

أمازلت وحيديًا

مشهد أول

من أين ينطلق الحديث الذي قدمته الآن؟

من المكان الذي وصلت إليه توأ. من حيث أنا موجود الآن.

كيف يمكن تخيل وتحديد هذا المكان الذي يبدو لي مكانا خاصا؟

لا أعرف. ما أعرفه عنه هو الحديث الذي قدمته. ربما كان المكان الذي ينطلق منه الحديث يتوازي مع الحديث نفسه باعتباره مرحلة في الطريق وليس نهايته. بالطريقة نفسها التي يتوازي بها وجه العملة... مثلما يتوازي الطريق الذي قطعته مع اتجاهه أو مثل نص مع ترجمته في لغة أخرى... أو بالأحرى أيضًا نص لغوي لما هو ليس لغويًا. لا أعرف ما إذا كان هذا كافيًا للشرح...

ألا يمكن التقدم قليلاً للأمام وقول شيء أكثر وضوحًا؟

نعم، ربما.. خطر لي، ونحن الآن نتبادل الاستجابات بهذا الإصرار الشديد، إبرة وفتلتها تمر من جانب إلى آخر على وجه القماش وظهره: فهي تحيك أو ترتق أو تفتق، ولكنها دائمًا تحيك من الخارج إلى الخارج. هكذا يبدو لي أنني خرجت من النسيج، من "غطاء" أوروبا الأم، وأنجح في أن أراها من الخارج - مستندًا على أي مكان؟ سوف تسألني بالتأكيد... لا أدري - مواصلاً الانتماء إلى مجال جاذبيتها ولكن دون أن يكون لدى مدار محسوب وإنما مسار هروب غير محسوب. إن ما أعتقد أنني أفعله هو المرور بلا كلل من الخارج إلى الوجه الآخر للخارج وأنا أحيك النقاط في أثناء مروري. نوع من التطريز.

الحركة تعمل منذ بدأت - أنا الأوروبي الأكاديمي الإنسانى المحزون
من هذه الهوية - أفكر وأعيش فى أوروبا باعتبارها الغربية التى أنتمى إليها.
يبدو لك أنك قمت بحل المشكلة بضربة جناح عبقرية فكرية - لفظية،
وأصبحت راضيًا بدلاً من الحزن والإحباط. ولكن ألا تعتقد أن أسبابك، على
أى حال وفى جميع الأحوال ودائمًا، هى أسباب تنتمى إلى المركزية
الأوروبية؟ - انتبه إلى أننى أتحدث إليك بحجر "كاليبان" وحباله الصوتية
حتى وإن لم تكن أنت "بروسبيرو" (*) - خطر على بالى الآن الشرنقة التى
تسأل "أليس": "من أنت؟" أى أين أنت؟ من أين تتحدث؟ إلى أى حد أنت
"غريب" على أوروبا كما تقول والتى مازلت تنتمى إليها على أية حال؟ وإذا
كنت غريبًا ولكن فى الوقت نفسه مقيمًا فى داخلها [وأيّن تكون إن لم تكن
هناك؟ فى الهواء معلقًا من شعرك مثل البارون العجوز "مونشاوزن"؟] مثل
مهاجر سرى، فألى ماذا تنتمى حقيقة؟ هل تعتقد أنك سوف تتجاوز عاجلاً أو
أجلاً هذا النوع من الخوض فى المياه الضحلة؟ وأين ستكون، ثم مع من؟ هل
تعرف؟ هل تخيلت هذا؟ أو تعتقد أنك سوف تظل بداخلها كوسيط، كناقل،
كإحدى طقوس الانتقال؟ وتعتبر نفسك مفيدًا هكذا: مفيدًا فى أى شىء؟ هل
تعتقد أنك تعرف هذا؟

لماذا تضغط على؟ ما فائدة هذا؟ إنك لا تعطينى ولو هدنة قصيرة، إنك لا تترك
لى الفرصة للتفكير...

أى تفكير؟ من الأفضل أن تقول تتذكر، تجد، تربط، تستنتج ثم تجيب
بمكر وحكمة. وإذا لم أكن لحوحًا بهذا الشكل فلن تجيبينى أبدًا.. إنك بهذا

(*) "بروسبيرو" و"كاليبان" من شخصيات مسرحية شكسبير "العاصفة". (المترجم)

الضغط تضطر إلى الهرولة بسرعة للأمام دائماً، إلى حيث لم تصل بعد، إلى خط التسلسل كما هو معروف في كرة القدم. وللحق مثل إصبع على أنبوب معجون الأسنان عندما يقترب من الفراغ ويحين وقت اعتصاره.

فكرة غريبة. حسناً: ربما كنت بالفعل أخوض مستقفاً كما تقول أنت. وأنتى أتقدم للأمام دون أن يكون لدى نوع من التنظيم المخطط... خيمة مثلاً، لها، أو لجزء منها غطاء يضمن الخصوصية.. المهم هو أنتى أتقدم للأمام، وعلى أية حال فسوف ينتهى هذا المستقع...

هل تعنى أن ذلك الذى تسميه التخلص من النزعة الاستعمارية سوف ينتهى عند بلوغ مرحلة ما؟

لا، أعتقد أن التخلص من النزعة الاستعمارية لن ينتهى أبداً، مثلما أنك لن تنتهى أبداً بوصفك أوروبى الأصل والمولد. أقصد أن أقول فقط إن المستقع سوف ينتهى.

إن أجب: إذا كنت تمارس التخلص من النزعة الاستعمارية - بدءاً من قراءة استعمارية غزوية للتاريخ وانتهاء إلى الممارسة الشعرية السياسية لتعويض العوالم - ففى أى جزء من العالم توجد؟ مع من تجلس؟ وإذا كان الحديث عن التخلص من النزعة الاستعمارية هو المساهمة فى حوار العوالم الذى ينتظره الناس من الأوروبيين، فمتى وأين يحدث هذا الحوار؟

لا يحدث فى مقر أى مؤسسة: لا سياسية ولا ثقافية، ولا حتى فى تلك المفاوضات الاقتصادية والتجارية. إذا حدث - وأنا أقول إنه يحدث لأننى أحس وأعرف أنتى أشرك فيه - فهو يحدث بين أفراد ومواقع مقهورة أو بين مغامرين، وليس بين الأدياء وحدهم، فى أفق وعبر خطوط عرض العالم الجنوبى. ويستطيع الأوروبى أن يشارك فيه فقط إذا وصل إلى هذا الحوار باعتباره أوروبياً وليس باعتباره اختصاصياً فى التخلص من النزعة الاستعمارية أو فى التعاون الدولى. وحتى يدخل فى هذا الحوار ينبغى أن يحمل إسهاماً جديداً وغير متوقع فى حركة التخلص من النزعة الاستعمارية. هكذا تدخل هذا الحوار

وتحس أنك موجود فى مكان ما، ولكن فقط عندما يبدأ شخص فى أن يسمع إليك ويعيد استخدام كلماتك، وتدخل فى اتصال مع آخرين وتحافظ جميعًا على خير هذا الحوار وعلى الاتصال... فى الحديث وفى الإجابة معًا.. أعتقد أنه يحدث بهذه الطريقة.

تعنى أنه قد حدث لك من قبل؟

أحس أنه يحدث. وإلا أكون قد درت فى الهواء أو ظللت حبيسًا فى مغارة. إذا لم يكن قد حدث فكأننى داخل دائرة مجنونة معزولة: خدعة أو حبس انفرادى.. هل تذكر "هنرى الرابع"؟

فى مسرحية "بيرانديللو"؟

نعم، ولكن بأحداث تدور فى الأكاديمية بدلاً من أن تدور بين النبلاء.

استمر...

لماذا ينبغي أن أستمُر؟

لأننى أعرف أنك لم تنته بعد...

معك حق. أعتقد أن الأوروبى بهذا قد يجد أخيرًا عادة جديدة فى اللقيم التى قتلها غدراً: الأرض والحرية، تناغم محسوس ولقاء كريم، للتحرك للجماعى تجاه ما هو إنسانى حر. الآن، مع هذا، هناك من يصرخ عليه بهذه اللقيم من صحراء الجوع والفتاء وسوف يواصل صراخه. هناك من يصرخ: كيف لا ترد عليه إذا نجحت فى الاستماع إليه ومواجهته؟ وكيف لا تواجهه وتظل حبيسًا داخل الأروقة الأوروبية للفخمة تسأل وترد على نفسك؟.. بعد وصول المسيحية من الشرق لم يحدث "وصول" بهذا الشكل غير مسلح وملء بالمستقبل. الآن فإن كل من يصلون يأتون من جميع البقاع ولا يبدو من بينهم رسولون يتحدثون باسم الرب، وإنما أناس وأناس يصرخون... وأشخاص يتأخون: فى المرات القليلة التى تمضى فيها الأمور على ما يرام؛ لأنه فى الأحوال العادية يحدث سوء فهم وسوء تفاهم وعنف وازدراء. وأنت تعرف.

ألا يبدو أنك تبالغ قليلاً؟

ما المبالغة في هذا؟

لنقل، أو كما تفضلت أنت، لنقل معاً إنك في الجنوب، أو من الجنوب. حسناً،

هكذا؟

من الجنوب؟ نعم، هذا مؤكد. لقد ولدت في الجنوب وهاجرت إلى الشمال. وأصبحت غريباً في كل الأماكن مع الزمن كأنما هناك دائماً رياح معاكسة. وفي نهاية الأمر، وضد كل هذه المعاكسات فإنني وجدت السبيل لثلاث أعود وإنما لكي أذهب إلى جميع جهات الجنوب: مراكش والقيروان، على شواطئ دوجون الصخرية وفي بامالكو وجنوب الصحراء وبيونس أيرس وسويتو ويومباي، في بطون لندن وهامبورج، وفي لوس أنجلوس ودالاس، وفي كياباس وأسمرة، وفي سانتياجو بكوبا، في بلجراد وفي سالنتو وبيلوبونيسو، في البزان وفليكو تارنوفو... ومع هذا فالجنوب الذي وفدت منه، الجنوب الإيطالي، هو من بين كل جهات الجنوب أكثرها غرقاً في المشكلات.^(*)

ماذا تعني؟

أعني أن البرجوازية في جهات الجنوب كما هو معروف ليست موجودة، ولكنها في إيطاليا الجنوبية موجودة، وإن كانت قليلة تعاني من سوء النمو. ومن هذه البرجوازية خرجت أنا: إنها شريط مختل جاهل مدع. لعشرات السنين ظل الجزء المنفتح والتقدمي فيها، والذي يمثل أقلية مطلقة، مفتوناً بالخطاب "الجنوبي"، وهو خطاب له مظهر شاعرية عقيمة منتحبة، ولكنها ماتت غير مأسوف عليها. أما اللهو الآن فهو بفكر "النصف

(*) La questione meridionale من أهم القضايا التي شغلت المفكر الإيطالي أنطونيو جرامشي. كانت مشكلة "الجنوب الإيطالي". (المراجع)

الجنوبى" وهو عبارة عن سلة من الصور البلاغية المتطورة المتلاشية التي تنتج ثمرات على صفحات مطبوعة. أما الباقي - ٩٩٪ - من البورجوازية الجنوبية فهي تحاول أن تدخل بقوة إلى عالم صفقات الاقتصاد الجديد الذي يتراوح في قذارته.

لا تزال مبالغاً...

إنها مغامرتي التي أتشبث بها بيدي... ولكن في الأوقات الأخيرة جداً يبدو لى أن هناك بعض المستجدات. فـ"بوليا" بالتحديد، من حيث أتيت، يبدو لى أنها أخيراً بدأت تنتج صورة صوتية لها، ترتبط بالبحر الأدرياتيكي، بعيداً عن ميلانو ونابولي. هي إشارات، ذكريات، جمعها وعبر عنها المقهورون أخيراً. إننى أفكر فى أفلام مثل "الرأس تدور" و"الدم الحى" وكتب مثل كتاب رون كوباتى (البنانى) وبيدرو ميجيل " (أنجولى) ويعيشان فى "بارى". أصبح هناك "بوليا" جديدة مهجنة، وهى تقف بإعجاز داخل الجزء الجنوبى من العوالم، مثل "لندن بوذا الضواحي" لقريشى أو "إفريقيا" لمؤلفين ومخرجين أفارقة عديدين. إنها "بوليا" التى تسمع صوتها من مكانها: خليطاً ثقافياً متعدداً على الحدود الأدرياتيكية. خليط/حدود تتحدث بطريقة غير متوقعة تماماً، محلية/عالمية. تدهش وتقنن: إنه جنوبنا الذى ينجح فى تقديم شاعريته الجنوبية الخاصة.

مشهد ثان

يعيش المهاجر والمستعمر حرية إنسانية مهددة ومتشابهة: فهي تأتي نتاجًا للأسامة التي حدثت لأي منهم وسلسلة من الحيوانات الممزقة، فمن ناحية هناك ماضٍ صعب محطم وغير قابل للاستعادة، مثل إنسان "لينداو" أو "شخص مرسوم" لفرانسيس بيكون، مشوش ليس في مكانه ولا يمكن التعرف عليه. ومن الناحية الأخرى - تلك التي تعيش فيها أنت - هناك نوع من "ما بعد الماضى" لا يمكن مسابته، يتم فيه الاندماج والتخلص من النزعة الاستعمارية المصحوب بآمال غير مناسبة. ومع هذا فلا شيء يحقق النجاح لأن مشروع الهجرة لديك قد فشل كما يقول علماء الاجتماع. ولهذا يتم الانتقال مباشرة إلى الغليان على التلال التي تغطيها سحب النفايات وبناء بيوت من الورق المقوى تحت جسور المدن الكبرى بين حطام زجاجات البيرة وممرات الكلاب..

هذا النوع من "ما بعد الماضى" يمضى فى طريقه ويعمل كجرح يتقيح ويتحول إلى "غرغرينا" ويشبه قبرًا لا يمكن غلقه مطلقًا.

المهاجر و"ما بعد الاستعماري" هما الاسمان اللذان أعطونا إياهما، ولكن قلة فقط تعرف كيف تضعهما معًا، كيف تجمعهما وتجعلهما يتحاوران، إلا عندما يهاجر المستعمر السابق: عندئذ تتحول الانفصالات إلى اثنين فى واحد، حاضر وقاس، يشد شفرته ويُغذى ألمًا واحدًا مجنونًا لا يحتمل.

والمهاجر والمستعمر يستطيعان القفز من هذا الذبح، والذي على شفرته المشحودة تنقلص الحياة إلى مجرد معاناة، إلى جسر جديد لحضارة النوع: حضارة الإنسانية الحرة. هناك حيث يتم ابتكار المستقبل، وتصبح الكينونة حراكًا مستوطنًا دون خطيئة وعقاب ودون جوهر: فيظل المهاجر والمستعمر معرضين للتسارع نحو ما هو شائق، ومنطلقين دائمًا داخل المغامرة، أو هادئين وراضيين بأن يكونا على هذا الحال: داخل شبكة تسمع فيها للموسيقى.

فى هذا الموضوع المشترك،^(*) والذى لا يزال صورة بلاغية غامضة، والذى نسميه الجنوب، أحس بأننى أقابل آخرين بحرية وبجمال وبطريقة شائقة، آخرين يتواصلون معى. وأحس أننى مستعد للواجب المحدد والذى لم أتمكن قط من أن أرغب فيه، ومن برمجتة كرجل أبيض، أوروبى، أكاديمى، مثلما هو حالى أنا، إلا فى الكتب. فهذه هى المهمة التى هيئت لها.

عن أى موسيقى و أية قفزة تتحدث؟ لماذا تختم الحديث بهذه العبارة المبهمة؟ تريد أن تستأنن للانصراف بطريقة غامضة ومؤثرة ولكنك لا تترك أن قرأك سوف يفقدون التركيز ويخيب أملهم عندما تهم بتركهم؟ كل الفاعلية الواضحة والكريمة لاقتراحاتك بالتخلص من النزعة الاستعمارية سوف تضيع. قل لى ماذا تكسب من القفز؟

أعتقد أنك على حق... لنعد إلى الوراء إذن: هل تتذكر هذه المعادلة الأخرى، معادلة أوروبا كغربة أنتمى إليها؟ لم أشرح بعد ما أعنيه بذلك. فعلاً.. لقد ضغطت عليك فإذا بك تذهب إلى مكان آخر. كان من الأجدى أن أوتقك وأشد وثاقك هناك. يا له من غباء! فى تلك النقطة كان ينبغى أن أستوقفك.

لا تلعب دور عميل المخابرات الفيدرالية الأمريكية. الغربة الأوروبية هى عرض مرضى شمولى مدرك ولا يمكن رده. ويحدث عندما يتحول الأصل بحكم المولد إلى عملية تخلص من النزعة الاستعمارية، ويستحيل "الوطن" بالنسبة إليك - المدينة التى تقطنها، الأمة (أوروبا؟) - حتى يتجلى من فوقك وبداخلك، كسياج من العادات وقافلة من حالات العزلة. إقفار.. ملء بالمخزونات الثقافية وبأناس حزانى يحملون فى أيديهم هواتف محمولة.

(*) فى استدعاء غير مباشر من جانب المؤلف لما يدعوه "إرنست روبرت كورتيسوس" (المواضع المشتركة) بين الآداب الأوروبية، ولكنه يحولها هنا إلى ذلك المشترك الذى يحلم به مع شعوب الجنوب المهمش وثقافته فى هذا العالم. (المراجع)

صيغة مجازية أخرى.. واصل..

كل الكنايات تعبر عن شيء يرمز إلى نفسه فقط، ضرب من "ميدوزا" بلا حدود، "ميدوزا" التي تقف وراء كل مجاز أو لغز ظاهر، وتحث صورتها المنظر بأكمله: لنسمها الملل.

تحدث مثل "مورافيا"...

لم يعجبني كثيرًا كما تعرف ولكنني الآن بدأت أفهمه على نحو أفضل. الحل للحنن الأوروبي مع هذا لا يكمن في الترحال إلى أماكن غريبة برجوازية تنويرية حتى تستطيع أن تعيش زمنًا مميزًا مختلفًا وموازيًا لزمن التنقز. إن الرحلة أيضًا، كما سوف تترك في مرحلة معينة، تنتمي إلى المدار اللولبي للملل الغربي. الحل المختلف هو أن تؤدي القفزة. ولكن بشروط التخلص من النزعة الاستعمارية. بهذه الطريقة فقط يمكن أن يكون لكل شيء معنى، ليس فقط لحل مشكلة صيامك عن الفرحة ولكن لأي شخص يريد أن يسير في ركاب الإنسانية الحرة، في كل مكان. ولمن يقابلك.

أوضح أكثر.

إن لننتكلم قليلاً عن الأدب المقارن. قام "رامبو" (*) بمبادرة نهائية بالابتعاد عن أوروبا تمامًا وبلا عودة، ليس لعقد ندوات في جامعات أمريكا الشمالية، وإنما لشرق إفريقيا لكي يعمل.. يعمل ماذا؟ تاجرًا للعبيد - قادمًا من الأدب ومنفصلاً عنه، كما يفصل الحبل السرى عند الولادة، وربما كان يفكر في أنه يمكن أن يولد من جديد وبشروط جديدة. ولكنه فعل ذلك بالشروط الاستعمارية، بالانتماء إليها وعلى نحو يائس. في هذا

(*) "آرتور رامبو" شاعر كومونة عمال باريس الثورية التي قمعت بمنتهى الوحشية من جانب القوات الملكية الفرنسية في عام ١٨٧١. انظر الإشارة إلى هذا الشاعر الذي شرد في إفريقيا بعد قمع الكومونة في قصيدة "الطوفان الأسود" لمحمد الفيتوري. (المراجع)

الانتماء ومن خلال التيه الضال نجح في اجتراع لحرية التي لا تنفد والتي كانت مبادرته الأولى تحتوي عليها والتي لم يكن من الممكن التعامل معها: أن يعتق نفسه من كونه أوروبيا.. للدولمة المفيدة على نحو غامض للتسرب والغطس في "عالم آخر". ولكن هذا الانتماء والياس أضافا إلى كاهله المزيج والنقل الاستوائى الذى كان يميز أى أوروبى فور أن يصبح "استعماريا" حتى عندما يكون هاربا من أوروبا. هل تريد أن تعرف ما هو هذا المزيج وهذا النقل الاستوائى؟ يكفى أن نقرأ بالإضافة إلى "رامبو"، "سيلين": سوف نفهم كل شيء على نحو أفضل، "كونراد" أيضا وقلبه المليء بالظلمات وللذى فرح به النقد الغربى وحقره النيجيرى تشينوا أكيبيى"، وأيضا "زمن القتل" للكاتب الإيطالى "فلايانو"، الرواية الإيطالية الوحيدة التى لها قيمة مقارنة فى خطاب ما بعد الاستعمار للعوالم. سوف تتجح فى فهم كم كان "رامبو" فى الوقت نفسه أنيبا فريذا ومتشددا ورجلا عاديا تعيشا، يقوم بالتهريب فى شرق إفريقيا: ربما هذا ما كان يريده بالتحديد.

"رامبو" (القاهرة فى ٢٣ أغسطس عام ١٨٨٧، خطاب إلى أعضاء العائلة):

أعتقد أن حياتى تنهار.. إننى متعب بشكل زائد جدا. أنا الآن دون عمل. وأخاف أن أفقد القليل الذى أملكه. تصوروا أنني أحمل دائما فى حزامى أكثر من ستة عشر ألف فرنك من الذهب: تزن حوالى ثمانية كيلوجرامات وتسبب لى الدوستاريا. ومع هذا لا أستطيع أن أجيء إلى أوروبا، لأننى قبل أى شيء قد أموت فى شتائها، ثم إننى قد تعودت أكثر من اللازم على حياة التجوال الحرة، ثم إنى أخيرا ليست لدى وظيفة... ربما سوف أذهب إلى زنجبار...

سيلين (رحلة فى آخر الليل، ١٩٣٢):

ولكن ما إن تخطينا سواحل البرتغال حتى أخذت الأمور تسوء.. منذ أن رأينا الطبيعة المؤلمة للبيض تتقلب على أجسامنا،

طبيعتهم الحقيقية، بالضبط كما فى الحرب. حرارة استوائية لها طبيعة الضفدع أو الحية بدأت تتفتح فى شهر أغسطس. فى برد أوروبا، وبغض النظر عن المجزرة تحت رمادية الشمال الخجول، يمكن فقط التوجس من القسوة الشديدة لإخواننا، ولكن عفونتهم تغزو السطح ما إن تلدهم حمى الاستوائيين الحقيرة. وعندما تتخفف من ملابسك ياساً تنتصر أخلاق الخنازير وتغطينا جميعاً. إنه الاعتراف البيولوجى. عندما لا يجعلك العمل والبرد منقبضاً، يرخيان الانقباض للحظة، تستطيع أن ترى بيضاً على شاطئ بشوش، وعندما ينسحب البحر تظهر الحقيقة: مستنقعات عفنة وسرطانات بحرية وجيف وبعرات...

لقد قدم "رامبو" للمبادرة "الأدبية" الأوروبية فى أقصى حدود الحدثة حتى قبل مبادرات النزعات الطليعية. إننى أعتقد أنه من الحدثة إطلاق وترسيخ علامات ترشد إلى أطراف الطريق وأحياناً تتجاوزها. من تحدث عما بعد الحدثة فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين كان لديه فقط بعض الاضطراب والتشويش الذى حمله لنا؛ فما بعد الحدثة ليس هو آخر الطريق فى الخطاب، وإنما مجرد ثمرة خاملة. والخمول كما تعرف يعنى عدم الاكتراث. وقد كانت "ما بعد الحدثة" هى الثمرة التى سبقت العدمية الكونية لإمبراطورية المال. نعود إلى "رامبو"، فموقفه كان هو الاختفاء بالهرولة فى الحياة والهرب من "الديوية" الباريسية والغرق فى إفريقيا. وهو عمل له مظهر ملغز وغامض. ولهذا فهو يحمل "سلسلة من الآثار" وتأويلية طويلة الأمد، وينتج تفسيرات كتابية مغامرة ودراسات ثقافية واسعة لا تنتهى. لأنه كان موقفاً يتجاوز جميع "المنتحرين"، من "إيمبدوكل" إلى "سيلان"،^(*) وقد سطّحهم وتجاوزهم. سوف نقول لى كيف يمكن تجاوز

(*) شاعر ليطوانى من أصول جرمانية عاش فى المهجر الباريسى حيث أدت به حالة من الاكتئاب إلى الانتحار هناك فى عام ١٩٧٠. وله قصيدة رائعة التكتيف ترجمتها عن =

الموت؟ بأن نقدم للتراث الأدبي والمجتمع المعاصر حسابًا ونقطة تحول غير متوقعين - لا يمكن توقعهما ولا تقليصهما ولا شرحهما - حتى في المستقبل، ولهذا فهما أقوى من الموت، وهو المصير المتوقع بأقصى درجة، والمشارك أيضًا. وهو موقف نهائي ومثالي، ولكن لا يمكن قطعه بسهولة، سواء إلى الخلف أو من جانب آخرين على الحلبة نفسها إلى الأمام. موقف مصاب بالتشدد الزائد دائمًا، يجبر على إعادة التفكير فيه وإعادة تفسيره مرات ومرات من جانب النقد الأدبي، دون أن يستطيع أن يفهمه أو ينتهي منه أبدًا، كما يفعل مع النص. ولكن كيف؟ إذا لم يكن من الممكن وضعه على مسار غير متوقع على الإطلاق مثل مسار المذنب، وما لم يعد يريد أن يصبح نصيًا بعد؟

مرة أخرى كنايات وألغاز: ما دخل كل هؤلاء من "رامبو" إلى "سيلين" إلى "سيلان"؟ لقد جعلتني أفقد التركيز..

إنها القفزة أو الظهور المفاجئ للغرب الذي كنت أتحدث عنه، هل نتذكر؟ يجب أن يكون هذا الظهور على مستوى هذا التشدد نفسه: أدبي بشدة وزائد على نحو صحيح.

=الألمانية (مع مقمة عن حياته وشعره وذكريات لقائي به في بون في نهايات الستينيات) يمكن الرجوع إليها في عدد شهر أغسطس عام ٢٠٠٣ لمجلة "سطور" عنوانها: من الزرققة. يقول "سيلان" في هذه القصيدة (في ترجمتي لها إلى العربية):

مَنْ الأزرق الذي عن بصره لا زال يبحث

أكون أول مَنْ يتجرع

أتجرع إثر خطاك وأشهد

أشهدك تتدحرج لؤلؤاً بين أصابعى وتنمو!

تنمو ككل للذين نسوا!

تتدحرج

حبة البرد الأسود لأنفاس ثقيلة مترعة بالهموم

تسقط في منديل شحب بياضه من تلوينات الوداع. (المراجع)

ولكن كل هذا يعنى شيئاً آخر: إن الأدبى يتشدد ينبغى أن يفهم على أنه تربية أدبية (الشكل التربوى الوحيد غير العنيف فى أوروبا) للخروج من المدارات، ليس كشاهد أو شهيد لتعذيب جمالى أو وجودى شرس غير محتمل، وإنما فقط كواحد تم إعداده فى ساحة الأدب. إن القفزة التى أتحدث عنها ينبغى أن تحدث بالشروط غير الموضوعية فى الحسبان، لفكرتى عن التخلص من النزعة الاستعمارية كأوروبى، والذى بدأ بالفعل وربما أصبح متماسكاً لدرجة يبدو معها كأننا قائماً. هذه هى القفزة التى هيات نفسى لها. أظن أنها يمكن أن تحكى تاريخاً مختلفاً.

ربما كان كل هذا له دخل بالتعويض؟

حتمًا. ضع فى حسابك أن عمرى ٥٤ عامًا وما زلت أتعلم هيات نفسى لأن أستطيع أن أفعل هذا حتى الآن، ولكن فى "العتمة" التى يفرضها ما هو غير متوقع، دون أن أدرى أننى سوف أصل إلى الحقيقة. ما زلت أتعلم أن أفهم فى أى عالم أعيش، وما الصحيح الذى يمكننى أن أقوم به فى "مملكة هذا العالم"، وهذا هو عنوان رواية "لأليخو كارينتييه"، هل تعرف هذا؟

لا.

ليس مهما. الآن عرفت. إذا تعلمت - بسرعة طبعًا - فسوف أنجح فى تعليم شخص آخر خلافى. إن القفزة بالفعل جيدة.

سميات / براغ، نيليبوت (*)

إننى أدم فرضية بسيطة إلى أقصى درجات البساطة وشرسة مثلما هى جميع الفرضيات التى تسكن وتعمل داخل الممارسة الشعرية وليس داخل جسم نظرية متحجرة، وتعمل فى جريان العملية النقدية والثورية وليس فى التابوت الفلسفى والكتابى. وأقصد بصفة "الشراسة" تحديد نوعية عملية اتخاذ الموقف الفكرى والعملى التى من الممكن أن تثير على نحو زائد للشخص الذى تُصِرُّ به، وهى تلزمه، فى أفضل الحالات، بالتفكير فيها، وفى أسوأ الحالات - وهو أكثرها توقعًا - بالتفاعل معها ورفضها.

كفى تعليمات ولننتقل إلى الهدف. إن حال العالم والعصر الذى نعيش فيه، أصبح له اسم أخيراً، اسم محدد لا لبس فيه، بعد عشرات السنوات التى سادت فيها التسميات التقريبية مثل "ما بعد الحرب الثانية" و"المجتمع ما بعد للصناعى" و"المجتمع الرأسمالى المتقدم" أو حتى تسميات خادعة ومضللة مثل "العصر ما بعد الحدائى". إن عصرنا يسمى بجدارة بعصر التحول إلى العالمية أو العولمية. وكان الشابان ماركس وأنجلز قد بشرا به فى مانفستو الحزب الشيوعى عام ١٨٤٨.

وأؤكد أن العولمة الحالية الداعية لحرية التجارة التى تحكم كوكب الأحياء هى ترسيخ واستكمال لحركة ممتدة على مدى قرون عديدة للاستعمار العسكرى والثقافى والسياسى والاقتصادى لجميع المواقع على الكوكب. وهذا شئء مبهج من جانب الدول الإمبريالية لأوروبا الغربية، ثم بعد ذلك من روسيا والولايات المتحدة، وبمشاركة، وإن كانت محدودة، من اليابان.

(*) أرض خيالية سكانها من الأقزام. (المراجع)

بدأ عصر للتوسع العالمى للحضارة الأوروبية فى القرن السادس عشر بعد الميلاد (حالة تسجيل زمنى "طبيعية" ولكنها - هى أيضا بالتحديد - مركزية أوروبية واستعمارية). واستمرت العملية الاستعمارية للعالم حتى انتهت "بالاكتشاف"، أو استكشاف وغزو تام لهذه العوالم "الجديدة" (أى التى لم تكن تعرفها "الحضارة القديمة" كما تدعى)، وهو ما شهد عليه بصورة نموذجية "جيمس كوك" فى يومياته. بعد ذلك أعلنت كل دولة أوروبية استعمارية نفسها العاصمة الكبرى الرئيسية التى تعطى الاسم والرئاسة المشتركين لإمبراطورية تتولى مهمة التحضر العالمى. وقد خلعت الحضارة الأوروبية المسيحية على نفسها. شرعية ممارسة نفوذ عالمى من خلال الاعتراف الذاتى بعالميتها المتفوقة. وهو تفوق ربتها عليه الفلسفة اليونانية ثم اللاهوت المسيحى.

والغزو والتدمير الذى حدث للعديد من الحضارات الأصلية للعالم من جانب الاستعمار الأوروبى الغربى ثم الأمريكى الشمالى فيما بعد، والاستغلال والإدارة المباشرة لأراضيها، ولسكانها، ولثرواتها، انتهت كلها ظاهريا فى العقود التالية للحرب العالمية الثانية من القرن العشرين بحركة كبيرة للتخلص من النزعة الاستعمارية السياسية، كانت أحيانا دامية بحق.

إن هدم نظام الاحتلال الاستعمارى للأراضى والثقافات ما زال مع ذلك بلا قيمة مع روسيا التى تواصل تحقيق هويتها فى صورة نفوذ أورواسيوى "مخيف" يمضى من سان بطرسبرج على البحر البلطيقى إلى حافة مضيق بيرينج أمام ألاسكا. ولكن أحدا لا يعير هذا انتقاهما حتى بعد سقوط ما يسمى بالإمبراطورية السوفيتية. ولا بد للرحل السيبيريين من أن يعثروا بأنفسهم على الطريق الذى يوصلهم إلى تفهم فكرة التحرر والتخلص من النزعة الاستعمارية، ذلك أن طلائع حركات الاحتجاج للتحررية العالمية سوف تواصل عدم رؤيتها لتبعتهم القسرية.

وعلى هذا يبدو أن العولمة تؤدى إلى استكمال عملية سيطرة ما هو غير إنسانى، تلك السيطرة التى ابتدعتها أوروبا وفرضتها على جميع "الأمم" فى العالم، وكتبت عنها ما

يمكن أن نسميه "التاريخ بطريقة منحرفة". أو كما يقول "إيميه سيزير"^(٦) في "خطاب حول الاستعمار" وهو كتاب صغير صدر عام ١٩٥٥، تاريخ اللقاء السذّي لأوروبا أن يكون كارثيًا أو عنيفًا بين حضارتها الخاصة والحضارات الأخرى. إن العولمة هي مسا أراد أن يحققه "كولومبوس" و"فاسكو دا جاما" و"كورتيس" والآخرين جميعًا، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ذلك وقتها. وكما كتب "فرانتس فانون" في "المعذبون في الأرض" فإن أوروبا لن تنتهي من الحديث عن "الإنسان"، وهي مع هذا تنبجه في كل مكان تقابله فيه، في جميع نواصي شوارعها نفسها، وفي جميع أركان العالم. منذ قرون خلت وأوروبا توقفت تقدم الإنسان الآخر وتستعبده في مشروعاتها ومجدها، وهي على مدى القرون تخنق الإنسانية جمعاء تقريبًا باسم "المغامرة الروحية".

إن البطش الاستعماري قد أصبح الآن ناضجًا نضجًا تامًا، مصفى، مكررًا، راسخًا، دقيقًا، نظيفًا، شاملًا: متوحشًا - هذا هو السبب الذي من أجله سميت شاعريتي بالمتوحشة - مدمرًا، ظالمًا، غير متوازن، منحرفًا، غير إنساني، جهنميًا.

نستطيع أن نتخيل الشكل المستقر للحركة الاستعمارية وهي تكتمل، على الأكل الآن، باعتبارها عولمة جديدة تحرر حركة التجارة والسوق بصورة الكسر الاعتيادي، فنجد في البسط العالم الشمالي الذي يمثل ١٢% من سكان العالم، ومع ذلك فهذه النسبة تمتلك ٨٦% من ثروات العالم، وتستولي على ٨٨% من الاستهلاك العالمي. وهذا البسط مكون بالتحديد من الدول الاستعمارية الإمبريالية. أما في المقام فيوجد الآخرون جميعًا أو ما يسمونه "باقي العالم"، العالم الجنوبي، أو حاملو الآمال المتعددة وكذلك المعاناة المتعددة: المقهورون.

(٦) صاحب نظرية الزوجية. انظر الحاشية التي نعرّف فيها تلميذه المارتينيكي "إدوار جليسان". (المراجع)

هذا هو حال العالم الذى تولد عن المرض الاستعماري الغربى. معقل امن/يفصل النفوذ والرءاء عن قهر الآخرين وشقائهم، ويحكم من خلال أدوات خاصة بسلطة العولمة، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وقمة العالم الصناعية (السبعة الكبار)، وأحياناً الثمانية الكبار بالانضمام روسيا، وحلف شمال الأطلسى.

ومفكرو ما يسمى باليسار الغربى، بعد أن تصلوا فى العقود الأخيرة من القرن العشرين بتسالى لكاديمية من عينة "الفكر الضعيف" و"ما بعد الحداثة" و"التفكيكية" وما شابه، لم يعد لديهم لليوم شىء يقولونه. وهم على الأكثر يأخذون للبركة - أو فى الجهة المقابلة يرتلون فى الكنيسة - لأن البابا فى روما حشد (٢٠٠٠٠٠٠) مليونى شاب للاحتفال بذكرى عيد أغسطس فى ساحة على تقاطع الطريق الدائرى تسمى الحرم الجامعى.

أما ضد العولمة فإن فلاسفة ومفكرى السنوات الثلاثين الأخيرة الذين يكتبون ليس لهم نفع كبير. إنهم أجساد مفرغة، ونشاز بشكل غير قابل للعلاج، وغالبًا مباعون. والذى يتحرك على العكس هى الشراكات الجديدة المنشقة على الاستعمارية: جزء مما يسمى بالمجتمع المدنى مثل المنظمات غير الحكومية، و"أتاك"، والعمل العالمى للشعوب و"ماركوس" و"المايا" التى تعتمد عليهم، "وسيم تيرا"، و"لأكس زانوتيللى"، وشبكة "ليبيوت" و"بورتو فرانكو"...

هذه المعارضة العالمية والكونية اجتشدت من جانب العالم الجنوبى، حتى عندما تعيش وتعمل فى العالم الشمالى، تمامًا مثلما إن هناك فسادًا من العالم الشمالى فى العالم الجنوبى، وأقسامًا من العالم الجنوبى فى ضواحي العالم الشمالى وخرائبه. يتعلق الأمر بالمنطق نفسه، منطق عولمة الاختلاف.

وتعمل الثورة باتباع اتجاهين: (١) داخل العالم الشمالى، لتخليص بعض عقلياته وأراضيه من النزعة الاستعمارية باضطراد مستمر. (٢) ضد العالم الشمالى، حتى يعوض

بشكل دائم لا ينتهى الشعوب التى أخضعها منذ خمسة قرون عن تدمير الأجيال والثقافات والذاكرة والتاريخ والثروات والطبيعة والمصير. هذان الاتجاهان للهجوم يسجلان ويعنيان للصدام والثورة ضد الترتيب الحالى لكل ما ليس إنسانيا ولذى يقهرنا دون هواده.

دون ذلك كيف تصف نظام نفوذ عالمى يصل إلى أن يعلن ويجعل الشعوب والأشخاص "مدينين" وهو الذى حرمهم ودمرهم لعدة قرون، واعتقلهم واستعبدهم على الدوام، بينما المدين والقاتل الحقيقى قوى ومقاوم وعيى ولم يلق عقابًا وغير قابل للعقاب؟ كيف تصف حضارة لم تتجح بعد فى الاعتراف بدينها اللانهائى للأخريين جميعًا من الجنس نفسه؟ إن كلمات قانون، على الرغم من أنها تتعلق بحالة العالم قبل أربعين عامًا، تتردد فى كل مدرسة أوروبية أكثر من مرة فى العام وفى جميع الأعمار، بعد استخلاصها من التراب النظري للكتب المتخصصة فى دراسات ما بعد الاستعمار. وهى لم تدخل بعد بفعالية فى فلسفتنا الأوروبية. ومن الواضح أن مآلها لم يذهب إلى الفلسفة وإنما كما كان يريد هو إلى الشاعرية- السياسية لإنسانية عالمية جديدة:

إن ثروة الشعوب الإمبريالية هى أيضًا ثروتنا. على مستوى ما هو عام فإن هذا الإقرار، كما هو من السهل فهمه، لا يريد أن يعنى أننا لا نحس بأننا هدف لابتكارات التكنولوجيا والآداب الغربية. وبشكل ملموس جدًا فإن الغرب انتفخ وتورم بلا حدود بفضل ذهب الدول وخاماتها التى استعمرها، أمريكا اللاتينية والصين وإفريقيا. من كل هذه القارات التى تقيم أوروبا اليوم برج ثرائها أمامها انطلق فى اتجاه أوروبا الماس والبترول والحريير والقطن والخشب والمنتجات الفنية الغربية. إن أوروبا هى بالمعنى الحرفى مخلوق أنتجه العالم الثالث. والثروات التى تخنقها هى تلك التى سرقت من البلدان النامية. وموانئ هولندا وليفربول ومراقى بوردو وليفربول اكتسبت شهرتها العالمية

من خلال ملايين العبيد الذين رحلوا عن طريقها. وعندما نسمع رئيس دولة أوروبية يعلن ويده على قلبه أنه يجب أن يرسل المساعدات إلى الدول النامية المضارة، فإننا لا نختلج عرفاتنا، بل نقول لأنفسنا: إنها تعويض عادل يؤدي إلينا. ولهذا لا نقبل أن تكون المساعدات للعالم النامي "حسنة"، وإنما لابد أن تكون هذه المعونة تكريساً لعودة الوعي المزدوج من جانب الذين تم استعمارهم بأن هذا من حقهم باعتبارهم دائنين ومن جانب القوى الرأسمالية التي يجب أن تدفعها فعلياً باعتبارها مدينة.

ضد التفكير الأوروبي في التاريخ الذي لا يطاق، مرة أخرى لابد أن تكون هناك ثورة نرغب فيها ونقوم بها للرد على العولمة التجارية الجديدة التي تأتي من بعيد، من قلب حلقة الغروب. لاشيء أقل.

يعلمنا هذا تاريخ أقدم وأطول من تاريخ أوروبا، ذلك الذي يسميه سارتر تاريخ نوعنا وضميره، داخل الأرض التي ننتمي إليها. جايا،^(*) الأقدم والأكثر ثراء بالمستقبل من كل الآلهة ومن كل الأشباح.

لم يصارع أحد حتى الآن من أجل رؤية شاملة مثل هذه، رؤية شجاعة وحاسمة، وفي الوقت نفسه يتهددها الخطر، مصير التطور المشترك المتناغم لنوعنا وللكوكب الذي ينتمي إليه نوعنا مع مجموع الأنواع الأخرى كلها. لو قاتلنا من أجل شيء أنفى من هذا فسوف نكون دون عتبة ما طلبه الشعراء منا منذ زمن.

من "أونجارييتي" في قصيدة "الأنهار":

(*) أصدر المؤلف "أرماندو نيشي" كراسات جايا للأدب المقارن، وهي دورية علمية باللغة الإيطالية. (المراجع)

على نفسى تعرفت

طبقة من الكون

رقيقة

عذابي

عندما

لا أعتقد

فى التتاعم

أو من "كالشينو" (*) عندما يجعل الحوار الختامى فى رواية "المدن اللامرئية" بين
"كوبلاى خان" و"ماركو بولو"، يجعل الاثنيين يقولان، كما لو كان أحدهما مفكراً يسارياً
عجوزاً يائساً بصدق وبالقدر نفسه هازئاً بلا أمل فى علاج أمام سلطة العولمة التى لا
يمكن تخطيها، والأخر عميل للثورة الجديدة لمستقبل العوالم:

يقول كل شىء لا فائدة منه، وإذا كان المرفأ الأخير لا يمكن أن يكون سوى
المدينة الجهنمية، وهناك فى قاعها يزداد الحلزون ضيقاً، فسوف يبتلعنا التيار من جديد.

ويرد عليه بولو: جهنم الأحياء ليست شيئاً سوف يكون، إذا كان هناك من سعيير
فهو الذى كان هنا بالفعل، الجحيم الذى نعيش فيه كل يوم، والذى نخلقه ببقائنا معاً. وهناك
طريقان لتجنب المعاناة منها. الأول يسهل على الكثير: قبول جهنم وأن تصبح جزءاً منها
بحيث لا تعود تراها. والثانى يحمل الخطر فى طياته ويستوجب الحرص والتعلم
المستمرين: أن تحاول وتعرف كيف تتعرف فى وسط جهنم على من وما هو ليس بجهنم،
وتجعله يستمر وتعطيه حيزاً.

(*) لنظر التعريف به فى حاشية بالفصل الأول من هذا الكتاب. (المراجع)

لقد تركنا كل من "قانون" و"سارتر" قبل أن يبدو الاستعمار وهو يرتدى زي العولمة. وعلى أى حال فإن عملهم فى مضمار للتخلص من النزعة الاستعمارية الثقافية والسياسية لم يواصله أحد أو يتجاوزه فى هذه العقود من الزمان. لا بد من استئناف خيوطهم - الأنتيلى الجزائرى الإفريقى للأول والسجن الأوروبى للثانى - ونسجها فى ظروف اليوم: الصلاحية المزدوجة لاسم "سياتل":

اجتماع سلطات العالم الشمالى

تناقض فرق العالم الجنوبى

ليس أقل من هذا ما يجب أن نريده ونفعله.

الآن تحديداً وهم يريدون إقناعنا بأنه لم تعد هناك قيم، يظهر أخيراً، حتى لنا، نحن الأوروبيين، على خط أفق التاريخ غشاء الإنسانية المتحررة .

هل ما زلت شرساً وأنا أحاوركم: هل ترونه أو لا؟ وإذا كنتم ترونه ففى أى موقع

أنتم؟

تحليق الفراشة في الوثب الثلاثى

كوثوزا بافانا^(*).. خفوا وطأ أيها الأولاد!

تحليق الفراشة هو الصورة التى تتجسد فيها رغبتنا عندما نريد تصوير فكرة وتحقيق الخفة لغويًا. فكرة الصعود فى تحليق خفيف جدًا، مثل: ريشة، أو سامبا يوبيم وفنشيوز دى موريس، أو التخلص من بعض الوزن الذى يلازمنا فى اللبدية ولا يتركنا فى النهاية.

والوثب الثلاثى هو أطول أنواع الوثب فى الرياضة والتى يمكن أن نعتبرها من زاوية أخرى الفن العضلى للتدريب على الخفة. والوثب الثلاثى مفصل ومعقد، وهو غير طبيعى فى الظاهر ولهذا فهو إنسانى جدًا، خاص جدًا بالجنس البشرى، وهو يتجاوز ما يمكن الوصول إليه عن طريق تحليق "بسيط" وفريد: مثل تحليق البومة والصفدعة والغزال والحصان.

إن ما أريد أن أبينه بالكلمات هو فعل الوثب الثلاثى، أى ثلاثية متقاربة من الخطوات المتوازنة التى ينبغى أدائها بنعومة غير عضلية كنعومة للفراشة، حتى ترسو بها...

والخطوات الثلاث هى ثلاث كلمات لها اليوم حظ مختلف. حظ كبير لأول اثنتين: الثقافة المتعددة والثقافة البيئية، بينما الكلمة الثالثة وهى الثقافة العابرة فتبدو ذات استخدام محدود جدًا ومتردد، ومشوش فى الغالب، بل عبثى أيضًا.

وحالة التشوش فى النهاية هى التى تحكم جميع خطوات- كلمات الثلاثية. ونفكر

(*) الجملة بلغة جنوب إفريقيا وترجمتها هى العبارة التالية لها مباشرة. (المترجم)

فى العادة فى أن الأمر ىتعلق بوئبة واحدة مميزة ولىست ثلاثىة. فالتعددىة الثقافىة والثقافة البىنىة والثقافة العابرة تؤخذ أحياناً على أنها مجرد مرادفات لا تختلف فىما بىنها إلا قلىلاً. وأحياناً يظهر شك فى أن هناك تفكيراً معیناً ىمىز بىنها، ولكنه نادراً ما ىتحول إلى تفكىر واضح ومحسوس ومقنع. وعلى أىة حال إذا صلح هذا للتفكىر فإنه ىصلح بىن الكلمتىن الأولىین، أما الثالثة فترقد نائمة وتظل بلا حل و غیر قابلة للتداول، فى مرات قلىلة فقط ىتم استدعاؤها ككتوىعة نحوىة أو ربما سطحىة للكلمتىن الأخرىین.

وىتمثل طرعى للمساءلة فى أن هذه المراحل الإسمىة الثلاث ترسم وئبة ثلاثىة حقیقىة وأنه إذا تم جمعها دون ترتىب مسبق وعلى نحو موحد فى هذا الكىان التركىبى الطائر، مثل الخطوات الثلاث للوئبة الواحدة، فإنه تكئب علاقتها الصئحة ودلالاتها البلاغىة. أضف إلى هذا أنها تعلن بشكل متزامن عن تطورها الدقیق والشجاع فى المعنى والمبنى، فهى ثلاث خطوات تؤدى إلى جوهر واحد وهو التلىق. والوئبة الثلاثىة التى أئحدث عنها هنا هى تلك التى ىمكن أن تصنعها ثقافة الالتقاء بىن الأجانب، وىجب أن تكون حرة فى قدرتها على صنع هذا: أقول ثقافة الأجانب الأئرباء، مثلنا، نحن الأوروبىین للمتحدىن الذىن ىستقبلون فى منئهم الأشخاص والثقافات الخاصة بالأجانب الفقراء الذىن یأتون من كل حدب وصوب، من جمىع أرجاء العوالم الجنوبىة حتى ىستطىعوا الحىاة والعمل بكرامة فى بلادنا. الثقافة التى نئىجها بالاستقبال المرحب بدلاً من تقدىمها بالرفض. ولكن الاستقبال لىس إلا الدرجة ٠,١ الموجبة للقاء بىن الأجانب والثقافات؛ أى أعلى قلىلاً من درجة الصفر.

وقبل أن ننتقل لتوضىح التلىق الثلاثى للكلمات - الأفكار للثلاث، أود أن أعالج السىاق، أى الموقف والإطار الذى أرىد أن أضع هذه الوئبة بداخله. إنهما - الإطار والوئبة - ىصدران من حالة العالم الذى نعىش فىه ولتى تتشأ عن عولمة ما ىسمى بالحضارة الأوروبىة ثم الأوروبىة الشمالىة.

والعصر الذى نعىش فىه نحن الأحدىاء أصبح له اسم واضح لا لىس فىه وهو

العولمة. إن الأمر يتعلق بنفوذ حركة تحرير التجارة من جانب للعالم الذي يحكم كوكب الأحياء حاليًا. وهو يمثل ترسيخ عملية الاستعمار العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية واستكمالها، وهي التي استمرت على مدار قرون عديدة لكل أرجاء الأرض من جانب الدول الإمبريالية لأوروبا الغربية، ثم بعد ذلك من جانب روسيا والولايات المتحدة الأمريكية. هذا العصر هو بالتحديد العصر الحديث، وقد بدأ في القرن السادس عشر بعد الميلاد، وقد أصبح الآن نظامًا عالميًا يتمثل في للتوازن والنفوذ للإنسانى. ويمكننا أن نصوره على نحو صحيح بالشكل الثابت للكسر الاعتيادى للشرس الذي تحدثت عنه فى الصفحات السابقة.

وكما يقول الكامبونيانى "أليكس زلتوتيللى" الذى يعمل ويعيش فى نيروبي: "لأول مرة فى التاريخ يقوم العالم على نظام موحد: إمبراطورية المال، وقلبه يتمثل فى المضاربة المالية. ولم نرَ فى التاريخ على الإطلاق إمبراطورية بمثل هذا الانتصار بفضل القوة ووسائل الإعلام تصر على أخذنا جميعًا فى أيديولوجيتها. إن إمبراطورية المال تنقل بعد ذلك بالجوع (٣٠ مليون: "هولوكست" سنويا)، وبالسلح (صراعات إفريقية، نظم قهرية، حروب فضائية، ينفق العالم كل عام ٨٠٠ مليار دولار على التسليح)، ويتدمير البيئة، ويتدمير الثقافات" (سبتمبر ٢٠٠٠ على الموقع www.giovaniemissione.it)

هذا هو الإطار النقدى. لو قبلناه فسوف تبدو لنا الوثبة الثلاثية بوضوح فى الرؤية المفصلة لأفقتها.

وإذا فالتعددية الثقافية تشير إلى موقف مجتمع ما، والفكر الذى يبررها، والذى وجد فيه أيضًا بعض النظام لفوضى الثقافات والأشخاص الذين زاحموه وحطوا فوقه، باعتبارهم غير أصلاء بالمولد. والنظام هو مجموعة من الخبرات والتراث جنبًا إلى جنب، ولكنها تعتبر منفصلة مثل الأطفال فى إعلان "يوناييتد كلورز أوف بنيتون": بيض لاتين، وبيض من الشمال، ومغاربة، وأفارقة سود من الغرب الأطلسى ومن القرن الشرقى، وهنود، وباكستانيين، وبنغاليون، واندونيسيون، وصينيون، ومتوسطيون،

وفلبينيون، ويابانيون، وسود من أمريكا، ومهجنون متنوعون (ولكنهم مصنفون)، وكاريبيون، وهنود حمر، ومنغوليون، ولابونيون، وتيبتيون، وقاى...

فى مدينة مثل تورنتو، على سبيل المثال، تمنح كثير من هذه الثقافات طعامها للمطاعم "العرقية" التى يقع الواحد منها إلى جوار الآخر - بما فى ذلك مطاعم الإسباجيتى والبيتزا الإيطالية - مثلما فى المختارات الشعرية لجميع الشعوب، ولكن كل قصيدة بلغتها الأصلية، وفى مهرجانات السينما، أو فى الأولمبياد.

إن التعددية الثقافية هى الدرجة الصفر، وفوقها نصف درجة للقاء بين الشعوب/الأشخاص فى أرض أجنبية، وهناك يبقى اللقاء فى نصف درجة فوق الصفر. إنها نصف درجة تجف مع مرور الوقت وتذبل وتتحلل وتتطاير ولا يعود من الممكن التحكم فيها. مثلما فى الولايات المتحدة، وطن "بوتقة الانصهار" المزعومة، حيث (الأرقام التى أعرضها من منظمة العفو الدولية) مليون وسبعمائة ألف مواطن يعيشون فى السجون (بإدارة القطاع الخاص، فهو "بزنس" مثل غيره): من بينهم ٦٠% من أفراد ينتمون إلى الأقليات العرقية، نصفهم مواطنون ملونون، زواج أو أفرقة أمريكيون. جميعهم لم يتوافق على الإطلاق مع الليبى الواسب^(*)، وبينهم وبين الليبى غير الواسب الذين "اندمجوا" بالفعل (إيطاليون ويهود وألمان وبولنديون وأيرلنديون... إلخ).

وهكذا تصبح التعددية الثقافية حالة اجتماعية فاسدة وتعيىة وضارة (ومدانة)، نوعاً من السعير المختبئ خلف قناع متعدد الألوان لمهراج أعمى.

ويبدو الشكل الأيديولوجى لخطاب التعددية الثقافية على أنه التعايش بين الأديان القوية، وأقصد أساساً ديانات التوحيد، تلك التى أسميها ديانات "عطلة نهاية الأسبوع"، نسبة

(*) مختصر حرفى يعبر عن الأمريكيين الليبى البروتستانت من سلالة أنجلو ساكسونية.
(المترجم)

إلى أيامها المقدسة: الجمعة والسبت والأحد. وجميعها تجمع على "عطلات نهاية الأسبوع" غير الدينية للأغنياء: للهو والاسترخاء ووقت الفراغ... إلخ. وتتواصل الأديان، كل على حدة، مع ربها، وتتعايش على الأكثر جنباً إلى جنب ولكنها منفصلة من حيث المبدأ والأسلوب والمصير، مثل معابدها، المعبد اليهودي والكنيسة والمسجد والمناطق المقدسة.. وعندما تتهجن مع الديانات الأضعف (مثل السانترية^(*) الكويبة والكاندومبيلية^(**) البرازيلية) فإنها تتخفى وتختبئ. ومصير التعددية الثقافية مثل مصير الأديان، يبدو اضمحلاً بلا نهاية (خالداً، ربما؟) وانفصلاً لا ينتهى ولا يُحتمل ولكنه ضرورى: لكل واحد نعيمه/سعيره، داخل النعيم/السعير الخاص بالعالم الشمالى، والذى ليس له دين، وإنما فقط سلطة ومال للهو فى عطلة نهاية الأسبوع.

الثقافة البينية: هذه الكلمة/المفهوم، يبدو أنها تشير لا إلى حالة/موقف، وإنما إلى حركة/عملية، سواء حضرية أو مؤسسية. "تقدم" اجتماعى يحاول أن يضع الثقافات الموجودة معاً داخل أحد المجتمعات الليضاء الغنية فى علاقة تبادلية، ومن خلال العلاقة الأساسية تتفرع جميع العلاقات الأخرى مع المجتمع المضيف المهيمن الغنى الأبيض نفسه.

والعلاقة الثقافية البينية - والتي تعنى حرفياً: للعلاقة بين الثقافات - يبدو لى أنها تبدأ حياتها فى أوروبا وخاصة فى المدرسة وفى عالم الفنون والاستعراض، وشيناً فشيناً وبصعوبة تشكل ثقافة جديدة للقاء بين الأجانب جميعاً وبين الثقافات المهاجرة والمستقبلة.

^(*) ديانة تجمع بين المسيحية والديانات الإفريقية الوثنية، وخاصة عبادة القديسين بدلاً من عبادة الرب، باعتبارهم رموزاً للآلهة التى كان يعبدها العبيد الإفريقيون قبل جلبهم إلى أمريكا. (المترجم)

^(**) ديانة انتشرت فى البرازيل فى الثلاثينيات، وتجمع بين الأوربانية والسنسكريتية. (المترجم)

هذه الثقافة الجديدة يجب أن تشق طريقها بالصراع ضد الأيديولوجيا السائدة والتي أعدتها طبقات السلطة في أوروبا الغربية بالفعل، والتي تشق هي نفسها من الخبرة الاستعمارية الطويلة: الاندماج داخل إمبراطورية المال وداخل قوانينها "الديمقراطية" والتتويرية. إنها أيديولوجيا تمارس السحر الكامل للحاجة والطبيعية أو بالأحرى "التطبيع"، على من يأتي عندنا بحثًا عن الثروة والكرامة.

وحضور المهاجرين من العوالم الجنوبية إلى البلاد الأوروبية يمثل الوجه الآخر للعالمية التي تديرها المغامرة الاستعمارية للدول الأوروبية الإمبريالية منذ القرن السادس عشر، العالمية التي اكتملت وترسخت في صورتها النهائية مع "العولمة" الحالية. ولكن الهجرة تبدو ككارثة وقتية للشعوب الأوروبية الغنية، بينما تبحث حكوماتها تنظيمها واستغلالها. والوصول الحالي للمهاجرين يمكن أن ينظر إليه كإمكانية ثانية تمنحها لنا مسيرة تاريخ النوع حتى نلتقى بحرية وبنجاح - ولم لا - كما قد يقول "ليميه سيزاز"، مع غير الأوروبيين. في المرة الأولى أردنا أن تأخذ هذه المغامرة للشكل العنيف الحزين للعلاقة الاستعمارية. والسياسة الأوروبية الحالية للاندماج التي تستخدم المهاجرين هي النتائج المقصود لهذه الحضارة، والتي نعيش دائمًا بداخلها، ولكننا دائمًا لا نشارك فيها. ومع ذلك فهناك عامل جديد الآن. هذا العامل الجديد هو الاستعداد الذي يتجاوز المتغير النسبي النخبوي الذي يدعو لحرية التجارة، وهذا الاستعداد ينمو في أوروبا من جانب أقلية من الأقلية الفكرية فيما يتعلق بالنزعة الاستعمارية الغازية المدمرة. والجديد في هذا هو الممارسة الشعرية-السياسية لجزء متنام من المجتمع المدني الأوروبي الحالي والتي تفتح، ومن ثم يتكون لديها الاستعداد والنشاط لاستقبال المهاجرين القادمين والاستماع إليهم ودمجهم، بطريقة مختلفة وإجراءات جديدة يتم تجربتها وابتكارها. ويتم هذا على أي حال من خلال ميل إيجابي وتقدمي يبدأ من درجة الصفر الفلسفية للتسامح، نحو خلق عالم مشترك جديد.

ونحن نعطي لهذه الممارسة الشعرية اسم الثقافة اللبينية، وهي أرضية للصراعات وللبناء فتحت على مصراعها منذ عهد قريب على تاريخ أوروبا الغربية. وشكلها

الخطابى يبدو خطاباً سياسياً من جانب طرف يريد أن ينتقل ويغير موقعه باستمرار ودون نهاية، ويتوسط ويقاوم ويوسع وينتظر ويتقدم ويتراجع ويهجع ويتحصن ويمتد ويتعب فى إعادة الطرح وأحياناً - وإن كان نادراً - بفرجة: كلمة أو خبرة لا ينتميان ولا حتى من باب الاستعارة البلاغية لحضارة عطلات نهاية الأسبوع والتعددية الثقافية.

أعتقد أن الثقافة العابرة قد تكون هى مرفأنا الصحيح ومرسانا الحقيقى؛ فهى لا ترسم حالة الأشياء التى تفسد نصيبها الصغير فى المدينة الفاضلة، حتى وإن ملأ جميع وسائل الاتصال الجماهيرية برسالة المزعومة عن التسامح والشفافية: التعددية الثقافية! الثقافة العابرة هى على العكس نصيب الذروة العالية للشاعرية - السياسية بينية الثقافة. هى القيمة غير المضافة ولكنها قيمة مخصصة، تلك التى يمكن أن تدفع وتحرك الكائن فى المسيرة، وتقويه وتزيده، وهى القيمة، والتى يلتقى بها فى المستقبل. والثقافة العابرة هى المحور الثالث للوثبة، هى التحليق الذى كانت الخطوتان الأوليان السابقتان عليه مجرد توطئة له أو سلم للارتقاء إليه أو دافعاً وتحضيراً له.

إن الثقافة العابرة بين مختلف الثقافات تميل لإنتاج حضارة جديدة. والأمر يتعلق هنا بمشروع لا تزال مصطلحاته حتى الآن عملية ومنهجية، ولكنها أصبحت بالفعل ثورية وجريئة: حضارة إبداعية وجماعية وغير متوقعة. وهى بفضل أساليبها هذه تتقل وتتجاوز وتقوم بخطوات ثلاث وما بعد هذه الخطوات الثلاث. والثقافة العابرة بين مختلف الثقافات تعنى فى الواقع تجاوز وعبور فعل معين ينتج من خلال التعاون موقفاً جديداً عن طريق عملية جسور. وأخيراً هى تحول غير متوقع للأشخاص المتعاونين - المستضيفين والضيوف - ولفاعلمهم وإنتاجهم المشترك. إن الثقافة العابرة لمختلف الثقافات هى فى الحقيقة شاعرية 'يوتوبية' وملينة بالقيمة، بعيداً عن القيود الدينية وعلى نحو أفضل من جميع سياسات التبادل الثقافى. وعندما تعمل تنتج من خلال الالتباس وسوء الفهم والمعاناة والكذ والاعتقالات (بالتأكيد) أعمالاً ومناهج.

إن الثقافة التى تعبر من بين مختلف الثقافات ليست 'يوتوبياً' ورقية تعبر عن رغبة

فلسفية منعزلة، إنما هي خبرة للإنسانى الجديد، الإنسانى الحر، الذى نصادفه منذ قرن على الأقل فى خبرات الفنانين والناس فى الكاريبى وأمريكا اللاتينية. خبرة نعرفها عن طريق الشعراء: الكوبى "خوسيه مارتى"، والمارتينيكيين "إيميه سيزار" و"إدوارد جليسان" و"ديريك والكوت"، ومن "سانتا لوتشيا"، ومن خلال الفلاسفة أمثال: المكسيكى "خوسيه فاسكونسيلوس" و"الأنثروبولوجيين" أمثال الكوبى "فرناندو أورتيغز"، ومن خلال الشعراء والفلاسفة البرازيليين "أوزالدو دى لندراج" و"جبلرتو" و"باولو فيريره" و"جايتانو فيلوزو" الذى يعنى بنعومة أغنية نابولى "قمر أحمر".

والثقافة العابرة للثقافات هى الشاعرية الجديدة لما هو إنسانى حر: الإنسانى الذى تحرر من الرب/مبدأ الكينونة، والإنسان الذى يحكم الإنسان. وهاتان هما الفكرتان المسبقتان للحضارة الأوروبية الغزبية. وتخلق الثقافة العابرة للثقافات الإنسانى الحر الجديد عن طريق تعاون الأجانب فيما بينهم، حتى فى أوروبا، الآن. ومصطلح خلق يعنى لكل شخص التعرف على النفس باعتبارها حاملة لأمته، تلك التى تعنى كل واحد منا كنقطة من كثير من نقاط التقاطع غير المحدودة بين أجيال النوع البشرى، وهو ما يعنى مرة أخرى لكل واحد التعرف على نفسه كحامل لصفة جيئية إضافية، كمبتكر طامح للمستقبل الجديد. والطريق الوحيد للإحساس بأن كل واحد هو نوع وهو أمة فى الوقت نفسه سواء للخلف أو للأمام هو اللقاء والجماع - حرفياً المضى معاً - المثمر مع الآخر. ودون الآخر الذى يتدخل فى مسيرة النفس، لن يكون هناك وجود لا للنفس ولا للآخر.

والخلق يعنى فى المقام الثانى عمل الفن على أفضل نحو فى عصرنا، ذلك الذى يسميه جوليو سيزار مونتيرو مارتينز: "التمازجية الأدبية *sincretismo*"، والتى تمثل الأدب العالمى الجديد من حيث الشكل والقيمة المعادية للعولمة وللتعدد الثقافى، أو لذلك الذى يسمى بالموسيقى العالمية على الطريقة الأنجلوساكسونية. أو ذلك الذى يتعلق بالحياة معاً، عندما يتجمع الرجال والنساء مع الكلمة والموسيقى والكتابة المسرحية قادمين من جميع العوالم لعشرين يوماً، يتحدثون ويكتبون عن مصيرنا، فى توسكانا فى صيف عام

٢٠٠٠ مع خبرة بورتو فرانكو^(*): المعاكسة لفكرة الحياة الجبرية من أجل المال، دون معنى، مثلما فى السقطات التليفزيونية، كما فى الفزع العولمى للحياة الفاسدة المنحرفة والعبثية للأشخاص الأغنياء فى المسلسل التليفزيونى "الأخ الأكبر"^(**) : نجاح غربى، ورد العالم الشمالى على إيهام المسلسلات البرازيلية والمصرية والهندية، حكايات وهمية مخصصة للفقراء.

هذه هى علامات ولافتات للسمو، كما أسماها الكاتب الكوبى الشاب خوسيه أنطونيو باوخين، التى تعنيها الثقافة العابرة للثقافات وتضعها قيد العمل. وهى البراهين على حضارة قائمة يخاطر نحوها نفر منا مستعد لأن يتخيل أكثر من استعداده لأن يصارع. لنترك خلف ظهورنا أسطورة البحر المتوسط لـ"عوليس" و"إيثاكا" و"صورة اللحنين". نحن لا نعود أندراجنا وإنما نمضى تجاه الأشياء التى تأتى من المستقبل فى اتجاهنا. هذه هى للشاعرية الخاصة بفرق من "فرق المخاطرة". وفى أثناء الذهاب الجماعى معاً يبدو عنصر عدم التوقع فى نقطة معينة أنه يعنى ويوفر الضمان الأكبر

(*) الكلمة تعنى "الميناء الحر"، مثل بورسعيد فى مصر، ولكنها هنا تأخذ معنى بلاغياً وليس واقعياً. (المترجم)

(**) Big brother مسلسل تليفزيونى يقوم على انتخاب "المحظوظين" من الشباب الذين يصورون على مدى الأربع والعشرين ساعة فى حياتهم اليومية فى إحدى الدور المخصصة لذلك البرنامج، ويقام بتصفياتهم على التوالى إلى أن يحظى الربح الأخير الذى تجمع عليه آراء مشاهدى التليفزيون بالجائزة "الكبرى". وهو يشابه من حيث المبدأ برنامج "الربح المليون" الذى روج له فى الإعلام العربى، والذى يستغل حلم الملايين المعدمين بالخلاص من بؤسهم إلى عالم المال والشهرة، وذلك رغم الأداء "المشوق" الذى يضيفه جورج قرداحى على النسخة العربية من هذا البرنامج، والذى تفتقر إليه النسخ الأصلية الغربية منه. (المراجع)

لأمان الفعل المغامر نفسه، ولأسلوب السلوك، وهو أمان حاسم باتر. ويصبح عدم التوقع، استراتيجية وخطة دفاع في أثناء مسيرة المغامرة الجماعية. إنني أكرر أن يكون هذا التأكيد على الأمان المطلق الذي يولده عدم التوقع شيئاً غريباً أو شاذاً أو صرعة أو مضمة فكرية. وإنما هو منيع غير متوقع للموارد. وفرقة المخاطرة من حيث النزعة تذهب فى اتجاه الأشياء التى تأتى بدورها من المستقبل. والأشياء لا تنتظرنا بإغواء وإغراء خلف منحنى نقطة تحول للماضى داخل المستقبل، ولكنها تأتى نحونا من المستقبل إذا قررنا أن نذهب باتجاهها دون محرمات وأفكار جامدة، دون أسلحة ومفريات، ونقر على نحو خاص علاقة سلوكية بيننا وبين أنفسنا، وبيننا وبين الأشياء التى يجب أن نفعليها ونقابلها: لائحة أعمالنا. ونحن نفاجأ ونتحول بالتبادل فى إطار للتدخل الخفيف للززل والخصب لذهابنا معاً، ومع ذلك فهو طائش ومتهور ومتماسك، معاً، نحن المغامرين، فى مواجهة الأشياء غير المحددة التى تأتى فى اتجاهنا ومن خلالنا. يتعلق الأمر بشاعرية "داخل سباق" - والشاعرية كانت دائماً أن تعرف وأن تفعل - تصل برفقة اليقين الناتج عن التغامر والذى ينتج مسرة وجوراً يمنحنا حماساً وصفاء، ويعطى الطاقة ويطلقها. حتى تتحقق المعادلة التى تنص على أنه كلما علت الثقة بغير المتوقع كلما خفت سرعة السباق. وهى حالة تجعلنا نهمل من الأشياء الجديدة التى تأتى نحونا فى ظل أمان اللاتوقع.^(*)

والشاعرية التى وصفتها حتى الآن على الرغم من خفتها التى تؤكد عليها تنبئ بالتعب والكدر فى التفكير وينقل الخطاب الأوروبى إذا تصورنا أنها تكافئ إيماءة، إيماءة بسيطة، لشخص إفريقي أو كاريبي يقيم بيننا، عندما ننظر إليه وينظر إلينا مع الوقت الذى يمر ومع الهواء والموسيقى.

(*) فى ذلك يقول برتولت برخت فى أحد أشعاره رداً على المثل الألمانية السائر " للشيء المضمون مضمون": "الشيء" المضمون" لا ضمان له. (المراجع)

وعلى أية حال فنحن لا نعود نحو "ليثاكا". ولكن محطاتنا النهائية هي "أطلانطا"، كما تؤكد قصيدة مؤلف إيطالي من الحدود هو "جينو براتسودورو".

والذهاب نحو "أطلانطا" لا يعنى محو العالم الذى نعيش فيه نحن الأوروبيين الغربيين. بل على العكس، يعنى إعادة امتلاك صفات يمكن أن تسعدنا أكثر، على أن تكون إعادة امتلاك بعيدة وخفيفة وعاطفية وعامية ونقدية ومتألقة، وقبل كل ذلك خفيفة مثل تحليق الفراشة. بالنسبة لى، على سبيل المثال، فإننى أتوق إلى استعادة تاريخ الرومان والإغريق وروما نفسها وتاريخ العصور الوسطى وعصر النهضة والتواريخ الذى تتعلق بالأسماء... إلخ. وأتذكر أنه فى أثناء الإجازة الدراسية للصف الخامس الابتدائى قذفتى أحد الصبية من السكان الأصليين بحجر شج رأسى؛ والسبب أننى طرحت نفسى بإصرار أكثر من اللازم على أننى من الرومان المنتصرين، وهذا يجعلنى أحب الرجوع إلى التاريخ الإغريقى للرومانى. أما لتجاهى نحو "روما" فهو مع الصديق "جوليو سيزار" الذى جعلنا نلعب على اسمه الذى يحمل مغزى كبيراً "يوليوس قيصر"، ولأننا كنا قد شاهدنا فيلم "المصارع الرومانى" فى الأيام نفسها كان هو يسمينى "الحاكم الإدارى الإمبراطورى للعوالم الجديدة"، وكنت موافقاً على هذا، وأحاول أن أحس بأننى فى عينيهِ حاكم حقيقى، بالضبط مثلما يحس الأمريكى الشمالى بنفسه فى عيون أوروبى كأنه صقر الليل أو السهم الخفى. وتثيرنى فى العصور الوسطى وعصر النهضة صورة فرقة المخاطرة. أما فيما يتعلق بالأسماء فهناك التاريخ الصربى - الألبانى لاسمى المرتبط بمدينة "نيش".

حتى نحب الثقافة العابرة للثقافات وننظمها بطريقة واسعة وخفيفة، يمكننا أن نفعل هذا فى كل مكان وفى كل وقت. يكفى أن نكون مختلفين، وننشغل بالعمل بخفة وانتظام. وكيف نفعل هذا؟ مثل رجل أو امرأة عندما يحاول وهو يودى الوثبة الثلاثية أن يقلد تحليق الفراشة.

وإن خفوا وطأ أيها الأولاد، كوئوزا بافانا!

التجاوز والتمازج^(١)

"التجاوز" و"التمازج sincretismo" هي الكلمات التي نقلها كل من الكويبي "خوسيه أنطونيو باوخين" والبرازيلي "جوليو سيزار مونتيرو مارتينز" إلى "فرقة المخاطرة" في "بورتو فرانكو": "الكلمة والكتابة". وهي فرقة من ٣٠ فردًا قادمة من جميع العوالم، فيما عدا أستراليا. عشنا وتجاوزنا بيننا وبين المنظمين والمنظمات الاجتماعية والمجموعات المسرحية وآخرين ونحن نتجول في "توسكانا" لمدة عشرين يومًا في صيف عام ٢٠٠٠. والكلمات التي أوردتها هنا أصبحت هي كلماتنا في هذه الطريقة الجديدة التي تعلن عن الثقافة العابرة للثقافات وتجربها. وقد دعم التمازج sincretismo بواسطة حوار مستمر بيني وبين "جوليو سيزار".

التمازج

خوسيه أنطونيو باوخين (مافانا)

أتيت من جميع الأنحاء

وإلى جميع الأنحاء أمضى

هما بيتان لـ "خوسيه مارتينز" تُعرّف الحياة الثقافية لإنسان من عصرنا، كائن يعيد تعريف نفسه بشكل دائم انطلاقًا من اللقاء الدائم مع ثقافات العوالم الأخرى. بهذا المعنى يمثل العالم الكاريبي خبرة نموذجية. بينما كان الفصيل الأوروبي يتجه نحو الهند الغربية كان الكاريبي أول أرض يصل إليها المستعمرون. واللقاء بين الحضارتين كان مؤسّفًا بسبب النوايا الأوروبية، ولكن بينما كان الغزو ينفذ ويمارس الإبادة كان يبدأ عملية

(١) أي الجمع بين مذاهب ومعتقدات متباينة في مزيج واحد (المراجع)

العدوى الثقافية، تلك التي أسماها الأنثروبولوجي الكوبي "فرناندو أورتيغز" "التكيف للعباء لمختلف الثقافات، transculturazione": وهو نظام ثقافي جديد تمامًا. الكاريبي عالم من عوالم الهجرة والشبكات الداخلى والخارجى. والبيتان اللذان قالهما "مارتينز" والخبرة الكاريبية تخبرنا بأهمية دراسة التفاعل الثقافى.

إن عملية معرفة ثقافة مختلفة لأبد وأن تبدأ (أو بالأحرى تعاود الانطلاق) من بحث النفس التي تحملها والتي تغذيها وصولاً إلى تعريف عناصرها الأساسية، ولابد تحديداً من التوصل إلى مرحلة السمو المتجاوز حتى يمكن الوصول إلى إثراء حقيقى.

فعملية معرفة ثقافة مختلفة تفترض اجتيازاً وتجاوزاً لسطح الثقافات حتى يمكن الانخراط فى اللقاء الثقافى بطريقة مفتوحة (دون أفكار مسبقة وأنماط متكررة متضخمة وأساطير) وذلك من أجل تحاشى جميع العقبات التي حطت أمام خبرة الثقافة البيئية الحقيقية.

وهكذا، على سبيل المثال، فإن موجة الهجرة الكبرى من "جاليثيا" إلى "كوبا" بين عامى ١٨٧٠ و عام ١٩٣٠ تقريباً بما أثارته من اتصال بين ثقافتين مختلفتين تحددتا فى عملية الثقافة البيئية تمثل حالة حقيقية من التمازج.

جاليثيا فقيرة

لهذا أذهب إلى هافانا

وداعاً أيتها الجواهر وداعاً

من كل قلبى!.

والكلمات لشاعرة "جاليثيا" روزاليا دى كاسترو، وهى تكشف التمزق المتخفى وراء ظاهرة الهجرة هذه. وعندما ذهب الجاليثى إلى "كوبا" وجد فيها مساحة لتطوير فكره القومى الخاص، لكى يخلق لنفسه رمزاً وطنياً، ولكى يعطى عزة أدبية للغة اقتصر

استخدامها فقط على الاستخدام الشفهي والمنزلي. هذا الاتصال مع الثقافة الكوبية أمد "جاليثيا" بتعديل في عمارتها (ما يسمى بالعمارة "الهندية"، وهي العمارة الأوروبية وقد عدتها العمارة الأمريكية الأصلية)، كما أجرت للتعديل على مطبخها وعلى لغته بالمثل. ومن ناحية أخرى فإن "كوبا" وهي تستفيد من قوى عاملة ثمينة حصلت من الهجرة الجاليثية على إسهام مهم في عملية الاستقلال، وأثرت في القاعدة اللغوية الإسبانية لكوبا ومطبخها وفنها الشعبي... إلخ. ويشهد على هذا تلك الصورة شديدة الجمال، والتي لاتزال حتى الآن محفوظة في الجانب الشرقي من البلاد، في مدينة سانتياجو دي كوبا، للرسولى سانتياجو (القديس جاكومو) "مامبى"، والتي صارت رمزاً يعرف به فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كل أولئك الذين حاربوا من أجل استقلال كوبا.

فالتجاوز الذى تحققه الثقافة البينية لابد أن يؤدي إلى تحول حقيقى فى العلاقة بين الثقافات: ولعل الكاتب، كما جرت العادة، هو أفضل من يعبر عنها من أى منا، وهو فى هذه الحالة "أليخو كاربنتييه"، فى رواية "مملكة هذا العالم" حيث يقول:

أصبح يفهم الآن أن الإنسان لا يعرف أبداً من أجل من يعانى ويأمل. إنه يعانى ويأمل ويعمل من أجل أفراد لن يعرفهم أبداً، وهم بدورهم سوف يعانون ويأملون ويعملون من أجل آخرين، ولا حتى هؤلاء سوف يكونون سعداء، لأن الإنسان يشترق إلى قدر من السعادة يفوق ما قسم له. ولكن عظمة الإنسان تتمثل فى أنه يريد تحسين وضعه، فى أن يفرض على نفسه واجبات. فى مملكة السماء لا توجد عظمة يمكن أن يجنيها، نظراً لأن كل شىء فيها مرتب ترتيباً دقيقاً، مجهول لم يكشف عنه، والوجود فيها لا نهاية له، وكذلك تستحيل التضحية من أجل تحقيق الراحة والسعادة. لهذا فإن الإنسان وقد قهرته الآلام والواجبات، وأصبح جميلاً فى إطار بؤسه وقادراً على أن يحب وسط الكوارث، يمكن أن يعثر على عظمته فى مملكة هذا العالم. (تورينو، دار نشر إيناودى، ١٩٩٠، الصفحات الأخيرة ١١٩-١٢٠).

التمازجية sincretismo

جوليو سيزار مارتينز

الكلمة قديمة مشتقة من اليونانية، وتعنى تجميع وخلق الفلسفات والأديان والعادات. واليوم تعود إلى الغرب بشكل مختلف من أمريكا اللاتينية، من البرازيل ومن الكاريبي، حيث تشير منذ زمن - منذ زمن تهجير شعوب "يوروبا" و"البانتو" و"البوليه" و"الإيو" و"المانديغ" وكثير من الشعوب الأخرى من إفريقيا الغربية إلى الأمريكتين - إلى واحدة من خصائص الحضارة الكاريبية والبرازيل الكبرى. منذ ذلك الوقت، بل من بطن السفينة النيجيرية التي عبرت الأطلنطي، حيث خلط التجار الأوروبيون جميع الأسرى معاً، محطمين القرى والقبائل والعائلات واللغات، العبيد - المهاجرين العرايا كما يسميهم "إوارد جليسان" - والمخفين جذورهم وهويتهم والمفرقين إياهم تحت سطح اللغة البرتغالية (أو الإسبانية، وغيرها) والديانة المسيحية، والعادات القهرية للسادة الأوروبيين والخواجات المحليين.

وكانت النزعة التمازجية القديمة التلقائية والإعجازية، فى تحققها اللاتينى - الأمريكى، هى هذا الخلط الذى يخفى وراءه - هذا الإخفاء المولم - الحذر القسرى: ولكنها كانت قد أصبحت بالفعل شكلاً من أشكال الحرية والإبداع. كيف أن "الكوندومبيلية" البرازيلية، وهى الديانة التى تضع القديسين المسيحيين على المعبد "اليوروبى"، مماثلة للديانة "السانتيرية" الكوبية. فهناك تمازجية إلزامية كما أن هناك تمازجية "يوتوبية"، يتم البحث عنها حباً فيها، كما يتم ابتكارها.

والتمازجية الحديثة هى الأمريكية اللاتينية، أو هى ليست كذلك فى الوقت نفسه. فقد أصبحت الفلسفة العملية الجديدة لذلك الإنسانى الذى سوف يأتى فى العوالم كلها. إنها الحرية العظيمة للكارنفال البرازيلى، والذى يصبح الإخفاء فيه تعرياً مرحاً وافتاحاً للجميع

على الجميع، داخل الموسيقى. والتمازجية تعنى البقاء مع الآخرين بأقصى قدر من الانفتاح فى الحضور والاختلاط اليومي، وتعنى الاختيار بين شخصيات الآخرين والثقافات الأخرى، دون الخوف من فقد الهوية (وأى هوية؟) وأفضل ما لدى النفس. والتمازجية هى الطرح الحيوى لعالم الجنوب وسائر العوالم الأخرى حتى نرقص معا رقصة المستقبل، وهى "يوتوبيا" تتجاوز القهر والألم.

"ألا تعتقد أنه من الممكن التعرف على الأفق التاريخى الجديد داخل السنكربتية اللاتينية- الأمريكية، الأفق الذى بدخله يمكن معرفة ورؤية وفهم سنكربتية عالمية تتعلق بالخيال والأدب؟ الأدب، هذا الذى لا أعرف بماذا أسميه، ولذى حدده "ميلان كونديرا" فى "النصوص المخونة" (١٩٩٣) بأنه تحويل الرواية الأوروبية إلى استوائية" على سبيل المثال؟"

ومفهوم السنكربتية فيما يتعلق بالثقافة والشعوب معروف إلى حد كبير، وأعتقد أن المفهوم الجديد تماما للسنكربتية لليوتوبية واضح، ولذى كنت أشير إليه خلال أيام البورتو فرانكو. ولكن بعد ذلك، مع اقتراب نهاية الجولة التى قمنا بها فى توسكانا، خطر ببالي تطوير لتلك الأفكار فى الساحة الأدبية: إذا كان من الحقيقى أن الأدب هو لتعكاس صادق جداً - حتى وإن كان هذا بطرائق فيها التواء وهذيان - لذلك الذى يحدث مع القطعة الصغيرة من الإنسانية التى تنتجها، بناء عليه فإن هذه السنكربتية نفسها سوف تحدث أيضا فى المجال الأدبى؛ أى أنه إذا كانت الخصائص الأبرز والأكثر خصوبة من وجهة نظر يداعية لأدباء وكتّاب هذه الفترة التاريخية - ما بين أفينتين - هى الخروج عن حدود الأرض - لغويا أيضا - والثقافة البيئية، فإنه لا يكون من المفهوم ألا تحمل رواياتهم هذه العلامات المميزة، ولا تظهر فى نفسها هذه "الأعراض" الخاصة بزماننا.

ولكن اللاشعور لدى الكاتب، وهو المصدر الأساسى للرواية، ليس بإمكانه كما نعرف تمييز ما هو مدخل مباشر (خبرات معاشة بشكل شخصى) وما هو مدخل غير مباشر (خبرات معاشة من خلال امتصاص خطاب الآخرين: فيلم، أو كتاب، أو قصة

شفهية، صورة، أو أغنية). ومن ثم فالعالم المعرفى الأساس الذى ينطلق منه أى كاتب، حتى وإن لم يخرج مطلقاً من بلدته التى ولد فيها، هو بالضرورة كون سنكريتى. وعندما يقال لكاتب من القرن الحادى والعشرين كلمة مثل "سافانا" أو "تيرفانا" أو "تومنكلتورا" أو "جانج" فإن قدرته الاستثنائية تكون أكثر لتساعاً وعمقاً عما كانت عليه قبل أربعين عاماً. وبالفعل فإن هذه المفاهيم أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التخيل المرتبط بها، وليست فقط رموزاً مجردة، وإنما "مضفرة". كما لو أن العالم كله فى رموسهم وقد دخلها عنوة وعلى الرغم من أنفسهم، وتصيح كتاباتهم كأنها شرارات انطلقت من هذا العالم - مخرجات - نحو الخارج، أى نحو القارئ.

إننا نتحدث حتى الآن من وجهة نظر الموضوعات، ولكن الشئ نفسه يحدث مع الأسلوب. ليس هناك جيل آخر من الكتاب مثل الجيل الحالى يمثل هذا السوعى للعملية الداخلية للكتابة، و"الأدوات" النفسية والفنية المتاحة، والخيارات الأسلوبية الممكنة. الجزء الأعظم من الكتاب، ربما الجزء الأكثر موهبة، يكتسبون المهارات الأكثر جذرية والأكثر صلادة من خلال الحياة كأستاذة لدورات الكتابة الإبداعية وعلم السرد للكتاب الشبان. فعلاوة على تمكنهم من الكتابة الجيدة يستطيعون المرور بشكل جيد خلف كواليس الكتابة، حتى يستطيعوا أن يشرحوا للآخرين ويعلموهم. إنهم كتّاب استطاعوا أن يقرأوا عندنا ضخماً من الكتب لمؤلفين محليين وعالميين، كلاسيكيين وعصريين، لسبب بسيط هو أن يكونوا على قامة تلامنتهم نفسها، للكتاب الشبان للنهمين للقراءة. وبالتالي فإن كتابتهم تعكس هذه الثقافة وتقدم نطاقاً واسعاً جداً من الخيارات، كأن لديهم القدرة - وهم بالفعل كذلك فى العادة - على اكتساب بعض الخصائص النوعية للأسلوب من تاريخ الأدب كله، حسب قناعاتهم. وليس صدفة أن منظرى رولية ما بعد الحداثة قد أجمعوا على اعتبار التناص وتقنية "الخط" علامات لا يمكن إنكارها فى هذه الفترة التاريخية.

أما "السنكريتية اليونانية" فلعلها تكون القدرة على اختيار العناصر المفيدة من الثقافات الأخرى، ثم دمجها دون "الهواجس القومية" أو المركزية الثقافية الماضى. أما

"السنكريفية الأدبية" فتعبر عن الموقف نفسه، ولكن في الساحة الأدبية. فعندما يختار الأديب الياباني البريطاني "كازوو إيشيجورو" - نتاج ممتاز لورش الكتابة الإبداعية - عالمًا من الموضوعات التقليدية التي تنتمي إلى الثقافة البريطانية، هذا العالم السرى لرؤساء الخدم في القصور، لروايته "ما تبقى من النهار"، وبعدها مباشرة يختار من الثقافة التقليدية اليابانية عالم الرسم المعروف باسم "أوكيو-إي"، موضوعًا لروايته "فنان العالم الطافي" فهو يضع قيد العمل تفكيرًا سنكريفياً واضحًا. وبطريقة مماثلة يفعل هذا وفعله من قبل "قريشى وليسبكتور" و"رشدى" و"كالاسو" و"أوكتابيو باث" و"براينتباخ" و"معلوف" و"أوندلتيجي" و"تابوكي" و"هونوانا" و"سنج" (*).

أستطيع أن أقول: إن السنكريفية الأدبية - من ناحية الموضوعات ومن ناحية الأسلوب - سوف تكون نتيجة طبيعية للتغيرات الجارية في أسلوب حياة الكتاب أكثر منها نموذجًا أو مشروعًا، بسبب الخيارات الجديدة والمحدودة التي تفرضها المهنة: المنفى والعالمية وتعددية اللغة والهجرة والهرب. ومع ذلك، وبعيدًا عن الخيارات والمسارات

(*) ويمكن أن نضيف إليهم الطاهر بن جلون، الذي يكتب بالفرنسية مطعمًا نصوصه بثمار الثقافة العربية الإسلامية، وغيره من الكتاب المهاجرين والمقيمين في ألمانيا، على سبيل المثال، حيث يطعمون الأدب الألماني المعاصر بثقافتهم الأصلية سواء التركية، أو العربية أو الفارسية... إلخ. وفي ذلك توفر مؤخرًا أحد أساتذة الأدب الألماني في جامعة دبلن على جمع ودرس المسرح الألماني الذي يكتبه ويؤديه الجيل الجديد من الأتراك المقيمين في برلين. كما أن ظاهرة المسرح المغربي الناطق بالفرنسية قد جعلت بعض مؤرخي الأدب الفرنسي يدعون إلى الاستفادة من تراث "مسرح الحلقة" عند شعوب شمال إفريقيا لتطعيم وإثراء المسرح للفرنسي به. انظر في ذلك كتاب: نظرية الأدب، لمؤلفه الراحل "سانتير ستيفان ساركاني"، والمنشور في باريس في سلسلة "ماذا أعرف؟" للفرنسية عام ١٩٩١. (المراجع)

الفردية يبدو أنه يوجد، بطريقة ربما كانت غامضة قليلاً، شيء ما "له نظام" فى هذه العملية، كما لو أن اللاشعور الجمعى، والعالم نفسه، والعالم الجديد بتناقضاته، يريد البحث عن أقلام تفسرها فى مجموعها، وتساعدنا على فهم نفسها وتوضيح رؤاها.

ويواصل الأمازونى المحيطى العجوز^(*) قائلاً:

عزيزى الحاكم الإدارى الإمبراطورى للعالم، نصك جميل جداً وشجاع ولا يتردد فى طرح ما يبدو لى أنه المهمة العظيمة لجيلنا (وربما أيضاً للأجيال التالية): أن نأخذ بأيدينا عنان العالمية للحمية - بنزعها من أيدي من يمسكون بها اليوم - لأنها تحدث حسب النماذج المثالية والمتغاممة، وهى نماذج مختلفة جداً عما هو جارٍ حالياً. وهو فى رأى عمل ليس نقدياً بقدر ما هو عمل إبداعى، وخيال يوتوبى دافق، لأن النقد يعتمد أنطولوجياً^(**) على من ينقد. وهو بالفعل عمل جدير ببراغ. ولكنه مع ذلك يجب أن يقرأ فى السياق الصحيح، يصاحبه النص المكتوب، فى يد المشاركين، حتى يمكن إعطاؤه حق قدره واستيعابه على نحو صحيح. ولعل هناك للعديد من الأشياء المهمة التى ينبغى إبرازها فى نصك... أفكار جميلة جداً: "الفرضية الشرسة" على سبيل المثال، الدقة التى تسمى بها الزمن الحاضر "عصر العولمية"، الانتباه الصحيح والملائم للنزعة الاستعمارية الروسية فى آسيا وما حولها (روسيا ترى أوروبا - ولكنها لا تقول هذا صراحة - شبه جزيرة تابعة لها إلى الغرب منها، كما أن كوريا هى شبه جزيرة لها من ناحية الشرق)، وأفكار "نفوذ اللا إنسانى" و"ترسيخ اللا إنسانى"، وهذه الأخيرة قريبة جداً من الواقع حسب تصورى، وأخيراً المقطع الشعرى الرقيق "البيئى" "لأونجاريتى"، ومقطع "كالفيينو": "أن تتعرف فى وسط جهنم على من وما هو ليس بجهنم". وفى هذا المقطع الأخير اعتراف

(*) يقصد "جوليو سيزار مونتيرو مارتينز" كاتب السطور السابقة، وربما كتبها فى خطاب

خاص للمؤلف. (المترجم).

(**) الأنطولوجيا: مبحث الوجود. (المراجع)

بأن جهدنا جهد معرفى فلسفى، و"التعرف" هى الكلمة التى تم اختيارها لهذا الجهد. ولنفكر فيها قليلاً: إن الإنسان لا يتعرف إلا بعد أن يعرف. و"التعرف" هو الناقوس الذى يدق عندما يسلط انعكاساً جديداً بدقة على صورة قديمة. فماذا عساهما تكون بالنسبة لنا هذه الصورة القديمة التى تسمح بالتعرف الملائم الواضح: للكلاسيكيون الغربيون؟ للكلاسيكيون العالميون؟ الأديان؟ الحكايات الخرافية؟ مبادئنا الأخلاقية العميقة؟ "مقولات كانط" اللزومية؟ للفطرة؟ للحس العلمانى بالعدل الاتفاقى؟ ولكن هل نستطيع أن نتقن بالكامل فى أى من هذه النماذج؟ كيف نكون وثقين من أننا نقدم أفضل ما لدينا لعالم المستقبل إذا كانت رؤانا أحياناً غائمة، وأى اختيار يتم الأخذ به ينطوى على جانب أخلاقى ويفرض تضحيات وأضراراً لشيء كبير؟ والأهم من هذا كله كيف لا نسمح بالآل يشل الوعى بترددنا الفكرى والأخلاقى حركتنا ولا يجعلنا ندور فى حلقات كنجاجة وحيدة فى حظيرة، بينما العدو يتقدم للأمام مباشرة ودون توقف؟ كيف لا نصبح مستعمرين فى أسلوب جهدنا للتخلص من النزعة الاستعمارية؟ كيف نؤكد دون أداء طقوس كهنوتية وكيف نتصت للأخر باحترام أكثر عمقاً من ذلك الذى يحس ذلك الأخر - المستعمر فى روجه هو الأخر - بأنه يستحقه فى مواجهتك وفى مواجهة خطابك المفصل وفى مواجهة طمأنينتك وأنت تتحدث، وفى مواجهة ثقك "النبيلة"، وفى مواجهة طلائك فى لغتك الأوروبية "النبيلة" وتوابعها؟ كيف تحس بالعزة والكرامة، بالذكاء والأهمية، التى ربما فاقت نكاعنا انطلاقاً من صوت مهزوز يصدره زعيم ينحنى تواضعاً، من سخف عدم العثور على الشفرة الصحيحة والإشارات الدقيقة؟ كيف لا تستفيد، وسط حرارة الحديث، من اندعام التوازن هذا وتخطر بأن تصنع استعماراً "بلاغياً" بكل النوايا الحسنه الممكنة؟ يا صديقى العزيز إن مواجهة العدو الداخلى جد صعبة، التخريب فى الطبع، بينما نتعلم أن نكون أشد قوة فى مواجهة الأقوياء، ونزيد من الضعف الذى لا غنى عنه فى كل يوم مع الضعفاء، وما يميزه من "رقة حاشية" جديدة .

وشىء أخير، يشغلنى ويقلقنى بالفعل: تقسيم "الشمال-الجنوب" المحدد جغرافياً، ذلك التقسيم الكلاسيكى، ولكننى أكثر انشغالاً بالتقسيم "شمال-جنوب" داخل كل جزء

صغير من الشمال والجنوب - وهو تقسيم لم يعد بين من "يملك" من "لا يملك" كما كان يقال حتى عهد قريب، وإنما هو اليوم أشد خطراً، فهو بين من "يكون" ومن "لا يكون" باستخدام فعل للكينونة الأكثر اتساعاً من حيث المفهوم من فعل الملكية المحدود. فى أى حى من "بيلو هوريزونت"، "مانيل"، "لوس أتلوس"، نجد كائنات ألفا وكائنات بيتا، مثلما فى رواية "هكسلى"، والمسافة وانعدام التواصل بين "هاتين الطبقتين لحركة حرية التجارة الجديدة" يتضخم اتساعه. لهذا فإن الثورة الوحيدة الممكنة من الآن فصاعداً، فى رأى، هى الثورة الثقافية الأخلاقية العالمية، أو لا ثورة على الإطلاق. يتعلق الأمر بتغيير شىء ما فى جوهر الإنسان نفسه، بالتدخل فى "الكيمياء الروحية" للجميع، وليس مجرد تغيير فى توزيع الثروات والعدالة الاجتماعية، والتي بدورها ستكون مستحيلة، أو هشة وقصيرة الأجل، إذا لم يسبقها انقلاب حقيقى عالمى فى القيم. حسناً يا صديقى: والآن أقدم إليك تصوراً مكملاً قمت به بنفسى - بين طبخ لطفل، ورد على تليفون الفتاة البرازيلية، وتناول الماء من النبع القريب من البيت - حول السنكريتية الأدبية. وعلى هذا فلكى نتقدم خطوة أخرى إلى الأمام تذكرت قراءتى فى السبعينيات، فى نظرية الظاهراتية الخصبة لـ"هوسرل"، والتي تقدم بعض الأفكار المفيدة لفهم الحاضر، مثل أفكار الفكرة وموضوعها نويماطيقياً ^(*)noematic وفعلاً فهم الفكرة ومعرفتها نويطيقياً ^(**)noetic

(*) ما يتعلق بالنويما وهى موضوع التفكير والفكر كما طرح نفسها لخبرتتنا. (المترجم)
 (**) ما يتعلق بالنويزى وهى ما يضمه الفكر مميّزاً عن تقدم عملية الحديث للعقل، وطبقاً لهوسرل" فهو أى فعل تستوعب من خلاله الذات أو تعرف أو تفهم الموضوع بأية طريقة. (المترجم)

تعليق للمراجع

النويما Noema وجمعها "نويماطا" Noemata هى حالة ذهنية تعادل الفكرة المسبقة Schemata وهى تعنى فى الفلسفة الظاهراتية أن الإنسان ينحو لقولبة خبرته بالعالم =

على سبيل المثال. وحسبما أتذكر فإن موضوع الفكرة يعنى العالم كما هو فى شموله المادى، وبالتالي فهو غير قابل للاختزال إلى معانٍ ومعرفة فكرية. وفى موضوع الفكرة كله لا يسمح لنا بالدخول إلا لجزء صغير وهو فعل الفهم. وفعل للفهم لدى الفرد يختلف من ذات إلى أخرى، يتعلق الأمر بالجزء للصغير من العالم الذى ننجح فى تحويله إلى فكرة، فى بنائه كتمثيل ذهنى أو كونه شخصى لكل فرد. إذن ماذا تكون "المادة الخام" لعمل الكاتب لحظة إبداعه؟ ماذا يكون الكون الذى ينهمر منه الخيال الأدبى؟ هل هو موضوع التفكير؟ العالم؟ لا. فالعالم لا يمكن للولوج إليه وفك شفرته وهو يقع خارج ذاتية الكاتب. ربما يكون فعل الفهم إذن؟ نعم، بالضبط، أى المدخلات المباشرة (التلامس المادى للحواس) أو عن طريق غير مباشر (عن طريق الفن والإعلام)، وهما يتراكمان معاً داخله، فى أثناء وجوده، ويتعرضان لعمليات نفسية خاصة، فتنتج المخرجات الأصيلة، أى العمل الأدبى. فما هى بالتحديد طبيعة المدخلات التى تشكل الذاتية اليوم؟ هى تلك التى يمكن امتصاصها بشكل غير مباشر (خاصة انطلاقاً من ظاهرة الإنترنت والمحطات الفضائية) بينما تقل المدخلات المباشرة دوماً. وعلاوة على هذا فهذه المدخلات تتشابه وتزداد تشابهاً، مهما كان المكان الذى يعيش فيه الكاتب بجسده؛ لأن التوزيع الحالى للمعلومات يخضع لعملية المطابقة نفسها والتحويل مثل المنتجات الأخرى. ومن ثم فإن الأعمال الروائية العالمية الناتجة عن هذه البانوراما سوف تكون هى أيضاً الانعكاس الذى يزداد عالمية، كثرة لذاتية أفعال الفهم والمعرفة المطروحة للتفكير حسب المدخلات

=الخارجى حسب تصورات المسبقة عنه. أما البنية الذهنية التى تحدد به لذلك فهى "النوما"، بينما "النويطيقا" Noetica هى أداة استخدام شبكة دلالية لبناء المعرفة عن طريق المفاهيم وما بينها من علاقات. ومن هنا "النويطيقا" تختلف عن أنظمة المعلومات فى أن اللغة التى تمثلها مجردة وشديدة الترابط، فضلاً عن أنها تتضمن تنظيراً معرفياً. (المراجع)

الجديدة المتاحة والتي يتقاسمها الجميع. على سبيل المثال: الصورة التليفزيونية للسماء الليلية في بغداد تحت القصف الأمريكى فى أثناء حرب الخليج، شاشة للتليفزيون التى تميل إلى اللون الأخضر الشاحب وقد خططتها المدفعية العراقية للمضادة للطائرات، كأنها ألعاب نارية سريعة، وديدان مضيئة تزحف عليها بين الضباب. وبناء عليه فإن هذه الصور رأها الناس كما هى، وفى الوقت نفسه فى جميع دول العالم، متساوية بالتمام والكمال، وبالتأثير الوجدانى نفسه، فى أوساكا كما فى "كيبف" و"لشبونة" و"لا باز". ونتيجة لهذا فإن جزءاً من الذاتية تم بناؤها فى تلك اللحظة كفعل فهم واستيعاب جماعى، وأصبح هذا الجزء "إرثاً معرفياً" عالمياً، ولن يكون مدهشاً بالتالى أن يشعر كاتب هندى أو مكسيكى أو إيطالى أو سنغالى بأن من حقه أن يروى هذه الخبرة باعتبارها خبرته الشخصية. سوف تكون كذلك. ولكنها أيضاً سوف تكون خبرة الآخرين جميعاً. لم يكن هذا ليصح قبل ثلاثين عاماً. ليس هذا فقط، وإنما فى ذلك الوقت كان فعل الفهم يحصل على عناصر أكثر من الخبرات المباشرة المتعددة والمتنوعة، وكذلك الخبرات غير المباشرة أيضاً التى كانت أكثر شخصية وتوطناً. وهكذا فإن أدباً جديداً يطفو كإرث عالمى، ليس فقط بالنسبة لاستهلاكه، وإنما أيضاً وقبل كل شىء فيما يتعلق بإبداعه. ولكن تكاد أن تكون مرعبة تلك السرعة التى يتحقق فيها استبدال هذا "المصدر" فى السنوات الأخيرة. فليست المادة الخام هى وحدها التى صارت الآن مختلفة، وإنما أيضاً "معمارها" والبعد وشكل "الأسياخ" التى تدخل فيها "أصابع" المثيرات الخارجية. وأستطيع أن أقول إنه إنسان مختلف، ذلك الذى يقدم نفسه إلى القرن الجديد، والأدب الذى سوف ينتجه سوف يكون بالضرورة مختلفاً. "المنشأ" هذه المرة له أهمية أقل من "البنية"، ومن الكون الذى اختاره، والذى يفتتح بأنه ينتمى إليه. ولهذا فإن السؤال الذى يوجه إلى كاتب اليوم ليس من أين أتى؟ ولا ما لغته الأم؟ ولكن ماذا يعرف وأى لغة اختارها. وليس أين وطنه، وإنما أين تكمن اهتماماته. إن كاتباً برازيلياً هو كايو فرناندو أبريو، كتب قصة يعود فيها مريض بالإيدز إلى بيت أمه بعد ١٥ سنة من الغياب حتى يموت إلى جوار والدته والكلب العجوز الذى تربى بصحبته. هذه القصة: "الأميرة، قصة مريضة"، هل هى برازيلية أم عالمية؟ إن الإيدز بلا شك عالمى بقدر عالمية الإنترنت

والبيتر نفسهما. أو بقدر عالمية الرواية الجديدة، مهما كانت اللغة التي كتبت بها وإنما وجد المؤلف في تلك اللحظة.

إليك عناقاً بحجم المحيط، ولتياغاً!.

عم سلاماً!

جوليو

سألتني ذات مرة ما إذا كان الالتياغ نستخدمه نحن البرازيليين تحية، ولماذا؟. وأنا أستخدم هذا اللفظ أحياناً عندما أكتب إلى امرأة، فهو يعنى تقريباً: أننى بينما أكتب إليك أفكر فيك ويسيطر على الالتياغ أكثر من مرة، فهو الذكرى الحلوة/المرة، حلوة لأنها تخصك أنت، ومرة لأنك لست هنا جسدياً إلى جواري. أى لغة هي لغتنا البرازيلية! وربما تعلم أيضاً أن للكلمة نفسها تستخدم في السباب.. فنستطيع أن نستخدم الكلمة نفسها فيما بيننا حتى وإن كنت حاكمى الإدارى الإمبراطورى .

عمت سلاماً!

جوليو

المؤلف في سطور

آرماندو نيشى

- ولد سنة ١٩٤٦ فى "مارتينا فرانكا" من أعمال "تارانتو" بجنوب إيطاليا.
- أستاذ الأدب المقارن بجامعة "لاسابينزا" (الحكمة) بروما وقد أسس هذا القسم عام ١٩٨٣.
- أولى "نيشى" اهتمامًا خاصًا فى محاضراته بالجامعة بموضوع "الأدب الإفريقى لما بعد الحقبة الاستعمارية" الذى يلقيه فى جامعة "لاسابينزا" منذ العام الدراسى ٢٠٠٤/٢٠٠٥، وبموضوع "التفاعل الثقافى والآداب غير الأوروبية" فى محاضراته بجامعة البندقية.
- شارك فى تأسيس الجمعية الإيطالية للأدب المقارن فى ١٩٨٥ التى انضمت بدورها للجمعية الدولية للأدب المقارن والاتحاد الدولى لجمعيات اللغات والآداب.
- عام ١٩٩٠ أسس "كراسات جايا للأدب المقارن"، حيث صارت تدعى منذ ١٩٩٨ "المجلة الإيطالية للأدب المقارن".
- قام بتحرير عددًا من سلاسل الكتب من بينها "كراسات التاريخ والنقد الشعرى" و "كُتَّاب الإيطالية من غير الإيطاليين".
- وفى هذه الموضوعات التى تشغله بصورة خاصة ألف نيفًا وثلاثين كتابًا تُرجم بعضها إلى العديد من اللغات كالإنجليزية، والفرنسية، والصينية، والبرتغالية والمجرية والسلوفانية... إلخ، من أبرز هذه المؤلفات "الشعريات الإفريقية" وآداب العوالم".

- صاحب نظرية شعرية تنحو لإحلال العولمة بشكلها الحالى المهيمن والمدمر لمصالح الشعوب بعالمية جديدة تنمو من خلال الندية الكاملة بين شعوب الأرض جمعاء وبمبادرة منها لتصنع تاريخاً إنسانياً مختلفاً حقاً عن تاريخ الصراع والقهر الذى يسود حالياً على مستوى العالم. وهنا يمكن أن يلعب الأدب دوره الأثير فى ابتداع آفاق هذه العالمية البديلة.
- حاضر فى عدد كبير من الجامعات الأوروبية، والآسيوية (اليابانية) والأمريكية الشمالية والجنوبية (البرازيل).

المترجم فى سطور

حسین محمود

- عضو هيئة التدريس ورئيس قسم اللغة والأدب الإيطالى بجامعة حلوان.
- حصل على الدكتوراه فى الأدب الإيطالى والمقارن عام ١٩٩٧، وذلك برسالة عنونها: "ألف ليلة وليلة والديكاميرون" دراسة مقارنة.
- عمل بالصحافة منذ عام ١٩٨١، وأصبح نائب مدير تحرير مجلة أكتوبر.
- قدم عدة أبحاث فى المؤتمرات القومية.
- ترجم وراجع عددًا من الأعمال الأدبية من بينها مسرحيات لـ "داريو فو" وقصص إيطالية معاصرة.
- عضو بالجمعية المصرية للأدب المقارن ونقابة الصحفيين ونادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة حلوان.

المراجع في سطور

أ.د. مجدى يوسف

- أستاذ الأدب المقارن والثقافات الاجتماعية المقارنة.
- أسس دراسات الأدب العربي الحديث فى جامعة كولونيا عام ١٩٦٥، وذلك للمرة الأولى فى التاريخ الحديث للدراسات العربية فى ألمانيا.
- ظل يحاضر فى جامعتى كولونيا وبوخوم على مدى ستة عشر عاماً فى مادتي الأدب المقارن والحضارات المقارنة.
- جاء إلى مصر أستاذاً زائراً لنظرية المعرفة وعلم الاجتماع فى جامعة طنطا (١٩٧٩: ١٩٨١)، ولمناهج البحث فى المعهد العالى للنقد الفنى (١٩٨٣: ١٩٨٤)، ولمناهج البحث بالدراسات العليا فى قسم الصحافة فى كلية الإعلام جامعة القاهرة (١٩٨٩: ١٩٩١)، ولدبلومى الأدب المقارن والأدب المسرحى فى كلية الآداب جامعة القاهرة (منذ عام ١٩٨٩).
- أسس فى جامعة بريمن عام ١٩٨١ "الرابطة الدولية لدراسات التداخل الحضارى".
- له مؤلفات بست لغات أوروبية، فضلاً عن العربية، خاصة فى النقد المعرفى/الفلسفى للمركزية الأوروبية فى نظرية الأدب والثقافة، وقد استوحاها عدد من كبار الباحثين الغربيين فى مؤلفاتهم العلمية خاصة فى إيطاليا، وفرنسا، وكندا، والولايات المتحدة الأمريكية.
- من أهم مؤلفاته بالعربية: التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى، هيئة الكتاب ١٩٩٣، ط ٢ مكتبة الأسرة ٢٠٠٦، ومن التداخل إلى

التفاعل الحضارى، كتاب الهلال ٢٠٠١، و"معارك نقدية"، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ (صدرت له فى يناير طبعة ثانية مزودة بتسع إضافات سنة ٢٠٠٧). وهو يصدر عن دار نشر Symposium Press الألمانية دوريتين علميتين (مؤقتاً باللغات الأوروبية، وفى المستقبل باللغة العربية بالمثل) موقعهما: www.intercultural-studies.org، www.art-in-society.de.

التصحيح اللغوى : صفاء فتحى
الإشراف الفنى : حسن كامل